شمس الإسلام

تشرق فى البلاد

تأليف

د . فوزى خضر

عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب : شمس الإسلام تشرق فى البلاد
تأليـــــــف : د. فوزى خضر
17 × 24 سم . 192 ص .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 2001/9953
اسم الناشر : الدار الثقافية للنشر

Shams Al Eslam
Dr. Fawze Khedr
17 x 24 cm. 192 p.
ISBN: 977 - 339 - 062 - 4

الطبعة الأولى
1423 هـ/ 2002 م

الدار الثقافية للنشر - القاهرة
ص.ب 134 بانوراما اكتوبر 11811 - تليفاكس 4172769 - 4035694
Email: nassar@hotmail.com

تمهيد

بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ، والحَمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ حَمدًا كثيرًا طيبًا، والصلاةُ والسلامُ علـى سـيِّدنا محمـد خـاتمِ النبـيِّينَ وإمـامِ المرسَـلينَ، وعلى آله وصَحْبه، والتابعينَ له بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

وبعـدُ، فـإنَّ الإسـلامَ قـد انتشرَ في أرجاء الدنيا بالدعوة الحسنة، ولمْ نسمعْ عن حالة واحـدة خُيِّر فيها إنسانٌ بينَ القتلِ واعتناقِ الإسلامِ. والجيوشُ الإسلاميةُ التى زحفتْ شرقًا وغربًا رافعةً رايةَ الجهاد كانتْ رسالتُها الأولى تعريفَ شعوب الأرض بالإسلام، وكانـتْ تخـيِّرُ أهـلَ الـبلاد بـينَ الدخـول فـى الإسـلامِ، فيصيرُ لَهُم ما للمسلمينَ من حقـوق، ويصـيرُ علـيهم مـا على المسلمينَ من واجبات، أو يدفعونَ الجِزْيَةَ، فيأمَنونَ علـى أنفُسـهم وأموالهـم، أو القـتال إذا رفضُـوا هـذا وذاك. وكانـتْ مهمةُ الجيوشِ الفاتحـة دعـوةَ الـناسِ إلى ديـنِ الله عَـزَّ وجـلَّ. وكـانَ المسـلمونَ يمـثلونَ قُـدوةً حسنةً للشـعوبِ الَّـتى فـتحُوا بلادَهـا فـرأوْا فيهم النموذجَ الأمثلَ للعدلِ والأخلاقِ الكريمةِ وحُسنِ السيرة، لذلكَ دخلَ الناسُ في دينِ الله أفواجًا.

وهـناكَ بلْـدانٌ دخلَهـا الإسـلامُ دونَ أن يذهبَ إليها جُنديٌّ واحدٌ، وهى تلكَ البلدانُ الـتى تعرَّفَـت الإسـلامَ عـنْ طـريقِ الدُّعـاة والـتجارِ والرحَّالة والمتصوِّفة الذينَ كانُوا يتنقَّلونَ بينَ البلاد ويدْعونَ أهلَها إلى الإسلامِ.

ولـم يكنْ الأمرُ يسيرًا على هؤلاء الدعاة، فقد واجهتْهُم مشكلاتٌ مستعصيةٌ في بعضِ الـبلدان كـى يطـبِّقَ أهلُهـا تعالـيمَ الإسلامِ، ففى شرقِ إفريقيةَ ووسْطها ـ على سبيلِ المـثال ـ اعـتادَ الأهـالى التخفُّفَ من الثياب بسبب شدة الحرِّ، واكتفَوْا بسَترِ عوراتهم، وكانَ من الصعبِ إقناعُ الرجالِ بارتداءِ ما يستُرُ أجسامَهم من السُّرَّة إلى الرُّكبة، وكانَ

الأمرُ أكثرَ صعوبةً بالنسبة للنساء؛ إذ يجبُ سترُ جسمِ المرأة كاملاً وتغطيةُ شَعرها أيضًا، كانتْ معاناةً حقيقيةً، حتى استطاعَ الدعاةُ إقناعَ هؤلاء الناس بسَتْرِ أجسامهم. ولاقَى الدعاةُ الصعوبةَ نفسَها في البلاد الشديدة البرودة، مثل بلاد القُوقازِ، فلم يكنْ منَ السهلِ إقناعُ أهلِها بحتميَّة الاغتسالِ، بينَما تغطِّي الثلوجُ الطرقاتِ والبيوتَ وكلَّ شيء.

وقَد دخلَ الإسلامُ بعضَ البلدان مبكّرًا جدًا مثل عُمان التى دخلَها الإسلامُ في عهدِ البعثة النبوية، وهناكَ بلدانٌ أخرَى لم يدخلْها الإسلامُ إلا في القرنِ التاسعَ عشرَ مثل الكُونغُو.

وهناكَ بلدانٌ إسلاميةٌ لا يعرفُ كثيرٌ من الناسِ كيفَ دخلَها الإسلامُ وانتشرَ بينَ أهلها، مثل البُوسْنَة والهَرسك، والشِّيشانِ.

كمَا توجدُ بلادٌ كانتْ دُوَلاً إسلاميةً في فتراتٍ من تاريخِها مثل الفلبِّين وأسْبَانْيا والبُرتُغال.

وانتشرَ الإسلامُ في بعض البلاد عنْ طريق مئات الدعاة مثل إيران، بينَما انتشرَ في بلاد أخرَى بواسطة داعية واحد مثل المالْديفِ. ونَعجَبُ من تصاريف الأقدار حينَ نعلمُ أنَّ الذى نشرَ الإسلامَ بينَ جميعِ أهلِ المالَديفِ الواقعة في المحيطِ جنوبَ غربِ الهندِ رجلٌ من بلاد المغرب.

إنَّ الدينَ الإسلاميَّ موجودٌ الآنَ في كلِّ بلاد العالم بحمد الله، بعضُ البلاد جميعُ أهلها مسلمونَ، وبعضُها معظمُ أهلها مسلمونَ، وبعضُها يعيشُ فيها أقليةٌ من المسلمينَ.

وتختلفُ الظروفُ الاجتماعيةُ في البلاد التى دخلَها الإسلامُ، كما تختلفُ مواقعُها الجغرافيةُ، ويختلفُ الزمنُ الذى دخلَ فيه الإسلامُ إلى تلك البلاد، لكنَّها جميعَها شهدتْ شمسَ الإسلامِ وهى تُشرقُ على أراضِيها وعلى أهلِها بنور اليقينِ والهداية.

وهـذا الكـتابُ شمـسُ الإسـلام تُشْـرِقُ فـى الـبلاد يَعـرِضُ للظروف التى دخلَ فيها الإسـلامُ ستينَ بلدًا، ذاكرًا موقعَها الجغرافىَّ وتاريخَ دُخول الدِّين الحَنيف إليها، وأثَرَ انتشـاره بـينَ أهلهـا، وذلكَ من خلال شكلٍ قَصَصِىٍّ تاريخىٍّ، يَهدفُ إلى التأكيد على أنَّ الإسـلامَ قـد انتشرَ بينَ الناسِ فى أرْجَاء الدُّنيا بالدعوة الحسنة، من مُنطلَق أنَّه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾، وهوَ مبدأ التزمَه المسلمونَ على مَدَى تاريخهم الطويل.

وقَـد جعلـتُ الكـتابَ في قسـمَين، القسـم الأول في تلـكَ البلدان التى غزتْها جيوشُ المسـلمينَ رافعـةً رايـةَ الجهـاد في سبيلِ الله، ثمَّ دعَا المسلمونَ أهلَها بالحكمة والمَوعظة الحسنة إلى الدخول فى الإسلام فاعتنقُوا الدينَ الحنيفَ.

والقسـم الـثانى في تلـكَ الـبلدانِ الـتى لم يدخلْهـا جندىٌّ مسلمٌ بسيف، وإنَّما كانتْ معرفـتُها بالإسـلام عـن طريق رجال من المسلمينَ، بعضُهم تجارٌ أو رحَّالةٌ، وبعضُهم متصوفةٌ، وبعضُهم دعاةٌ وهبُوا أنفسَهم للدعوة إلى دين الله.

وقَـد آثـرتُ الانحـيازَ إلى سهولة العرض، آملاً أن يكونَ فى هذا الكتاب ما يفيدُ، وما يُلقى الضوءَ على البلدانِ التى شَهِدَتْ شَمْسَ الإسلامِ وهىَ تُشرِقُ في البلادِ.

واللهُ من وراءِ القَصْد.

د. فوزى خضر

للبلاد ذكرياتٌ في قلوب الناس، وكانَ لمصْرَ ذكرَى طيبةٌ في قلب عَمرو بن العاص؛ فقدْ زارَهـا وأعجبَ بها قبلَ أنْ يَبعثَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ رسولَه الكريمَ مُحمَّدًا ﷺ بدين الإسلام لهداية الناس إلى طريق الحقِّ والنور.

وكانَ الناسُ في شبه الجَزيرة العربية يعملونَ في مهَن مختلفة، كثيرٌ منهُم كانَ يرعَى الغنمَ، وبعضُهم كانَ يعملُ في غَزْل الصُّوف، أو فى عَمَلِ مصنوعات من سَعَف النخيل، فيجدلُه ليصيرَ فرشًا، أو يصنعُ من جَريد النخيل مناضدَ أو أقفاصًا أو غيرَ ذلك، وكانَ الأثرياءُ يعملونَ بالتجارة.

وكانَ التجارُ نوعَين، نوعٌ يتاجرُ فى أشياءَ بسيطة فى سُوق قَبيلته، ونوعٌ يحملُ تجارتَه عَبرَ البلاد، فيتاجرُ في نطاق أكثرَ اتِّساعًا. فكانتْ تخرجُ القوافلُ من مكةَ المكرمة إلى اليَمَن حينًا، وتخرجُ من مَكَّةَ إلى بلاد الشام حينًا آخرَ.

وبدأتْ علاقةُ عمرو بن العاص بمصرَ حينَ خرجَ فى عامٍ منَ الأعوامِ معَ قافلة تجارية إلى الشام، ونزلَ التجارُ في بيت المَقْدس.

كانُوا مجموعةً من التجار الأصدقاء، سافَرُوا من مكةَ المكرمة إلى بيت المقدس تُقلُّهُمُ الإبلُ، وتحملُ بضائعَهم على ظهورها.

وأقَامُوا فترةً فى بيت المقدس لتصريف بضاعتهم، وكانَ عليهم أنْ يُطعمُوا الإبلَ خلالَ تلكَ الفترة، لذلكَ كانَ كلَّ يوم يخرجُ واحدٌ من هؤلاء التجار بالإبل إلى خارج بيت المقدس. كيْ ترعَى الإبلُ فى المراعى الموجودة هناكَ.

وجاءتْ نَوْبَةُ عمرو بن العاص كيْ يخرجَ لرَعْي الإبل، وشعرَ بالضِّيق الشديد؛ إذْ كانَ ذلكَ اليومُ حَارًا جدًا، أخَذَ الإبلَ على أىِّ حال وقررَ أنْ يرعَاها فى منطقة الجبال، لعلَّه يجدُ بجوارِ جبلٍ منها بعضَ ظلٍّ، يحتمى به من الشمسِ الفظيعة والقَيْظ الشديد.

بينَما كانَ عمرُو بنُ العاصِ جالسًا فى ظلٍّ إحدَى الصخور رَأى رجلاً يقتربُ منه فى إعياء، ويهتفُ بـه مستنجدًا كَى يُدركَه ببعضِ الماءِ؛ فهوَ يشعرُ أنَّه يُوشكُ أنْ يَهلكَ من شدة العطش.

هَبَّ عمرٌو مسرعًا فأعانَ الرجلَ وأجلسَه بجوارِه، ومنحَه قِربةَ الماءِ فشربَ منها كميةً كبيرةً، ثمَّ نامَ لا يشعرُ بشيءٍ.

قام عمرو ليطمئن على الإبل، وحين همَّ بالعودة إلى مكانه فى ظل الصخرة رأى حية كبيرة تخرج من حفرة بجوار الرجل النائم.

استيقظَ الرجلُ مفزوعًا على صوت غريب بجواره، ونظرَ فرأى تلكَ الحيةَ الكبيرةَ تتلوَّى وقَد اخترقَ سهمٌ رأسَها. نظرَ الرجلُ إلى عمرٍو فرآه يعيدُ قوسَه إلى مكانه الذى كانَ معلَّقًا به فى كتفه. سألَه: ما الأمرُ؟. فأبلغَه عمرٌو أنَّه رأى تلكَ الحيةَ تقتربُ منه فضربَها بسهمٍ من قوسه.

سألَ الرجلُ: ما اسمُك أيُّها الراعى؟

ضَحكَ عمرُو بنُ العاصِ، وأخبرَه أنَّه ليسَ راعيًا، وأوضحَ له الأمرَ، ففى كلِّ يومٍ يرعَى الإبلَ واحدٌ من التجار.

فكَّرَ الرجلُ قليلاً وسألَه: مَا ديَةُ القتيلِ عندكم؟ - أىْ ما يأخذُه أهلُ القتيلِ من القاتلِ مقابلَ العَفو عَنه - فأخبَره عَمرٌو أنَّها مائةٌ منَ الإبلِ.

قالَ الرجلُ: أنَا من الإسكندريةِ ببلادِ مصرَ، ولا نتعاملُ بالإبلِ، فكَمْ تُساوِى بالدَّنانير؟

قالَ عَمرٌو: الجَمَلُ الواحدُ بعشرة دنانيرَ.

قالَ الرجلُ: إذنْ فالمائةُ بألفِ دينارٍ.

قال عمرو: أجَلْ.

فقالَ لَه الرجلُ: أنتَ أنقذتَ حياتى اليومَ مرَّتين، مرةً حينَ كِدْتُ أهْلكُ من العطش، ومرةً حينَ كدتُ ألدَغُ بالحَيَّة، وبذلكَ يكونُ لكَ عندى ألفان من الدنانير تستحقُّها لما فعلتَ، فتعالَ معى إلى بلادى، كىْ أعطيَك حقَّك.

عَلِـمَ عمـرُو بـنُ العـاص أنَّ الرحلةَ إلى الإسكندرية سوفَ تستغرقُ شهرًا، عشرةَ أيامٍ ذهابًا، وعشرةً يقضيها في ضيافة المصرىِّ، وعشرةً يعودُ خلالَها إلى بيت المقدس.

وافـقَ أصـحابُ عَمـرو عـلى أن ينتظرُوه حتى يَرجعَ، ووعدَهم أن يعطيَهم نصفَ ما يأخذُه من المصرىِّ مقابلَ انتظارهم إيَّاه.

ارتسـمَ الذهـولُ عـلى ملامحِ عمرٍو حينَ دخل مدينةَ الإسكندرية؛ فقَد وجدَها مدينةً رائعةَ الجَمال، ورأى ما فيهَا منْ خيرات، واستراحَ إلى حُسنِ مُعاملة أهلها.

ووَفَـى المصـرىُّ بوعـده، فأعطَـاه ألفَـىْ ديـنارٍ، وبعثَ معَه من أوصلَه حتى أعادَه إلى أصحابه، بعدَ أن حمَّلَه بالهدايَا.

وعادَ عمرٌو رابحًا إلى مكةَ المكرمة.

ومـرَّت السـنواتُ، وظـلَّ عمرُو بنُ العاص يتذكرُ حادثةً عجيبةً وقعتْ لَه حينَما كانَ فـى الإسـكندرية، كانَ الناسُ هناكَ يحتفلونَ بأحد أعيادهم، وكانَ أمراءُ الإسكندرية وأشـرافُها يجـتمعونَ في ذلـكَ العيد، ومعَهم كُرَةٌ ذهبيةٌ يترامَى بها ملوكُهم ويتلقَّفُونها بأكمـامهم، وكـانُوا موقـنينَ بـأنَّ مَن وقعت الكرةُ في كُمِّه واستقرتْ به لا يموتُ حتى يصيرَ ملكًا عليَهم.

ذهـبَ عمـرُو بنُ العاص مع المصرىِّ لحضور احتفال الكرة الذهبية، ورمَى أحد أمراء الإسكندرية بالكرة، فأقبلتْ تهوى حتى وقعتْ فى كُمِّ عَمرٍو، فأصابَهم الذهولُ.

أيمكنُ أن يحكمَ الإسكندريةَ ذلكَ الرجلُ البدوىُّ؟

لَـم يخرجْهم من ذهولِهم غيرُ أحدِ الأمراءِ حينَ قالَ : يا قومُ، هذه الكرةُ لَم تكذبْ من قبلُ، لكنَّها كذبتْ هذه المرةَ .

شـعرُوا بالرِّضا وابتهجُوا لهذا القول، وعادُوا إلى احتفالاتهم ونسُوا ما حدثَ . . لكنَّ عمرَو بنَ العاصِ لَم يستطعْ نسيانَ هذا الأمرِ .

مرتْ سنواتٌ وسنواتٌ . . وجرَتْ أحداثٌ عظيمةٌ . . بُعثَ النبيُّ محمَّدٌ ﷺ، وانتشرتْ دعوتُـه، وأسـلمَ عمـرُو بـن العـاصِ . . وتوالت الأحداثُ في حياة النبيِّ صلواتُ الله وسلامُه عليه، وتوالتْ أحداثٌ فى عهد أبى بكرٍ الصِّدِّيق رضى الله عنه، ثمَّ كانَ فتحُ بيـتِ المقـدسِ فى عهد عُمَرَ بن الخطاب رضوانُ الله عليه، وحينَ كانَ في مدينة الجابيَة ببلاد الشامِ تحدثَ إليه عمرُو بنُ العاصِ بشأن فتحِ مصرَ فقالَ :

ـ ايـذنْ لى يـا أمـيرَ المؤمـنينَ أنْ أسـيرَ إلى مصرَ ؛ فإنَّك إنْ فتحتَها كانتْ قوةً للمسلمينَ وعَونًا لهم، وهيَ أكثرُ الأرضِ أموالاً .

وسارَ عمرُو بنُ العاصُ بجيوشهِ من مدينة قيساريَّةَ ببلادِ الشامِ متوجِّهًا إلى مصرَ .

١ـ العريش

عبَر جـيشُ المسـلمينَ رَفَحَ ووصلَ إلى مدينة العريش، وكانتْ تُعدُّ أولَى المُدُن في بلاد مصـرَ، فدخلَهـا عمـرُو بنُ العاصِ دونَ مقاومةٍ تُذكَرُ، ولقىَ في طريقه بعضَ الرُّهبان فأحسنَ معاملتَهم، ومضَى سائرًا فى طريقٍ قديمٍ جنوبىَّ بُحَيْرَة مَرْيُوط، وهُو الطريقُ نفسُـه الـذى سَـلَكَه يوسُـفُ عليه السلام فى العُهود القديمة أيامَ الفراعنة، والذى سلكَه أيضًا القـائدُ الفارسـىُّ قَمْبِـيزُ بجيوشه، ثم الإسكندرُ المَقْدُونىُّ، وسارَ حتى وصلَ إلى مدينة حصينةٍ جدًا، هىَ مدينةُ الفَرَمَا .

٢ـ الفرما

كانـتْ مديـنةُ الفرمَا مفتاحَ مصرَ، مَنْ عبرَها صارَ داخلَ مصرَ، وهيَ تقعُ شرقَ مدينة بُورسـعيدَ الحالية، وكانتْ على منطقة مرتفعة قليلاً من الأرضِ، ذات حصونٍ قوية، يدافعُ عنها أعظمُ جنودِ الرُّومان شراسةً فى القتالِ.

واسـتطاعَ عمـرُو بـنُ العـاصِ فـتحَها بعـدَ حصـار دامَ شهراً، تبعَه قتالٌ عنيفٌ، وقدْ سـاعدَه عـلى فـتحها المصـريونَ المُقـيمونَ فـيها، إذْ كـانُوا يتمنَّونَ التخلُّصَ من حُكمِ الرومان الذينَ يحتلُّونَ بلادَهم ويُسيئُونَ معاملتَهم.

وكـانَ جيشُ عمرو بن العاصِ يتكونُ من أربعة آلاف مقاتلٍ، وكانَ قدْ طلبَ من عُمرَ ابن الخَطَّاب ـ رضىَ اللهُ عنهُ ـ أنْ يُمدَّهُ بمقاتلينَ، وعلمَ عمرٌو أنَّ المددَ سيمرُّ بالفرمَا بلا شـكٍّ، ولمْ يكـنْ معَـه من الجند مَن يقدرُ على أن يتركَه فى تلكَ المدينة كى يحرُسَها، ولَـو تركَها كمَا هيَ فربَّما جاءَها جنودٌ من الرومان فيمنعونَ وصولَ المَدَد إليه، لذلكَ رَأى أنَّ أفضـلَ الحلـولِ هُـو هَـدمُ أسـوارِها وحصونِها قبلَ أن يتركَها ليتعمقَ فى بلادِ مصرَ.

وقَـد ذكـرَ اللَّيْـثُ بـنُ سعد صفات عمرو بن العاصِ الجسمية، فقالَ إنَّه كانَ قَصيراً، كبـيرَ الـرأسِ، بـارزَ الجـبهةِ، واسـعَ الفـمِ، عـريضَ مـا بـينَ الكتفين، كبيرَ الكفين والقدمين.

وقَـد سـارَ عمـرٌو بجيشـه مـن الفـرمَا حـتى وصـلَ إلى بلـدة القواصر، وكانتْ تقابلُه حامياتٌ صغيرةٌ أو فرقٌ قليلةٌ من الرومِ فيتغلَّبُ عليَها، ثم مضَى في طريقه حتى وصلَ إلى مدينةِ بلْبيسَ، بعدَ أنِ اخترقَ وادِى الطميلاتِ إليهَا.

١

٣. بلبيس

كـانَ ذلكَ سنةَ عشرينَ منَ الهجرة المشرَّفة حيَن حاصرَ عمرُو بنُ العاص مدينةَ بلْبَيْسَ بجيشـه الصـغير، وفوجـئَ بإصرارِ رجلٍ من المصريِّين على مقابلته، فلمَّا قابلَه قالَ لَه المصريُّ كلامًا غريبًا.

سألَه المصريُّ: هلْ تعرفُ أهميةَ هذَا البلد الذى تحاصرُه أيُّها الأميرُ؟

كانَ عمرٌو يعلمُ بالطبعِ أن بلبيسَ تمثلُ المدخلَ الحقيقيَّ لفتحِ مصرَ، ولكنْ لَم يكنْ هذَا ما يقصدُه الرجلُ، واتضحَ مقصدُه حينَ سألَ:

هلْ تعلمُ أن بلبيسَ بلدُ الأنبياء؟

تعجَّـبَ عمرٌو.. فأوضحَ الرجلُ قليلاً حينَ قالَ: بلبيسُ وُلدَ بها نبيٌّ، وسكنَها نبيٌّ، وزارَهَا نبيٌّ، ومرَّ بها نبيٌّ ونبيٌّ.

كـانَ المصـريُّ كلَّمـا أرادَ الإيضـاحَ يوضـحُ جـزءاً ويذكـرُ شـيئًا يحـتاجُ إلى المزيد من الإيضاح.. فسألَه عمرٌو عَن مقصده، وحينذاكَ قالَ المصريُّ:

فى بلبيسَ وُلد النبيُّ موسَى.

وفى بلبيسَ سكنَ النبيُّ يعقوبُ وأولادُه.

وبلبيسُ زارَها النبيُّ يوسفُ.

وبلبيسُ مرَّ بها النبيُّ إبراهيمُ، ومرَّ بها عيسَى.. عليهِم جميعًا السلامُ.

وقـالَ المصـريُّ لعمـرو بـنِ العاصِ: فى هذَا البلدِ شجرةٌ اسمُها شجرةُ مريمَ جلستْ تسـتريحُ تحـتَها حـيَن هربتْ بابنِها نبيِّ الله عيسَى ﵇ من فلسطيَن، فأرجُو ألا تَقطَعَ هذه الشجرةَ إذا دخلتَ البلدَ.

حينذاكَ قالَ لَه عمرٌو:

اعـلمْ أيُّهـا الرجلُ أنَّ المسلمينَ لا يقطعونَ الأشجارَ، ولا يُهلكُونَ الزرعَ، ولا يقتلونَ الشيخَ والمرأةَ والطفلَ، ولا يعتدُونَ على رسولٍ جاءَ من أجلِ التفاوُضِ.

كـانَ جـنودُ الرومِ الأشدَّاءُ يدافعونَ عن بلبيسَ، لكنَّ المسلمينَ استطاعُوا هزيمَتهم بعدَ حصـارٍ دامَ شـهرًا كاملاً، كانَ حاكمُ مصرَ هُو المُقَوْقَسَ البيزنطيَّ، وحينَ دخلَ عمرٌو بلبـيسَ كانـتْ ابـنةُ المقوقـسِ فيهَا، فبعثَ بها عمرٌو إلى أبيها معزَّزةً مكرمةً، ممَّا جعلَ المقوقـسُ يوقـنُ بكرمِ أخلاقِ المسلمينَ، وقَد سعدَ بوصُولِ ابنته إليه سالمةً، لكنَّه حزنَ من ناحيةٍ أخرَى؛ لأنَّ الرومَ خسرُوا أثناءَ فتحَ بلبيسَ ألفَ قتيلٍ وثلاثةَ آلافِ أسيرٍ.

٤ـ حصن بابليون

سـارَ عمـرُو بـنُ العاصِ بجيشِ المسلمينَ جنوبًا حتى وصلَ إلى حصنِ بابليونَ، وكانَ أقـوَى الحصـونِ وأشـدَّهَا، واسـتعدَّ الرومُ للقاءِ المسلمينَ، فتحصَّنُوا، وجعلُوا حولَ الحصـنِ خَـندَقًا، وجعلُـوا لَـه أبْوابًا، وجعلُـوا أوتـادَ الحديـدِ فى مداخلِ الأبوابِ، وحاصرَ عمرٌو الحصنَ، وأرسلَ إلى أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ يستعجلُ المدَدَ.

وطـالَ الحصـارُ والقـتالُ، ولَـم يسـتَطعِ المسـلمونَ فـتحَ حِصـنِ بابليونَ إلاَّ بعدَ سبعةِ شهورٍ، جرَتْ أثناءَهَا أحداثٌ كثيرةٌ.

دخـلَ عمرُو بنُ العاصِ ذاتَ يومٍ إلى قائدِ الحصنِ البيزنطيِّ، فتناقشَا فى أمورٍ، ثم قالَ لَه عمرٌو: سأخرجُ لأستشيرَ أصحابى.

وأمـرَ القـائدُ أحـدَ جـنودِه أنْ يقـفَ عـلى بـابِ الحصنِ، فإذَا مرَّ بِه عمرٌو ألقَى علَيه صخرةً فقتلَه.

وبيـنَما عمـرٌو فـى طـريقِه إلى البابِ إذ اقتربَ منه رجلٌ عربىٌّ فقالَ لَه: قد دخلتَ.. فانظرْ كيفَ تخرجُ؟

حيـنذاكَ عـلمَ عمـرٌو أنَّ هـناكَ مؤامـرةً تُدبَّرُ لقتله، فعادَ إلى قائد الحصن وقالَ له: أنَا شَخصـيًا أكادُ أقتنعُ برأيكَ، وأريدُ أنْ أحضرَ لكَ كبارَ قادة الجيش كىْ يستمعُوا إليكَ مثلَما استمَعتُ.

قـالَ القائدُ في نفسه إنَّ قتلَ مجموعة أفضلُ من قتلِ فرد واحد، وبعثَ إلى الرجل الذى علَى الباب يأمرُه بعدمِ قتلِ عمرو. وهكذَا خرجَ سالمًا، وأمِنَ غدرَ القائد الرومىِّ.

ومرت الأيامُ، وجاءتْ رسالةٌ من أمير المؤمنينَ عمرَ بن الخطاب - رضىَ الله عنه - تفيدُ أنَّـه بعـثَ إلى جـيشِ المسلمينَ بمصرَ مَدَدًا قَدْرُه أربعةُ آلاف مقاتلٍ، وكلُّ ألف يقودُهم رجلٌ بألف رجلٍ، وبذلكَ يكونُ كأنَّه قَد أرسلَ إليه ثمانيةَ آلاف.

أمَّـا القادةُ الأربعةُ الذينَ بعثَ بهم، والذينَ كلُّ واحد منهُم بألف رجلٍ فكانُوا: الزُّبَيْرَ ابنَ العَوَّام، والمقْدادَ بنَ عمرو، وعبَادَةَ بنَ الصَّامت، ومَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد.

ووصـلَ المـددُ إلى عَـين شمـسٍ فخـرجَ عمـرُو بنُ العاص لمقابلة القادمينَ كَى تتجمعَ الجـيوشُ الإسـلاميةُ، وحـاولَ القـائدُ الرومىُّ تيُودُور أن يستغلَّ هذا الموقفَ، فهاجمَ المسلمينَ فى جيشٍ قوامُه عشرونَ ألفَ مقاتلٍ.

لم يـدرك القـائدُ تيودورُ أنَّ عمرُو بنُ العاص قَد وهبَ له الله - عزَّ وجلَّ - عقلاً شديدَ الذكـاء، لقَد قابلَه عمرٌو بجزء من جيشه، وجعلَ جزءاً فى الجبلِ الأحمر، وجزءاً آخرَ عـندَ قرية تندونياسَ التى كانَ يعسكرُ فيهَا، وكانتْ فى موضع حديقة الأزبكيَّة، وقدْ اشـتعلَ القـتالُ بـيَن الجيشـين، ثـمَّ فوجـئَ الرومُ بهجوم الكَمين الذى كانَ فى الجبلِ الأحمـر، وشـعرَ القـائدُ بوطأة الضغط على جيشه، ولمْ يجدْ أمامَه غيرَ الانسحاب إلى جهـة الغـربِ، وحيـنذاكَ هاجَمـه القسـمُ الذى كانَ فى الأزبكية فأصبحَ محاصَرًا بينَ

ثلاثـةِ جـيوشٍ عربـيةٍ ، ولَـم يَـنجُ إلا بعـدد قليلٍ من جنوده ، وسقطَ آلافُ القتلَى من الرومِ .

بعـثَ المقوقسُ والى مصرَ يطلبُ الصُّلحَ ، فخيَّرَهُ عمرٌو بينَ الإسلامِ والجزْيَة والقتال . فاخـتارَ الجـزيةَ ، واتَّفقَ الطرفانِ علَى أنْ تكونَ دينارَيْنِ عَن كلِّ شخصٍ ، ويُعْفَى منها كبارُ السنِّ والنساءُ والأطفالُ .

لكـنَّ هرَقْلَ إمبراطورَ الرومِ لَم يعجبْه ذلكَ الصلحَ ؛ فقَد كانتْ مصرُ إحدَى ولاياته ، وبعـثَ إلى قـادة الـرومِ يأمـرُهم بقـتالِ المسـلمينَ ، واسـتدعَى المقوقـسَ إلى عاصـمته القُسْطَنْطينيَّة ووبَّخَه وأهانَه ونفَاهُ .

واشـتدَّ القـتالُ بـينَ الـرومِ والعـرب فى أوقات متفرقة ، ولكنَّهم تحصَّنُوا فى بابليونَ ، واشـتدَّ حصـارُ المسـلمينَ لُهـم ، ثمَّ ضعُفَتْ مقاومةُ الرومِ حينَ وصلت الأخبارُ بموت الإمبراطورِ هرَقلَ من ناحيةٍ ، وبانتشارِ الأمراضِ بينَهم من ناحيةٍ أخرَى .

وعـلـمَ المُسـلمونَ أنَّ اليأسَ أصابَ الرومَ لموت هرقلَ ، ومعَ ذلكَ لَم يتمكَّنِ المسلمونَ من فتحِ حصنِ بابلْيُونَ .

وذاتَ يـومٍ قـالَ الزبيرُ بنُ العوامِ : إنِّى أهبُ نفسى لله ، وأرجُو أن يفتحَ اللهُ بذلكَ على المسلمينَ .

وضـعَ الزُّبَـيْرُ سُلَّمًا عندَ سُور الحصنِ ، فصعدَ علَيه حتى اعتلَى السورَ ، وصعدَ خلفَه جماعـةٌ مـن المسـلمينَ ، ثم كبَّرَ الزبيرُ ، وكانَ قَد أمرَ المسلمينَ بأنْ يكبِّرُوا خارجَ السورِ بصوت عال إذا كبَّرَ .

وهكَـذاً هـتَفَ الـزبيرُ : اللهُ أكـبرُ ، وكـبّرَ مَـن معَـه ، وأجـابَهم المسنمونَ فى الخارجِ بالتكـبيرِ ، فظـنَّ أهـلُ الحصـنِ أن المسـلمينَ جميعَهم قَد اقتحمُوا الأسوارَ ، فهربُوا إلى

الداخـلِ، وحيـنذاكَ مضَى الزبيرُ بنُ العوامِ ومَن معَه، ففتحُوا بابَ الحصنِ كى يتدفَّقَ جيشُ المسلمِين إلى الداخلِ.

وسـلَّمَ أهلُ الحصنِ وطلبُوا الصلحَ والإذنَ لُهم بالخروجِ وأنْ يدفعُوا الجزيةَ، أما آلاتُ الحربِ والذخائرِ التى بالحصنِ فيأخذُها المسلمونَ.

وهكـذَا فرضَ عمرُو بنُ العاصِ الجزيةَ علَى مَن فى حصنِ بابليُونَ، وعلَى مَن يقيمونَ فـى المـناطقِ المجـاورةِ فـى مصـرَ وفـى عـينِ شمسٍ، وفى المنطقةِ الشرقيةِ كلِّها، فقَد صارتْ جميعُها تحتَ نفوذِه.

وقرَّرَ بعدَ ذلكَ أن يسيرَ بجيوشِه لفتحِ الإسكندريَّةِ التى تكتَظُّ بجنودِ الرومِ.

حـلَّ المسـلمونَ خـيامَهم الـتى كـانُوا نصبُوهَا قُرْبَ حصنِ بابليونَ، وحينَ همُّوا بحلِّ فسـطاط (خـيمة) عمـرو بـنِ العـاصِ وجـدُوا حمامـةً قَـد عشَّشَـتْ فيهَا، وفى العُشِّ أفراخُها، فقالَ لَهم عمرٌو: إنَّها نزلتْ فى حمايةِ العربِ. وأمرَهم بتركِ الخيمةِ.

٥ ـ فتح الإسكندرية

وقعـتْ معـاركُ صـغيرةٌ خلالَ الطريقِ من حصنِ بابلْيُونَ إلى الإسكندرية، انتصرَ فيها جـيشُ المسـلمينَ، وحـينَ وصلَ عمرُو بنُ العاصِ بالقربِ من أسوارِها كانَ جيشُه قَد بلغَ اثنَيْ عشرَ ألفًا؛ إذ انضمَّ إلَيه ما يقربُ من أربعةِ آلافٍ من أبناءِ القبائلِ العربيةِ التى كانتْ تقيمُ فى مصرَ.

كانـتِ الإسكندريةُ آنذاكَ من أعظمِ المدنِ، تَمْلأها القصورُ والقلاعُ، وسورُها حصينٌ إلى درجـةٍ كـبيرةٍ، وفـيهَا مـا يقربُ من خمسينَ ألفًا من جنودِ الرومِ. من ناحيةٍ أخرَى

كانـتْ تأتـيهَا الإمـداداتُ مـن الـبحرِ ، لهـذَا لَم يكنْ حصارُها مُجْديًا ، ومعَ ذلكَ دامَ الحصارُ أربعةَ عشرَ شَهرًا) .

كـانَ إمـبراطورُ الرومِ آنذاكَ هرَقْليونَاس أو هرَقْلَ الصغيرَ ، وقَد أرسلَ المقوقسَ ليعقدَ صـلحًا معَ المسلمينَ ، وتمَّ الصَلحُ بالفعلِ ، وَسلَّمت الحاميةُ مدينةَ الإسكندريةِ لعمرو ابنِ العاصِ .

وخـرجَ الـرومُ إلى بلادهم ودخلَ المسلمونَ الإسكندريةَ ، وأرسلَ عمرٌو يبشِّرُ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب ـ رضى اللهُ عنهُ ـ بالفتحِ ويقولُ لَه : " إنَّ اللهَ فتحَ علينَا مدينةً من صفتها أنَّ بها أربعـةَ آلاف قصـرٍ ، وأربعةَ آلاف حَمَّامٍ ، وأربعمائة ملهًى " . وقَد كانت الإسكندريةُ آنذاكَ أعظمَ المدنِ التجاريةِ فى العالَمِ .

وظهـرَ تسـامُحُ الإسـلامِ جَليًا حينَ أمرَ عمرُو بنُ العاصِ بعودةِ الأنْبَا بنْيامينَ إلى مكانه فى الإسكندريةِ بعدَ أنْ كانَ هاربًا من الرومِ مُخْتفيًا مدة ثلاثَ عشرَ سنةً .

ورأى أهـلُ مصـرَ حُسـنَ معاملـةِ المسلمينَ ، ولمسُوا حسنَ سلوكِهم وكرمَ أخلاقِهم ، وعدالةَ دينِهم ، فبدَأوا يدخلونَ في دينِ الإسلامِ .

وفتحَ عمرٌو المدنَ الساحليةَ بعدَ ذلكَ واحدةً بعدَ الأخرَى ، ثمَّ عادَ إلى حصنِ بابليونَ .

٦ـ الفسطاط

كـانَ عمـرُ بـنُ الخطـابِ ـ رضـىَ اللهُ عـنهُ ـ يأمرُ جيوشَ المسلمينَ أن تبنىَ لَها مُدنًا فى الـدولِ المفـتوحةِ ، ويأمرُهم أنْ تكونَ المدينةُ المبنيةُ علَى حدودِ الصحراءِ ، حتى يتحقَّقَ فـيهَا جَوُّ المساكنِ العربيةِ فيتآلفُ العربُ معَها ، وحتى يظَلَّ الجنودُ محتفظينَ بخشونتهم البدويةِ ، ولا تُضعفُهم إغراءاتُ الرَّفاهيَةِ الموجودةِ فى المدنِ المتحضِّرةِ .

وقَـد عـادَ عمـرُو بـنُ العـاصِ بالجـيوش إلى قُرب حصن بابليونَ حيثُ، كانَ يضربُ الخـيامَ علَـى حافَّـة الصحراء، وتساءَلَ. . أينَ يبنى مدينتَهم؟ فأجابَه أحدُهم: نَبْنيها عـندَ الفُسْـطَاط ـ أىْ عندَ خَيمة عَمرو التى تركوهَا قائمةً حتى لا يُفزعُوا الحمامةَ التى عشَّشَتْ فيهَا ـ وهكَّذا بنَوْا مدينةً أسَمَوْها الفسطاطَ.

وكـانَ أولُ مبنًى أقامَه المسلمونَ هوَ المَسْجدَ الجامعَ، وكانتْ مساحتُه خمسينَ ذراعًا فى ثلاثـينَ ذراعًـا، وهُـو جـامعُ عمـرِو بـنِ العـاصِ القائمِ إلى الآنَ بعدَ تطويرِه بالطبعِ. وخطَّطَ المسلمونَ مدينتَهم وبنَوْا بيوتَهم.

وكانـت المديـنةُ العربـيةُ تختلفُ عَن المُدنِ اليونانية والرومانية والفارسية وغيرِها، ففى الوقـتِ الـذى كانـتْ فـيه المدينةُ الرومانيةُ ـ مَثلاً ـ ذاتَ شوارعَ مُتَّسعة مستقيمة كانت المديـنةُ العربـيةُ ذاتَ شـوارعَ ضيقة ذاتَ تلافيفَ مثْل الثعبان. ولهذَا حكمةٌ، فأبوابُ البـيوت غـيرُ مـتقابلة، وقـبلَها وبعدَها انحـناءاتٌ ممَّـا يجعـلُ أهـلَ البيت لا يكشفونَ جيرانَهم، ولا يكشفُهم جيرانُهم، وفى ذلكَ حفاظٌ علَى حُرُماتِ البُيوت.

وتكوَّنـت الفُسْـطاطُ مـن أساسـيات المديـنة العربـية، ففيهَا الجامعُ والسوقُ والبيوتُ والحماماتُ.

وحـينَ اسـتتبَّ الأمـرُ لعمرو بنِ العاصِ أمرَ بتطهيرِ القناة التى تصلُ بينَ النيلِ والبحرِ الأحمـرِ وسمَّاهَـا قـناةَ أمـيرِ المؤمـنين، وجعلَهـا الطـريقَ الرئـيسَ الـذى يتمُّ عبرَه نقلُ الأقواتِ والغلالِ وغيرِها من مصرَ إلى المدينة المنورة.

٧ـ النوبة

دخلَ الإسلامُ بلادَ النُّوبة فى عهد عمرو بن العاص أوَّلَ مَا دخلَ، وذلكَ حيَن نشرَ جيوشَه فى أرجاء مصرَ، فقاد عبدُ الله بنُ سعد بن أبى السَّرْح جيشًا إلى بلاد النوبة، وكانَ عبدُ الله أحدَ القواد في جيش عمرو، حينَ وصلَ إلى هناكَ عرفَ الأهالى أنَّ دينًا اسمُه الإسلامُ قَد ظهرَ، وكانَ ذلكَ فى سنة إحدَى وعشرينَ من الهجرة المشرفة.

وقادَ عبدُ الله بنُ سعد حملةً أخرَى إلى بلاد النوبة سنةَ ٣١هـ. حينَ صارَ واليًا علَى مصرَ خَلَفًا للفاتح عمرو بن العاص، ودخلَ عبدُ الله مدينةَ دنقلةَ عاصمةَ بلاد النوبة، وعقدَ معَ أهلها معاهدةَ البقط، وهىَ معاهدةٌ اقتصاديةٌ حققَّت العلاقات الطيبةَ بينَ المسلمينَ والنوبيِّينَ.

وبدَأ الأفرادُ من أهل النوبة يعتنقونَ الإسلامَ، وهاجرتْ مجموعاتٌ عربيةٌ من شمال مصرَ إلى جنوبها عندَ سقوط الدولة الأموية، ثمَّ هاجرتْ أعدادٌ أخرَى من شمال مصرَ إلى بلاد النوبة حيَن بدأت دولةُ أحمدَ بن طولونَ، وقَد أدَّتْ هذه الهجراتُ إلى استقرار المسلمينَ هناكَ، فزادَ انتشارُ الإسلام بينَ أهَالى النوبة، ومعَ مرور الوقت صارَ النوبيُّونَ جميعُهم مسلمينَ.

٨ـ القدوة الحسنة

قالَ عبدُ الله بنُ عباس: دعَا نوحٌ ﷺ لابنه بيصرَ بن حام، فقالَ: اللَّهُمَّ إنَّه قَد أجابَ دعوتى، فبارِكْ فيه وفى ذُرِّيَّته، وأسكنْهُ الأرضَ الطيبةَ المباركةَ التى هى أمُّ البلاد وغَوثُ العباد. وقالَ عبدُ الله بنُ عمرو بن العاص: لما قسَّمَ نوحٌ ﷺ الأرضَ بينَ ولده جعلَ لحام مصرَ وسواحلَها والغربَ وشاطئَ النيل، فلمَّا دخلَها بيصرُ بنُ حامٍ

جعلَهـا لابـنه (مِصْـرَ)، وسمَّاهَا به. والقِبْطُ اسمٌ يطلَق علَى أولاد مصْرَ بن بيصرَ بنِ حامِ بنِ نوحٍ عليه السلام.

وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ (البقرة: ٦١). وقالَ رسولُ الله ﷺ: "ستُفتَحُ عليكُم بعدِى مصرُ، فاستوصُوا بقبطِها خيراً؛ فإنَّ لكُم منهُم ذِمَّةً ورَحِمًا".

فأمَّا رحِمُهُم: فهاجَرُ أمُّ إسماعيلَ بن إبراهيمَ علَيهما السلامُ. وأمَّا ذمَّتُهم فأمُّ إبراهيمَ ابنِ رسولِ الله ﷺ. وكلٌّ من هاجرَ ومَاريَّةَ مصريةٌ.

وقَد استوصَى المسلمونَ خيراً بالمصريينَ كمَا أمرَهُم رسولُ الله ﷺ، فأحسنُوا معاملَتهم. وشعرَ المصريونَ بالفرقِ الشاسعِ فِى المعاملة بينَ المسلمينَ والرُّومانِ الذينَ كانُوا يحتلُّونَ بلادَهم.

وتعاملَ المصريونَ معَ العربِ فرَأَوا كرمَ أخلاقهم وحسنَ سيرتهم، ورأوْا فيهمُ القدوةَ الحسنةَ؛ فهُم أمناءُ صادقونَ مخلصونَ خيِّرونَ، يأمرونَ بالمعروفِ وينَهَوْنَ عن المنكَرِ، عادلونَ طيِّبونَ، وعلِمَ المصريونَ أنَّ كرمَ أخلاقِ المسلمينَ يرجعُ إلى اعتناقهم دينَ الإسلامِ والتزامهم بتعاليمه، فأحبُّوا أنْ يتعرَّفُوا هذَا الدينَ.

ومن ناحيةٍ أخرَى سعَى فقهاءُ المسلمينَ إلى تعريفِ الناسِ بالدينِ الحنيف، فدخلَ أهلُ مصرَ فِي دينِ الله أفواجًا، وانتشرَ الإسلامُ فِي بلادِ مصرَ التى شهدَتْ شمسَ الإسلامِ وهيَ تُشْرِقُ فِى البلادِ.

٩- برقة

سَوفَ تتفتَّحُ الأزْهارُ
وأخطفُ نَجمةَ المجد من سَمائها
وأسيرُ بينَ إخوانى مفتخرًا بمواهبى
كلُّ ذلكَ لأنَّ في قلبي أملاً كَبيرًا
فى أنَّ الغَدَ سيكونُ مُشرقًا
أكثرَ من اليَوم.

حَولَ هذه المعانى كانتْ تدورُ قصائدُ الشعرِ التى يكتبُها كاليماخُوسُ الصغيرُ. كانَ كاليماخوسُ الأولُ أميَر شعراء الإسكندرية، هاجرَ إليْها من بَرْقَةَ قبلَ أن يُولَدَ كاليماخوسُ الصغيرُ بأكثرَ من ثمانمائة عامٍ، وحقَّقَ مَجْدًا أدَبيًا عظيمًا. كانَ كاليماخوسُ الصغيرُ يعلمُ ذلكَ، وأرادَ أنْ يَحْذُوَ حَذوَه، فيهاجرَ إلى الإسكندرية ويُنشدُ قصائدَه هناكَ، ويصيرَ شاعرًا عظيمًا مثلَ كاليماخوسَ الأول.

رفضتْ أمُّ كاليماخوسَ الصغيرَ فكرةَ السفر من أساسها، وحاولَ إقناعَها كَى توافقَ علَى سفره، فقالَ لَها: يا أمِّى، أنَا أريدُ أنْ أعيدَ أمجادَ كاليماخوسَ الأول، أمير الشعراء، أريدُ أنْ أذهبَ إلى الإسكندرية كمَا ذهبَ، وأنْ يعلُوَ نَجمى كمَا عَلا نَجمُه، وأنْ أصيرَ قائدَ الشعراء في هذا العصر كمَا كانَ قائدًا للشعراء فى عَصره. وأنَا إذَا ارتحَلتُ إلى الإسكندرية فإنَّنى... قاطعَتْه أمُّه قائلةً: إنَّك لَن تحقِّقَ شيئًا ممَّا تَحلمُ به يا كاليماخوسُ الصغيرُ إذَا ارتحلتَ إلى الإسكندرية.
تَعجَّبَ كاليماخوسُ من قول أمِّه، لكنَّها أوضحَتْ لَه الأمرَ قائلةً: يا ولدى.. إنَّ الزمانَ غيرُ الزمان، والناسُ غيرُ الناس، وكاليماخوسُ الأولُ لَم تكنْ لَه أمٌّ عجوزٌ مثلى يطاوعُه قلبُه علَى تركها وحدَها والارتحالُ بعيدًا عَنها.

كـانَ كاليماخوسُ الصغيرُ غاضبًا وحزينًا، وزادَ حزنُه حينَ أكَّدَ لَه أصدقاؤُه أنَّ والدتَه محقَّـةٌ فـيمَا قالتْه؛ فالزمانُ غيرُ الزمان، والناسُ غيرُ الناس! كانَ فى الإسكندرية قديمًا ملـكٌ هُـو بطْلَـيْمُوسُ، وهُو الذى شجَّع كاليماخوسَ الأولَ، والآنَ فى الإسكندرية المقوقسُ الرومانىُّ الذى لا يهتمُّ بالأدبِ والفنون، وإنَّما يهتمُّ بجمعِ الضَّرائب.

وبـرقةُ نابعةٌ للإسكندرية، وحاكمُ برقةَ الرومىُّ تابعٌ لحاكمِ الإسكندرية، ولا فرقَ بينَ هـذَا وذاكَ إلاّ فـى أمـرٍ واحد، وهُو غرقُ حاكمِ برقةَ فى ملذّاته، واهتمامُه بالحفلات والرقصِ والغناء.

كـانَ أهلُ برقةَ يكرهونَ حاكمَهم الرُّومىَّ لسوءِ أخلاقه من ناحية، وقسوته عليهِم من ناحيةٍ أخرَى، وخصوصًا حيَن يبدأ رجالُه فى جمعِ الضرائب من الأهَالى.

أمَّـا كالـيماخوسُ فَقد تحطَّمَ حُلمُه القديمُ فى الهجرةِ إلى الإسكندرية، لكنَّه خرجَ من أحزانه حين رأى تيودورا الجميلةَ، وخطبَها، وصارَ حُلمُه أن يتمَّ زواجُهما.

كانَ كاتُو والدُ تيودورا من أهمِّ الشخصيات فى برقةَ فى ذلكَ الوقت. فقدْ كانَ مقرَّبـًا إلى الأمـيرِ الـرومىِّ؛ لشخصـيته الفـذَّة، وأتاحـتْ لَه مكانتُه التدخلَ لدَى الأميرِ لرفعِ الظلمِ عن حالاتٍ كثيرةٍ من أهَالى برقةَ.

وذاتَ يـومٍ جـاءتْ الأخـبارُ بـأنَّ المسـلميَن قَد دخلُوا مصرَ بقيادة عمرو بن العاص، فعقدَ الأميُر مجلسًا لاستشارة أصحابه، واقتنعَ برأى كاتُو الذى هوَّنَ من شأنِ المسلمينَ وأكَّدَ أنَّهم لنْ يستطيعُوا فتحَ الإسكندرية، ومنْ ثَمَّ لَن يجيئُوا إلى برقةَ.

سـألتْه ابنـتُه تـيودورا وخطيـبُها كاليماخوسُ الصغيرُ عَن ذلكَ، فأبلغَهما أنَّ المسلمينَ سـوفَ يجيـئونَ قريـبًا إلى بـرقةَ، وهُـو قَـد هـوَّن من أمرهم أمامَ الأميرِ حتى لا يحسنَ الاستعدادَ للقائهم.

سَألاَه: لماذَا؟

أجابَ: كَى يدخلَ المسلمونَ برقةَ فيخلِّصُوا أهلَها من ظُلم الرومِ.

تعجَّبا، وسألاَه: وهَلْ المسلمونَ أفضلُ من الرومِ؟

أجـابَ كـاتُو قائلاً: لقَد سألتُ عَن أخلاق المسلمين، وعلمتُ أنهم يُحسنونَ معاملةَ أهالي البلاد التي يفتحونَها، وهي فرصتُنا لكَي نتخلَّصَ ممَّا نلاقيه من الرومِ.

كـانَ الأمـيرُ يسيُر بموكبه حينَ لمحَ تيودوراَ، فأخذَها إلى قصره، لكنَّه بمجرد دخوله إلى القصـر جاءتْـه أخـبـارٌ جعلَـتْه يرتبكُ بشدة؛ لقَد دخلَ المسلمونَ إلى الإسكندرية، ولاَ شـكَّ أنَّهم سيجيئونَ إلى برقةَ، فأمَرَ بأنْ تُحجَزَ تيودوراَ الجميلةُ معَ حَريمه في جَناحِ القصـرِ الخـاصِّ بهـنَّ، وأمـرَ في الوقـت نفسـه باسـتدعاء قـادة جُيوشـه وأعوانـه ومُستشاريه.

عـلمَ كاليماخوسُ أنَّ الأمـيرَ قَـد اصـطحبَ خطيبـتَه تـيودوراَ إلى قصره، فأسرعَ إلى والدها كاتُو الذي لَم يكنْ قَد علمَ بهذَا الأمر، وحينَ كانَ رسولُ الأمير قادمًا من أجلِ استدعائه، كانَ هُو يُسرعُ إلى مقابلة الأمير.

أرادَ كـاتُو أن يـتكلَّمَ فمـنعَهُ الأمـيرُ، إذْ أرادَ أنْ يُخبرَهُم بمَا جاءَ منْ أنْباء، وأنَّ زحْفَ المسـلميَن إلى بَـرْقةَ صـارَ وَشـيكًا، لذلـكَ يجبُ الاستعدادُ بجُيوش الرُّوم الموجودة في بَـرقةَ، والجُـيوشُ تحتاجُ إلى نَفقات، لذلكَ قرَّرَ الأميرُ مُضاعفَةَ الضَّرائب علَى الأهَالي وجَمْعَهـا منهُم خلالَ أيامٍ، وكَلَّفَ كاتُو بإبلاغِ هَذا إلى أهلِ برقةَ كَيْ يتعاونُوا في جَمعِ الضرائب.

أرادَ كـاتُو الكـلامَ فمـنَعَه الأميرُ، وطلبَ منهُ أنْ يقومَ فَوْرًا لأداء دَوْره؛ فهوَ إنَّمَا قَرَّبَه إلَـيْه وأعطَـاه مكانـةً كُـبْرَى فـي برقةَ كَي يكونَ في خدمته حيَن تقعُ ظُروفٌ مثلُ هذه

الظـروف . لكـنَّ كـاتُو توقَّفَ عن الكلام ؛ فإنَّ ابنته تيُودُورا محتَجَزةٌ فى قصر الأمير .
وكانـتْ فُرصـةً طيـبةً للأمير ؛ إذْ أبلغَ كاتُو أنَّ ابنته رهينةٌ فى القصرِ حتَّى يؤدِّىَ مهمَّتَهُ على أكْمَلِ وَجه .

حينذاكَ خرجَ كاتُو من مَجلسِ الأمير يائسًا .

تقدَّمَتْ جُيوشُ المسلمينَ بقيادة عَمرو بن العاص فى اتِّجاه برقةَ سنةَ ٢٢ للهجرة . ولَمْ يكـتَف الأميرُ بفَرضِ الضرائبِ على أهلِ برقةَ ، وإنَّمَا ألزمَهُم استضافةَ جُنود الرومان فـى مَنازلهمْ والسَّهَرَ علَى راحتهم ؛ لأنَّهُم يَحْمُونَ المدينةَ ، أمَّا جَيشُ الأميرِ الذى كانَ يُعَسْكرُ خـارجَ بـرقةَ فكـانَ علَى الأهَالى أنْ يُمدُّوُه بالغذاءِ ومَنْ يَتَأخَّرْ عَن ذلكَ تحمَّلَ أقسَى ألوان العذاب .

حـاولَ كـاتُو أنْ ينالَ تَصريحًا من الأمير بإطلاق ابنته تيودُورا ، لكنَّ الأميرَ كانَ قَد فقَدَ أعصـابَهُ حـينَ علـمَ بـاقترابِ جيوشِ المسلمينَ ، وجُنَّ جُنُونُهُ حينَ أخبرُوهُ أنَّ القبائلَ التى خارجِ برقةَ قَد استقبلَت المسلمِين بالهتاف والفرحة لمَجيئِهمْ .

قـالَ زُعَمـاءُ القـبائلِ لعَمرو بن العاص إنَّهُم سَمعُوا عَن حُسنِ سِيرتِهم فى البلادِ التى فتحُوهَا ، وإنَّهُم يتَمَنَّوْنَ أنْ يخلِّصُوهُم من ظُلْمِ الرُّومِ .

كانَ المسلمونَ يَجْتَازونَ أراضىَ برقةَ ، مقتربينَ من أنطابلسَ العاصمة ، واجتمعَ الأميرُ بمُستشاريه ، وقالَ لهُم إنَّ جيشَ المسلمينَ كَبيرٌ وحاميةَ أنطابلسَ صَغيرةٌ .

سألُوهُ : هَلْ نسلِّمُ ؟

فأجابَ : لاَ . . إنَّمَا ننسحبُ إلى طرابلسَ .

توسَّـلَ كـاتُو للأمـير أنْ يـترُكَ ابنـتَه تـيودُورَا فـى بـرقةَ ، لكـنَّ الأمـيرَ رفَـضَ ، وقرَّرَ اصطحابَهَا إلى طرابُلسَ ، فاضْطُرَّ كاتُو للذّهابِ معَهُ .

دخلَ المسلمونَ برقةَ دُونَ قتال، وفَرِحَ بهم أهلُهَا، وقَبِلُوا فى البداية دَفْعَ الجزْيَة، لكنَّهُم سُرْعَانَ مَا دخلُوا فى الإسلام حينَ وجدُوا أنَّه لا يفرِّقُ بينَ المسلمينَ، وبمَجَرَّد أنْ ينطقَ الإنسانُ بالشهادتَين، فيقولَ: أشهدُ ألاَّ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، يَصيرُ لَهُ مَا للمسلم من حُقوق، ويَصيرَ علَيه مَا علَى المُسلم من واجبات، أمَّا حقوقُه فتتمثَّلُ فى تَحقيق الأمْن والأمان لَه، والأخذ بيَده إلى حياة كريمة، وأمَّا واجباتُه فتتمثَّلُ فى طاعة الله عزَّ وجلَّ.

وسعَى أهلُ برقةَ إلى مَعرفَة أصُول الدِّين الحَنيف، ومَعرفة تَعاليمه، وجلَسَ إلَيْهم الفُقَهَاءُ يعلِّمُونَهم، ويُساعدونَهم كَى يعرفُوا كيفيةَ أداء العبادات المختلفَة من صَلاة وصيامٍ وزكاة، ويُساعدونَهُم كَى يَحفظُوا مَا تَيَسَّرَ لَهُم من القُرْآن الكَريم، فانتشَرَ الإسلامُ بينَ الأهَالى انتشاراً كَبيرًا، وصارَ للأذان صَوْتٌ يرتفعُ فى سماء برقةَ، تلكَ المنطقةُ التى شَهدَتْ شمسَ الإسلام وهىَ تُشْرقُ فى البلاد.

١٠- طرابلس

تَقَعُ طَرابُلسُ فى النِّصف الشَّمالىِّ الغَرْبىِّ من الأراضى اللِّيبيَّة، وتَفصلُ سرْتُ بينَ طَرابُلسَ وبرقةَ، وأصلُ تَسميةُ طرابُلسَ باللُّغة اليونانيَّة (ترى بوليس) أىْ المُدنَ الثلاثَ.

انسحبَ الأميرُ الرومىُّ من برقةَ إلى طرابلسَ حينَ دخلَتْ جيوشُ المسلمينَ برقةَ. وأنَّ تحصَّنَ الأميرُ فى طَرابلسَ حَتَّى لا يَقدرَ المسلمونَ علَى الوُصول إلَيه، وكانَ معَه جنودُه، ومعَه قليلٌ من أهلِ برقةَ. . ومَعَه تيُودُورا بنت كاتُو، خطيبةُ كاليماخوسَ الصغيرِ.

سـارَ كالـيماخوسُ مـن بـرقةَ مُـتَّجهًا إلى طرابلسَ خلفَ خطيبته، كانَ يشعرُ بالخوف الشـديد علَيها. وعلمَ عمرُو بنُ العاص أنَّ جنودَ الروم تجمَّعَتْ فى طرابلسَ، وخَشىَ أنْ يجيئَهُم مَدَدٌ من بلاد الروم فيهجمُونَ عَلَيه فى برقةَ، لذلكَ قرَّرَ أنْ يسيرَ لُهم بجيوشه كَى يفتحَ طرابلسَ.

وأدركَ كالـيماخوسُ جـيشَ المسـلمينَ وهُـو يسـيرُ فى صحراء سرتَ، فسارَ مَعَهم، وخـلالَ الطـريق رآهُـم وهُـم يصلُّونَ خاشعينَ لله عزَّ وجلَّ، ورآهُم يتعاوَنُونَ فى كلِّ شَىء، ويُساعدُ بعضُهم بَعضًا.

سـألَهُم عَن الإسلام فأخذُوا يُحدِّثونَه عَن ذلكَ الدين الحنيف الذى ألَّفَ بيَن قلوبهم، وأصـلَحَ أحوالَهُم، وجعلَهم - بفضل الله - إخْوَانًا. وتبينَ كاليماخوسُ الصغيرُ أنَّ فى الإسـلام صلاحُ الدنيَا والآخرة، ومَا كادُوا يقتربونَ من طرابلسَ إلا كانَ كاليماخوسُ قَدْ اعتنقَ الإسلامَ.

أمَّـا فـى طـرابلسَ فكـانَ الأمـيرُ الـرومىُّ قَـد أمـرَ بإغلاق أبوابها، وأصدرَ أوامرَه إلى حاميَتَها العسكريَّة أنْ تكونَ علَى استعداد للدفاع عَن المدينة إنْ وصلَ المسلمونَ إلَيها.

وقَـدْ وصـفَ مُحمـدُ بـنُ عـبد المُنعم طـرابلسَ فـى كـتاب الـروض المعطار فى خَبَر الأقْطـار.. فقـالَ: "طـرابلسُ من مُدُن إفريقية، وهىَ مَدينةٌ كبيرةٌ أزليَّةٌ علَى ساحل البَحر، تُحيطُ بهَا أسوارٌ من البَرِّ وفى داخل البَحر قَليلاً، حتَّى أنَّ مياهَ البحر تضربُ فـى أطراف السُّور، وهُوَ منْ حَجَر جَليل من بناء الأُوَل، وبها أسواقٌ حافلةٌ، وأهلُها تجارٌ يُسافرونَ بَرًا وبحرًا، وهُم أحسنُ الناس فى مُعاملتهم".

تعجَّـبَ كالـيماخوسُ ممَّـا رآهُ أثـناءَ الطـريق، لقَـد أمرَ عمرُو بنُ العاص جنودَه بعدَم المَسـاس بالكـنائس والأدْيـرَة، وعدم التعرُّض مُطْلَقًا للرُّهْبَان الذينَ اتَّخذُوا لأنفُسهم أمـاكنَ يتعـبَّدونَ فـيها ومـرَّتْ بهمْ جيوشُه، وفى الوقت نفسه أمَرَ بتحطيم أىِّ صنمٍ يصادفُهُم أثناءَ الطريق.

تعجَّبَ كاليماخوسُ، وسألَ أحدَ جنود المسلمينَ، وكانَ اسمَه جعفرٌ: كيفَ خرجَ عمرُو بنُ العاصِ بجيوشه لنشرِ دينِ الإسلامِ، ثمَّ يتركُ للناسِ الحُرِّيَّةَ فى عباداتِهم وأديانهم؟!

أجابَ جعفرٌ قائلاً: الجانبُ الدينىُّ فى زحْفنا هذَا يتمثَّلُ فى نقطتَين، الأولَى تتحدَّدُ فى القضاءِ علَى عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ، والنقطةِ الثانيةِ تتحددُ فى الدَّعوة إلى الإسلام.

زادَ عجبُ كاليماخوسَ وتساءلَ: تَدعونَ إلى الإسلام؟! مُجَرَّدَ دَعْوة؟

قالَ جعفرٌ: أجَلْ يا أخى، نحنُ ندعُو الناسَ إلى الإسلام، فمَن هَداهُ اللهُ - عزَّ وجلَّ - فقَدْ فازَ.. ندعُو دونَ قهرٍ أو اضطرار، وهذَا هوُ التعامُلُ الإنسانىُّ الذى يُحافظُ علَى كرامة الإنسانِ، ويحترمُ رأيَه فى اختيار دينه.

حينذاكَ قالَ كاليماخوسُ: أرَى أنَّ الدعوةَ إلى الإسلامِ بهذه الطريقةِ سوفَ تجعلُ كثيراً من أهلِ بلادنا يدخلونَ فى هَذَا الدينِ القَويم.

اختلفَ الطريقُ؛ فلَم يتَّجهْ عمرُو بنُ العاصِ إلى طرابُلسَ مباشرةً، إنَّمَا مضَى إلى مدينة زُويلةَ فى إقْليمِ فزَّانَ ففتحَها سنةَ ٢٢ للهجرة.

كانَتْ ليبيَا تتكوَّنُ من ثلاث ولايات، هيَ: برقةُ وعاصمتُها أنطابلسُ، التى قامتْ على أنقاضِها مدينةُ بَنغَازى الحَاليَّةُ، والولايةُ الثانيةُ هى فزَّانُ، والثالثةُ هى طرابلسُ.

وصلَ جيشُ المسلمينَ إلى أسْوار طرابلسَ، فوجدَها مدينةً حَصينةً جداً، وضربُوا حصارَهم علَيها.

وذَاتَ ليلة نظرَ جعفرٌ إلى كاليماخوسَ، فوجدَه غارقًا فى تفكيرٍ عميق، سألَه عمَّا به، فقالَ كاليماخوسُ: لقَد صادفَنى سوءُ الحَظِّ طويلاً يا أخى.. كنتُ أحلُمُ أنْ أكونَ

شاعراً مشهُوراً مثلَ كاليماخوسَ الأوَّلَ أميرَ شعراء الإسكندرية، فلمَّا استوَى عُودى وملكْتُ ناصيةَ الشِّعر وقرَّرْتُ الرَّحيلَ مثلَه إلى الإسكندرية منعتْنى أمِّى، ولَمْ أستطعْ مخالفَتَها. وحينَ خطبْتُ تيودُورَا الجميلةَ رآهَا الأميرُ أخذَهَا إلى قَصره، فلمَّا جاءَتْ جيوشُكم قلتُ أشكُو لأميركم كَى يعيدَ لى خطيبَتى.. لكنَّ أميرَنا كانَ قد ارتحلَ بها إلى طَرابُلسَ، قُلتُ لا بَأسَ؛ سوفَ نفتحُ طرابلسَ سَريعًا وأستعيدُ تيودُورا الجميلةَ مَرَّةً أخرَى، ولكنْ هَانحنُ نحاصرُهَا وهىَ مَنيعةٌ، وكُلُّ يوم يَمُرُّ يجعلُ أحزانى تَزيدُ وأمَلى يَضْعُفُ.

قالَ جعفرٌ: اعلَمْ أنَّه لا يَلتقى شخصان ولا يفترقان إلاَّ بأمرِ الله - عزَّ وجلَّ - واعلمْ أنَّه لَوْ كانَ قَد كُتبَ لكُما اللقاءُ فلاَ بُدَّ أنْ تلتقيَا فى يومٍ مَا.

طالَ حصارُ المسلمينَ لطرابلسَ عدَّةَ شهورٍ حتَّى بدأَ المَلَلُ يتسرَّبُ إلى بعضِ الجنود، ممَّا جعلَ لسبعةٍ منهُم يذهبونَ لصَيْد السمك منْ شاطئ البحر بجوارِ أسوارِ المدينة الغَربيَّة، وحينذاكَ وجدُوا أنَّه لا يُوجَدُ سورٌ يَفصلُ المدينةَ عَن البحرِ، وشاهَدُوا السُّفُنَ تقفُ فى مواجهة البيوت، لكنَّ الذى أذهلَهُمْ أنَّهُم رأوْا البحرَ قد غاضَ من ناحيةِ الغربِ، وتُوجَدُ مسافةٌ بينَه وبينَ طرابلسَ تسمحُ بأنْ تتدفَّقَ جيوشُ المسلمينَ من خلالِها وتفتحَ المدينةَ.

وانطلقَتْ جيوشُ المسلمينَ، ففُوجئَ الرومُ بهم قَد دخلُوا طرابلسَ، ودارَ قتالٌ انتهَى بانتصارِ جند الله، وأسرعَ كثيرٌ من جنود الروم إلى السفنِ الراسية، فهربُوا بها إلى البحرِ. ولَمْ يَطُلِ القتالُ، واستقرَّتِ الأوضاعُ، بعدَ أنْ سقطَ كثيرٌ من قتلَى الرومِ، منهُم الأميرُ الظالُم.

كانَ عمرُو بنُ العاصِ حريصًا علَى مُعامَلة أهلِ البلاد المفتوحة من أهلِ الكتاب أحسنَ معاملةٍ، فخيَّرَهُم بينَ الإسلامِ والبقاءِ علَى دينِهم، فمَن أسلَم منهُم صارَ لَه مَا

للمسلمينَ من حقوق، وعليه ما عليهم من واجبات، ومَن بَقىَ على دينه فُرضَتْ عليه جزْيَةٌ صَغيرةٌ مقْدَارُهَا ديناران فى العام، يُعْفَى منهَا الشُّيُوخُ والنساءُ والأطفالُ، كمَا تركَ الأرضَ لأهالى البلاد فلَمْ يصادرْ منهَا شيئًا، وأخذَ على عاتقه حمايتَهُم، وأمَّنَهُم علَى أنفسهم ونسائهم وأولادهمْ وأموالهم، وزادَ الأمرُ علَى ذلكَ، فقَد أمرَ رجالَهُ بالمُرور علَى ديار الفُقَراء واليَتامَى؛ لكَىْ يَمْنَحُوهُم الطعامَ والزَّادَ.

وأصابَ الذهولُ أهلَ طرابلسَ حينَ رأوْا ذلكَ؛ فالغُزَاةُ يأخُذُونَ ولا يُعْطُونَ، بينَمَا جاءَ المسلمونَ كَى يُعْطُوا.

أدركَ أهلُ طرابلسَ أنَّ المُسلمينَ ليسُوا غُزاةً، وإذَا كانُوا قَد دخلُوا بلادَهم بحَدِّ السَّيف فإنَّ الحربَ لَمْ تكُنْ إلاَّ لكَى يَشُقُّوا قشْرَةَ الظُّلْم بالسيف كَى يُخرجُوا البلادَ من الظُّلُمَات إلى النُّور.

ذاتَ يَوم فى أحَد دُرُوب طَرابلسَ التَقَى كاليماخوسُ وتيُودورا. لَمْ يصدِّقَا أعينَهُما، وكادَا يَطيران من شدَّة الفَرْحَة، وأسْلَمَتْ تيُودُورا، وذهبَتْ مَعَ كاليماخوسَ إلى القاضى حيثُ عقدَ قِرَانَهُما.

وأطَلَّ عَهْدٌ جَديدٌ على طَرابلسَ، رَأى أهلُها بأعيُنهم سلوكَ المُسلمينَ، فأيقَنُوا أنَّ مَا جاءُوا به هُو دينُ الحَقِّ؛ لأنَّهُ يحقِّقُ الخيرَ والعدالةَ، ويُحافظُ علَى كرامة الإنسان، فبَدأوا يدخلونَ فى الإسلام مُختارينَ، وشَهدُوا شمسَ الإسلام تُشرقُ فى البلاد.

تَعَـدَّدَت الأسـبابُ الـتى أدَّتْ إلى انتشار الإسلام ومن تلكَ الأسباب مَا يُثِيرُ العَجَبَ، ويَجعـلُ الإنسـانَ يـتوقَّفُ طَويلاً مُفَكِّرًا فيما حدثَ، فأدَّى إلى أنْ يُسارِعَ بالدُّخول فى الإسلام حتَّى هَؤُلاء الذينَ كانُوا يَرفُضُونَه دُونَ أنْ يَعرفُوهُ.

كانَـتْ (شَـاتينَا) الإفريقـيَّةُ تَرفُضُ الدُّخولَ فى الإسلام، بَلْ لاَ تُحبُّ سَمَاعَ أىِّ شَىء يَخُصُّ المسلمينَ؛ لأنَّهُم حَطَّمُوا الأصنَامَ التى كانَ يعبُدُها أهلُهَا.

مـن ناحـية أخرَى كانَ زَوجُها (سَابُو) مُعجبًا بكُلِّ مَا وصلَ إلى مَسَامِعِ عَنِ المُسلمينَ، أَعجَـبَه عَدْلُهُـمْ ورَحمـتُهم وشـجاعتُهم وصِـدقُهم، لكنَّهُ أيضًا لَمْ يُعْجِبْهُ أنَّهُم حطَّمُوا أصنامَهُم.

كـانَ المسـلمونَ قَـدْ أوقَفُـوا زَحفَهَـم عـندَ طَـرابُلسَ، ولكنْ بينَ حين وآخرَ كانَ أحدُ جيوشـهم يـتعمَّقُ فى غرب إفريقيَّةَ، ومنهُمْ مُعاويةُ بنُ حُدَيْجٍ الَّذى غَزَا إفريقيةَ ثلاثَ مَرَّات، وفى كُلِّ مَرَّة كانَ يحطِّمُ مَا يَجدُهُ من أصنامٍ.

وكانَـت القـبائلُ الموجودةُ فى الشَّمال الغَربىُّ من إفريقـيَّةَ تُسَمَّى قَبائلَ البَرْبَر. وسمعَ أهلُهـا باقتراب جَيْش المسلمينَ، فأسْرَعَتْ شَاتينَا بإخْفَاء الصَّنَم الصَّغير الَّذى جَعَلَتْ أحدَ الصُّنَّاع يَصْنَعُهُ لَها بَدلاً من الصَّنَم الكَبِير الَّذى حَطَّمَهُ المُسلمونَ مِنْ قَبْلُ.

كـانَ الـنَّاسُ يتـنَاقَلُونَ الأخبارَ، وقيلَ إنَّ القائدَ السابقَ لَمْ يَأت مَعَ الجَيْش هَذه المَرَّةَ، فـالَّذى يَقُـودُ جُـيُوشَ المسـلمينَ رجلٌ اسمُهُ عُقْبَةُ بنُ نَافعٍ الفهْرِىِّ. وتَمَنَّتْ شاتينَا أنْ يكـونَ عُقْـبةُ مُتَحَلِّـيًا بـبَعض اللِّـين فى مُعامَلَته للأصْنام والأوثان. ورَاوَدَها حُلْمٌ بأنْ يَسْـمَحَ لَهُمُ القَائدُ الجَديدُ بإعَادة بناء أصنامهم الكبيرة، والإذن لَهُم بمُمارسة عباداتهم مـرةً أخـرَى، لكـنَّ حُلْمَهـا تطايَرَ مَعَ الرِّياح حينَ جاءَ زَوجُهَا سابُو يُخْبِرُهَا بمَا يتناقَلُه

الـناسُ عَـن عُقـبةَ بـنِ نـافعٍ ؛ فَهـوَ أشَـدُّ قَسوةً ممَّنْ سَبَقَهُ فى التَّعامُلِ مَعَ مَن يَعبدُونَ الأصنَامَ.

كانَ فتْيانُ القَرْيَةِ يَتَنَدَّرُونَ بتَصَرُّفَات جنود الروم؛ فَهُمْ يتَجَمَّعُونَ فى الشَّمال الإفْريقىِّ لقـتال المسـلمينَ، وحـينَ يسـمعُونَ عـن اقـتراب أحـد الجُـيوش الإسلاميَّة يُسارعونَ بالانسحاب بَعيداً إلى غَرب السَّاحلِ الإفريقىِّ.

كـانَ (سـامرٌ) مـنْ نفـس تلـكَ القَرية التى تَعيشُ فيهَا شاتينَا، لكنَّه كانَ دائمَ السَّفَر، واقـتربَ مِنَ المُسلمينَ حينَ كانَ فى أحد أسْفاره فى طَرابُلسَ، لذلكَ عرَفَ كَثيراً جداً عَنْهُم.

حـاولَ أنْ يُقْـنعَ خالَـتَه شـاتينَا أنْ المُسلمينَ قَوْمٌ صَالحونَ، لكنَّها أبَتْ الاستماعَ إلَيْه، كانَـتْ تَـرَاهُمْ غـيرَ ذلـكَ، وكانَـتْ تتعجَّبُ من مَوقفهم؛ فَهُمْ يَتْرُكُونَ كنائسَ الروم الذيـنَ يُحاربُونَهُم بَيْنَمَا يُحَطِّمُونَ أصنَامَ القبائلِ التى لا تُحاربُهم. وكانَ عُبَّادُ الأصْنامِ عَامَّةً لاَ يَرْغَبُونَ فى دينِ آخرَ غَيرِ دينهم، حتَّى لَو قيلَ إنَّه أفضَلُ منهُ.

كـانَ عقـبةُ يـتقدَّمُ بجـيوش المسـلمينَ مُتَّجهًا إلى تُونُـسَ. وعُقـبةُ هو عُقبةُ بنُ نافعِ بن عَبدالقَيْسِ الأُمَوىُّ الفهْرِىُّ القُرَشىُّ، وهوَ من كِبارِ القادة الفاتحينَ فى الإسلامِ، وهوَ ابنُ خالة عمرو بن العاص.

وَجَّهَهُ عمرٌو سنةَ ٤٢هـ. إلى إفريقيَّةَ فافتتَحَ كَثيراً من تُخُومِ السودان وقُرَاهَا فى طَريقه فذَاعَتْ بطولاتُهُ الحَربيَّةُ، وفى سنة ٥٠ هـ ولاَّهُ علَى إفريقيَّةَ الخَليفةُ الأمَوىُّ مُعاويةُ بنُ أبـى سُـفْيَانَ، وجعَـلَ تَحْـتَ إمْرَته عَشرةُ آلاف فارسٍ، فأوْغَلَ عُقْبَةُ بنُ نافعٍ فى بلاد إفريقـيَّةَ حـتَّى وصَـلَ إلى وادى القَـيْرَوان، يقُـودُ جَيْشاً كَبيراً يتكوَّنُ من العرَبِ، ومنْ قـبائلِ الـبربَرِ الـتى أسـلمَتْ، بالإضـافَة إلى العَشْـرَةِ الآلاف الفارسِ الذينَ أمَدَّهُ بهم الخليفةُ.

شـعرَتْ شَـاتينَا بالـبَهجة حـينَ أنْـبَأوهَا أنَّ القـائدَ المسـلمَ عقـبةَ قـد وصـلَ إلى وادى القَـيروان، وأنَّ الـوادىَ قَـد أعجَـبَه، واختَارَ موضعًا بَعيدًا عَن البحر تَمْلأهُ الأشْجَارُ المُتَشَـابكَةُ، وقَرَّرَ أنْ يُقيمَ فيه مَدينةً للمُسلمينَ. لقَد أسعدَها ذَلك جدًا؛ فهىَ تعلَمُ أنَّ تلـكَ المـنطقَةَ تَمْلأهَـا السِّباعُ والحيَّاتُ والهَوَامُ، وفيهَا كَثيرٌ من الحَشَرات السَّامَّة، ولاَ شَكَّ أنَّ نُزُولَ عُقْبَةَ بن نافع فى ذلكَ المَوْضع فيه هَلاكُه وهَلاكُ مَن مَعَه من الجنود.

قَـال عُقْـبَةُ بـنُ نـافع: سَوْفَ نَبْنى مَدينَةَ القَيْرَوان فى هذَا المكان، فأسرَعَ بعضَ جنود الـبَربر الذيـنَ يضُـمُّهُمْ جيشُـه بإخـباره باسْتحالة ذلكَ، إلاَّ إنْ كانَ يُريدُ القَضاءَ علَى الجَيش كُلِّه فى لَيْلَة واحدَة.

لكـنَّ المَوضـعَ قَـدْ أعجَـبَ عُقْبةَ، وهُـو يَـراهُ أنسـبَ المواضـع لبـنَاء مَديـنة يَسكنُها المسـلمونَ؛ فَهـى بَعـيدةٌ عَـن الـبحرِ حتَّى لا تُهَاجمهَا سُفُنُ الرُّوم، ويَتَوَافَرَ فيهَا الماءُ والمرَاعى.

تمَـنَّى أهلُ الأصْنام أنْ يصمِّمَ عقبةُ علَى رأيه ويَأمُرَ جنودَه بالنُّزول فى ذلكَ المكان حَتَّى يتخلَّصُوا منهُ وممَّنْ مَعَه.

وهُنَا ظَهَرَتْ عَظَمَةُ الإسلام، وتَجَلَّتْ فى أهميَّة الدُّعاء وقيمته؛ فَإنَّ مَنْ يَدْعُ اللهَ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ مُخْلصًا فإنَّ اللهَ يجعلُ لَهُ مَخْرَجًا.

تَجَمَّـعَ أهَالى القُرَى، ووَقَفُوا عَن بُعْد ليُشاهدُوا جيشَ المسلمينَ، وهُو يدخُلُ إلى تلكَ الغَابَة المُتشابكَة، فتَقْضى عَليه الوُحُوشُ والثَّعابينُ والهوَامُ، ولاَ يَخْرُجُ منها.

لَـمْ يَكُونُـوا يَعْلَمُـونَ! لقَـد كـانَ عقـبةُ بنُ نافع مُستجابَ الدعوة، فجمَعَ مَن كانَ فى جيشـه مَن أصحاب رسُول الله ﷺ فكانُوا ثمَانيةَ عَشَرَ صَحَابيًا، ونادَى: أيَّتُهَا الحشَراتُ والسـباعُ، نحنُ أصحابُ رسولِ الله ﷺ، فارْحَلُوا عَنَّا؛ فإنَّا نازلُونَ، فَمنْ وَجَدْنَاهُ بَعدُ قَتَلْنَاهُ.

ووقَـفَ عقبةُ علَى رأسِ الوَادِى، ونادَى بأعلَى صَوتِه قائلاً: يَا أهلَ الوَادِى، ارْتَحِلُوا رَحِمكُمُ اللهُ؛ فإنَّا نازِلونَ.

قـالَ ذلـكَ ثـلاثَ مَـرَّات.. ونظَـرَ الـنَّاسُ فرَأَوْا عَجَبًا.. لَقَدْ خرَجَت السِّبَاعُ تَحْمِلُ أشْـبَالَها، والذِّئَـابُ تحمِـلُ أولادَهـا، وكَذلِـكَ الحـيَّاتُ وسائرُ الهَوام والحشرات من عقَاربَ وغَيرِها، ظَلَّتْ تخرُجُ خلالَ ثلاثة أيامٍ حتَّى خَلَتْ الغابةُ منهَا تَمَامًا، وَحينذاكَ تقدَّمَ عقبةُ فرَكَزَ رُمْحَهُ، وَقَالَ: هَذَا قَيْرَوَانُكُمْ.

أسـرَعَ أهـلُ القُـرَى إلى عُقْـبةَ بن نافعٍ يتسَابَقونَ فى اعتناق الإسلام بسبب ما رَأَوْهُ من خُـروجِ السِّباعِ والهَـوَامِ والحَـيَّاتِ وغيرِهـا منَ الغَابَةِ، وهُوَ أمرٌ لَمْ يَخطرْ لأحَدٍ علَى بال.

وكَانَتْ شَاتينَا وزَوجُها سابُو فى مُقَدِّمَة مَنْ أسلَمُوا من أهلِ القُرَى المُحيطة بالقَيْرَوان، وعادَتْ إلَى دَارِهَا فحَطَّمَت الصَّنَمَ بيَدَيْهَا.

بـنَى عقـبةُ بنُ نافعٍ المسجدَ الجامعَ، وبنَى دارَ الإمارة، وبنَى أصحابُه ديَارَهُم حولَها، وانتشَـرَ الإسـلامُ فـى كُـلِّ مكَـانٍ فـى القَـيروانِ ومَا حَولَها من مناطقَ شَهدَتْ شمسَ الإسلامِ وهيَ تُشرقُ فى البلادِ.

١٢- طنجة

زادَت الأزمَـةُ بـينَ الـنَّجْمِىُّ وخَـال الأمـير يُولْيَانَ. كانَ النَّجمىُّ رئيسَ ديوَان طَنْجَةَ، وكانَ الأميرُ يوليانُ الرومىُّ هُو أميرَ ولاية طنجةَ كُلِّها، وكانَ خالُه ينالُ ثقَتَهُ التَّامَّةَ.

كـانَ الأمـيرُ يُولـيانُ يُقـيمُ فـى مَديـنة سَبْتَةَ، وفيهَا قَصْرُ الحُكْم، وفيهَا كانَ يُقيمُ خالُه أيضًـا. أمَّا النَّجمىُّ فكانَ يُقيمُ فى مدينة طنجةَ، وهى قريبةٌ من سبتةَ، تَقَعُ علَى البَحرِ فى بلادِ المَغْرب. وكانتْ تُقيمُ مع النجمىِّ ابنَتُه الجَميلةُ شَمْسُ.

كـانَ الأميرُ يوليانُ لاَ يَهتَمُّ إلاَّ بمُتابَعة أخبارِ العرب الفاتحينَ الذينَ يكتسحُونَ إفْريقيَّةَ بجُيوشـهم، بَيـنَما كـانَ خَالُه لاَ يَهْتَمُّ إلاَّ بجَمع الأموَال من الأهَالى فى صُورة ضرائبَ تَصُبُّ فى خَزَائنِ الأمير يوليانَ وفى خزائنه بالطَّبْع.

أمَّـا الـنجمىُّ فكـانَ مـن أهـلِ البلاد، وكانَ هَمُّهُ الأوَّلُ هُو الحفاظَ علَى أهْلِ المَغرب. لذلـكَ تضاربَتْ المصالحُ بينَ النجمىِّ وبينَ خالِ الأمير، وثارَت الخلافاتُ بينَهُما حتَّى وصلَتْ إلَى دَرَجَة الأزْمَة.

توقَّـعَ الـنجمىُّ أنْ تَـتَفَاقَمَ الأمُـورُ، وخَشىَ علَى ابنته شَمْس، لذلكَ قرَّرَ إبعادَها عَن داره، فبَعَثَ بها إلى دار خالتها؛ كَى تُقيمَ معَهَا؛ إلَى أنْ تَسْتَقرَّ الأحوالُ بينَه وبينَ خال الأمير يوليانَ.

كـانَ الأمـيرُ يولـيانُ ـ حـاكمُ ولايـة طـنجةَ ـ مَشـغولاً باقتراب المُسلمينَ من الولاية، وحـاولَ أنْ يعـرفَ عَـنْهُمْ كُـلَّ شيء، وسأَلَ أوَّلَ مَا سَأَلَ عَن قائد جيوش المسلمينَ. أخـبَرُوهُ أنَّ القـائدَ هُـوَ الأميرُ مُوسَى بنُ نُصَيْر اللَّخْمىُّ، وأنَّهُ يَحْظَى بمكانة رَفيعة، لاَ بصـفَته أمـيرَ إفريقـيةَ، ولاَ بصـفته فاتحًا عربيًا فحَسْب، بَلْ بوَصْفه أيضًا وَاحداً من الأتْقـياءِ المَشـهُورينَ، أصحابِ المَكانة الدِّينيَّة، وأحَدَ رُوَاة الحَديث النَّبَوىِّ الشَّريف؛

فهُو منَ التَّابعينَ ـ رضىَ اللهُ عَنهُم الذينَ أدركُوا صَحَابَةَ رسول الله ﷺ ـ رَوَى الَحديثَ النـبوىَّ الشـريفَ عَـن تَميم الدَارىِّ رَضىَ اللهُ عَنهُ ، وكانَ مُوسَى بنُ نُصَيرٍ عَاقلاً كَرِيمًا شُجاعًا ورَعًا تَقيًا لله تَعَالَى .

وُلدَ موسَى بنُ نُصير ببلاد الحجاز سنةَ ١٩هـ ، فى خلافة عمرَ بن الخطَّاب ـ رَضىَ اللهُ عَـنْهُ ـ وعاصَـرَ أحداثًـا عَنـيفةً ، درسَ علومَ الدِّين وتعمَّقَ فيها ، وكانَ فَصيحًا بَليغًا ، شـارَكَ فـى عـدَّة مَعَارِكَ ، وشارَكَ فى بعض المَهَامِّ السِّيَاسيَّة ، فأثبتَ جَدارتَهُ فى القتال وفى السِّياسة ، بَعدَهَا اصطَحَبَه عبدُ العَزيز بنُ مَرْوَانَ إلَى مصرَ حينَ كانَ أميرًا علَيها ، ثـمَّ بـدأتْ فُـتوحاتُ موسَى بنُ نُصيرٍ فى إفريقيةَ ، رافعًا رَايَةَ الجهاد فى سَبيلِ الله من أجْلِ نَشْرِ دين الله .

سـألَ الأمـيرُ يُولـيانُ عَن عَدَد المعارك التى انتصرَ فيهَا موسَى بنُ نصيرٍ ، وعدد المعارك التى انهزمَ فيهَا . فأخبَرُوهُ أنَّه انتصرَ فى كُلِّ معاركه التى خاضَها .

تعَجَّبَ وسألَهُم : أَلَمْ يُهْزَمْ قطُّ؟

أجَابُوهُ قَائلينَ : لاَ . لَمْ يُهْزَمْ قَطُّ .

لَـمْ يكُـنْ يولـيانُ يعلَمُ أنَّ موسَى بنُ نصير سوفَ يُكتَبُ لَه أنْ يَقُود الجيوشَ الإسلاميةَ أربعينَ عامًا ، ينتقلُ خلالَها من نَصر إلى نَصرٍ ، حتَّى انفردَ دُونَ أقْرَانه الفاتحينَ جَميعًا بلَقَب القائد الذى لَمْ يُهزَمْ لَهُ جَيْشٌ قَطُّ .

تناقَلَ الناسُ أخبارَ اقتراب جيشِ المسلمين ، وتناقَلُوا مَا عُرِفَ عَنِ القائد الأمير موسَى بـن نُصَير ، حتَّى وصلَ ذلكَ إلَى النجمىِّ رئيس ديوان طنجةَ ، الذَى تَمَنَّى فى نفسه أنْ يـنجَحَ المسـلمونَ فـى فـتح ولايـة طـنجةَ حـتَّى يـتخلَّصَ أهلُها من ظُلمِ الرومِ ، وفى مقدّمتهم الأميرُ يوليانُ وخالُه الظالمُ .

لَمْ يستطعْ النجميُّ أن يستغرقَ طَويلاً في أحلامه، فقَدْ وصلَ جنودُ الرومان، فقبضُوا علَيْه بأمْر خال الأمير يوليانَ، وبحثُوا عن ابنته فلَم يجدُوهَا. ولأنَّ الأوامرَ الصادرةَ إلَيهم تقضى بإحضَار النجميِّ وابنته إلىَ سبتةَ فقَد ظَلَّ الجنودُ يبحثونَ عَن شمسَ بنت النجميِّ في جوانب طنجةَ حتَّى يجدُوهَا.

علمَ الأميرُ يوليانُ أنَّه لَن يقدرَ علَى صَدِّ الزَّحف الإسلاميِّ بجنوده من الروم، لذلكَ فكَّرَ في خُطَّة تُعينُه علَى إيقاف زَحْفهمْ، بَلْه هَزيمَتهم، فقرَّرَ أنْ يبعثَ رجالَه إلى قبائل البربر منْ سُكَّان المَغرب العربيِّ يَستثيرُهُم ضدَّ المسلمينَ، وبذلكَ تتجمَّعُ هذه القبائلُ، فتستطيعُ إيقافَ الزَّحف الإسلاميِّ.

لكنَّ الأميرَ يوليانَ اكتشفَ سَريعًا أنَّ موسَى بنَ نصير، قَد أفسدَ خُطَّتَهُ، فإنَّ قائدَ مقدِّمة الجيوش رجلٌ من البربر، وتحتَ قيادته ألوفٌ من المقاتلينَ الأشدَّاء من أبناء قبائل البربر الذينَ دخلُوا في الإسلام.

سألَ عَن ذلكَ القائد.

فأخبَرُوهُ أنَّ اسمَه طَارقُ بنُ زياد.

طلبَ مَعلومات أكثرَ عَنه.

فأخبَرُوهُ أنَّه وُلدَ سنةَ ٥٠هـ/ ٦٧٠م. وأنَّه أسلمَ علَى يَد موسَى بن نصير، وصارَ من القادَة المُقَرَّبينَ إلَيه، بَلْ هُو أشهَرُ رجاله.

وقَعَ الأميرُ يوليانُ في حَيرة بالغَة، ثمَّ زادَتْ حَيْرَتُهُ حينَ جاءَتْهُ الأخبارُ الجديدةُ، لقَدْ اجتازَ موسَى بنُ نُصَير الطريقَ إلى طنجةَ لفتحها، ولَم يقتَربْ من سَبتةَ، بالرَّغم من علمه أنَّ بهَا دارَ الإمارة.

ثمَّ زادَتْ حَيْرَتُهُ أكثرَ حينَ علمَ أنَّ الأميرَ موسَى بنَ نصير قَد وَجَّهَ جُيُوشَه في شتَّى الجهات في وَقْت واحد، فبعثَ بقائده زُرعَةَ علَى رأس جيش إلى القبائل المُقيمة في

جبال أطْلَسَ العُلْيَا، وكانَتْ جُيوشُ المسلمينَ لاَ تَبْدَأ بالحرب أَبَدًا، بَل تَبْدَأ بالدَّعْوَة إلَى الإسلام، فإنْ لمْ يكنْ فَالجزْيَةُ فإذَا رفضَتْ فالقتالُ. وحينَ ذهبَ زرعةُ إلَى قبائلِ جبالِ أطلسَ وعرَضَ عليهم الدُّخولَ فِى دين الإسلامِ استجابُوا جميعُهم، وفى الوقت نفسه بعثَ موسَى بنُ نصير بولَده مَروانَ علَى رأسِ جيش كبير إلى السُّوس الأقْصَى، أىْ الجَنُوب الغَربىّ للبلاد. وصارَتْ للمسلمينَ مَنطقةُ السُّوسِ الأدنَى أيضًا، وهىَ المنطقةُ المنخفضةُ فى الشَّمالِ خَلفَ طَنجةَ.

واكتشفَ يوليانُ مَا فعلَه موسَى بنُ نُصير، لقَد صارَتْ جيوشُ المسلمينَ تحاصرُ الولايةَ كلَّها، ولَمْ يكُنْ أمامَ يوليانَ غَيرُ الانتظار، يترقَّبُ مَا سوفَ يُسْفرُ عنه حصارُ العرَب لمدينةَ طَنجةَ.

وطنجةُ مدينةٌ قديمةٌ، تقعُ علَى ساحلِ البحرِ المتوسِّط فى مُواجَهة الأندلُس، وهىَ علَى ظَهر جبلٍ، بها آثارٌ كثيرةٌ، وكانتْ مَبْنيَّةً بالحجارة البيضاء، ولَها سُورٌ مَنيعٌ.

بحثَ الجنودُ عَن شمسَ بنت النجمىِّ رئيس ديوان طنجةَ حتَّى وجدُوهَا، لكنَّهُم لَم يستطيعُوا الخروجَ بهَا هى ووالدها؛ إذْ كانتْ جيوشُ المسلمينَ قَد حاصَرَتْ طنجةَ.

كانَ أهالى طنجةَ يُعانُونَ من أمْرَيْن أفسَدَا حيَاتَهم وكَدَّرَا مَعيشَتَهُم، أمَّا الأمرُ الأولُ فهوَ ظُلمُ الروم وتَعَنُّتُهُمْ فى جمع الضرائب بأساليبَ فى غاية القَسْوَة. وأمَّا الأمرُ الثانى فهوَ كثرةُ اللُّصوص بصُورة مُفْزعَة؛ فَهُمْ يَسرقونَ المَتاجرَ والمنازلَ، ثمَّ استَفْحَلَ الأمرُ فصارُوا يَخْطفُونَ النِّساءَ.

لَمْ يَطُلْ الحصَارُ، ودخلَ المسلمونَ طنجةَ. فَرِحَ بهمْ أهلُها؛ لأنَّهُم خلَّصُوهُمْ من ظُلْم الروم. لكنَّهُم تَعَجَّبُوا من أمرهم. وجدُوهُم يَدْعُونَ الناسَ إلى الإسلام بالحُسْنَى.

كـانُوا قَـد ظَـنُّوا أنَّهُـم سَـوفَ يَضْـطَرُّونَهُمْ إلى اعْتنَاق دينهم، فَهُم مُنتَصرُونَ أقْويَاءُ، لكنَّهُم وَجدُوهُم يقُولُونَ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

ويَقُولُـونَ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾. ووجـدُوا مَـن يوضِّـحُ لَهُـم فَضْـلَ الإسـلامِ، ويُخْـبرُهُمْ أنَّ فيه صَلاحَ الدُّنيَا والآخرة. حينذَاكَ دخلَ أهلُ طنجةَ فى دينِ الإسلامِ. وكانَ ذلكَ في عام ٨٩هـ.

وجدَ أهلُ طنجةَ فى مُعاملَة العَرب حكمةً وإنْصَافًا وعَدْلاً ومُسَاوَاةً، وامتنَعَ اللُّصوصُ عَـن السَّـرقَة؛ فَقَـدْ وَفَّـرَ المسـلمونَ حـياةً كَريمةً للأهَالى؛ فلَمْ يَعُدْ فيهم مُحْتاجٌ، ومن ناحـية أخـرَى وجـدَ المغاربةُ أنَّ عقابَ السَّارق قَاسٍ، فخَشِىَ كُلُّ لصٍّ أنْ تُقْطَعَ يَدُهُ، لهذَا كَفُّوا عَن السَّرقَة.

وانتشـرَ الفُقَهاءُ والقـُرَّاءُ بينَ الأهَالى كَى يُلَقِّنُوهُم اللُّغةَ العربيةَ، ويُبَصِّرُوهُم بالدِّين، ويُعلِّمُوهُم أصُولَ الإسلامِ.

ولمْ يعـدْ فـى طـنجةَ مظلـومٌ، لهـذَا كـانَ أمـرًا طبيعـيًا أن يُطلَقَ سَراحُ النجمىِّ وابنته شمـسَ، فسـارعَا مـعَ غيرهـم فـى الدخـول فِـى دينِ الإسلامِ الذى حماهُم منْ بَطشِ الظالمينَ.

وعادَ موسَى بنُ نصيرٍ إلى القيروانَ، وتركَ طارقَ بنَ زيادٍ واليًا على طنجةَ، ذلكَ البلدَ الذى شهِدَ شمسَ الإسلامِ وهىَ تُشرقُ فى البلادِ.

لاحَظَ المحيطونَ بالأمير يوليانَ الرُّومىِّ أنَّ أحوالَه قَد تبدَّلتْ كثيرًا. صارَ يُؤْثِرُ أنْ يتمشَّى وحدَه أوقاتًا طويلةً فى بُستان قصرِه فى مدينة سبتةَ.

لقدْ وقعَ فى حيرة شديدة ممَّا يحدُثُ من حوله، كانَ أميرًا علَى ولاية طنجةَ كلِّها، لكنَّ جيوشَ المسلمينَ زحفتْ علَى شَمال إفريقيةَ، وافتتحتْها حتَّى وصلتْ إلى طنجةَ، وصارت البلادُ كلُّها فى يَد المسلمينَ، لكنَّهم لَم يغزُوا سبتةَ. وهُو لا يدرى السببَ الذى من أجله تركُوه، بَلْ لقَد عادَ أميرُهم موسَى بنُ نصير إلى مَقَرِّ حُكمه فى القيروان، وتركَ القائدَ طارقَ بنَ زياد الليثىِّ أميرًا علَى مدينة طنجةَ، وهذَا يعنى أنَّهم لَن يهاجمُوه فى سَبَتةَ.

وكانَ يوليانُ يعلمُ أنَّ طارقَ بنَ زياد إذَا خطَا بجيوشه خُطوةً واحدةً فسوفَ يفتحُ سَبَتةَ وينتصرُ بسهولة. فمَا الذى يمنعُ المسلمينَ من الهُجوم علَيْه إذَنْ؟!

نظرَ يوليانُ إلى ابنته الجميلة فلُورنْدا، كانتْ تتقافَزُ بينَ الأزهار فى البستان. لقدْ كبرتْ وصارتْ فتاةً لطيفةً، تمتازُ بالمرح وخفَّة الظلِّ. فكَّرَ فى مستقبَل هذه الفتاة، سوفَ تفقدُ سعادتَها إنْ هُو فقدَ إمارتَه، وسوفَ تتحطَّمُ إنْ هُو قُتلَ حينَ تشتعلُ الحربُ بينَه وبينَ المسلمينَ.

ماذَا تفعلُ يا يوليانُ؟

كانَ عليه أن يفكِّرَ ويفكِّرَ حتَّى يهتدىَ إلى تصرُّف مناسب يحافظُ به علَى مُلكه، ويوفرُ لابنته دوامَ الأمن والأمان والسعادة. وخطرَ بباله حلٌّ يُنهى به حيرتَه، فأسرعَ إلى مجلسه، وأمرَ الكاتبَ أنْ يعدَّ الأوراقَ والأقلامَ، فهُوَ سوفَ يبعثُ برسالة إلى الأمير طارق بن زياد.

وصلتْ رسالةُ يوليانَ إلى طارق، فتعجَّبَ لَها، وبعثَ إلى الأمير موسَى بن نصير يخبرُه بفَحْواها، ويستشيرُه فيما يجبُ عملُه، فإنَّ الأميرَ يوليانَ يطلبُ من طارق أنْ يكونَ بينَهُما تعاونٌ فى حكمِ البلادِ حتَّى يحافظَا علَى أمنها وسلامتها ورعاية أهلها.

أسرعَ موسَى بنُ نصيرٍ بالردِّ علَى طارق؛ كَى يستجيبَ لما طلبَه الأميرُ يوليانُ من تعاوُنٍ وسَلام وصَداقة قائمة على الاحترامِ المتبادَل، والعملِ من أجلِ الصالحِ العامِ.

حتَّى تلكَ اللحظة من عامِ ٨٩هـ لَم يكنْ طارقٌ يعلمُ مَا يدورُ فى رأسِ موسَى بنُ نصيرٍ، فقَد أمرَ بعدمِ غَزْوِ سبتةَ، صارَ الشمالُ الإفريقىُّ كلُّه فى يد المسلمينَ مَا عَدا تلكَ المدينةَ حيثُ يقيمُ أميرُها وجنودُه من الرومان والأهَالى من البربرِ. وكانَ طارقُ ابنُ زيادٍ قَد سألَ موسَى بنَ نصيرٍ عَن السببِ من قبلُ، فابتسمَ وقالَ لَه: ستعلمُ فيمَا بعدُ.

لَم يكرِّرْ طارقٌ السؤالَ، فقَد كانَ يعلَمُ أنَّ موسَى بنُ نصيرٍ كتومٌ جداً، ولا يبوحُ بخُطَّته الحربية القادمة لأىِّ شخص مَهْمَا كانَ مدَى قربه إلَيه، وربَّما كانَ هذَا الكتمانُ أحدَ العواملِ التى جعلتْ جيوشَ موسَى بنُ نصيرٍ لا تُهزَمُ قَطُّ.

ذهبَ طارقُ بنُ زياد أميرُ طنجةَ إلى يوليانَ الرومىِّ أميرِ سبتةَ، كانَ لقاءً طيِّبًا، كانَ من نتيجته الاتفاقُ بينَ الأميرَين علَى التعاوُن التامِّ، وصارَ بإمكان المسلمينَ أنْ يذهَبُوا إلى سبتةَ، وأنْ يقيمَ بها بعضُهم. واطمأنَّ يوليانُ، واستقرَّتْ أحوالُه، وضمنَ بقاءَه فى إمارته، وكانَ هَذا هُو أهمَّ شىء يَشغَلُه، لذلكَ لَم يهتمَّ كثيرًا حينَ علمَ أنَّ بعضَ أهالى سبتةَ قَد اعتنقُوا الإسلامَ بعدَ تعامُلهم معَ المسلمينَ.

كانت الولاياتُ الأسبانيةُ تتبعُ نظامًا مُعيَّنًا بالنسبة لأسَرِ الأمراء وكبارِ الأثرياء، تخصُّ تربيةَ البنات؛ إذْ كانُوا يُرسلونَ بناتِهم إلى قصرِ الملكِ رُودريجُو فى طُلَيْطلَةَ، فيلتحقْنَ

بمدرسة ملكية، يتأدَّبْنَ فيهَا بآداب الأميرات، وينشأنَ بينَ معلِّمات يعلمنَهُنَّ الأساليبَ الملكيةَ فى السُّلوك والتعامُل والتحدُّث والثَّقافة .

وكانتْ ولايةُ طنجةَ تابعةً لأسبانيَا، وكانَ الأميرُ يوليانُ تابعًا للملك رُودريجُو حتَّى بعدَ أنْ تقلَّصتْ ولايةُ طنجةَ، وصارتْ فى سبتةَ وحدَها .

وكبرت الأميرةُ فلُورنداَ بنتُ يوليانَ، لذلكَ قرَّرَ إرسالَها إلى طُلَيطلَةَ كَى تتعلَّمَ أساليبَ التعامُل الراقية فى المدرسة الملكية .

وصلت الأمورُ فى أسبانيَا فى ذلكَ الوقت إلى غاية السوء، كانَ المجتمعُ هناكَ يتكونُ من ثلاث طبقات، طَبَقة الحكَّام والأثرياء، وطبقة وُسطَى من الأحرار، وطبقة العبيد .

كانَ الأغنياءُ يقتنونَ العبيدَ بالآلاف، ولا يُعاملونَهم إلا بقسوة بالغة، ولا يُعاملونَهم معاملةً آدميةً، كانُوا يعتبرونَهم أشياءَ، لا آدميِّينَ، وقَد يئسَ هؤلاء المساكينُ، ولَم يرَوْا أيةَ بارقة تدلُّ علَى أنَّه يمكنُ إنصافَهم بأىِّ حال من الأحوال، وباتَ الخلاصُ ممَّا هُم فيه حُلمًا صعبَ المَنال، وصارَ العبيدُ فى الأندلُس أكثرَ عَددًا من الأحرار .

أمَّا الطبقةُ الوُسطَى فكانُوا أحْرارًا، لكنَّهُم كانُوا أقربَ إلى العَبيد منهمُ إلى الأحرار، كانَ الأغنياءُ يعتدُونَ علَيهم وعلَى ممتلكاتهم، ولا يجدُ هؤلاء الفقراءُ مَن ينصرُهم أو يعينُهم علَى صدِّ الظلم عَنهم، لذلكَ يَمْقُتُونَ حكَّامَهم من مُلوك القُوط حكَّام أسْبانيَا التى كانتْ تسمَّى شبْهَ الجزيرة الأيْبيريَّة؛ فهؤلاء الحكَّامُ لَم يهتمُّوا بإصلاح البلاد، فلا هُم أنشَأوا قنطرةً ولا عَبَّدُوا طَريقًا ولا وضَعُوا قوانيَن تُخَفِّفُ عَن الناس مظالمَ أصحاب السَّطْوة، وتجعلُهم فى مأمن من الظلم والعُدْوان، وكانَ أوساطُ الناس هؤلاء من الصناع وأصحاب الحرَف والمُزارعينَ الأحرار، كانُوا أحْرارًا حَقًا، لكنَّهم كانُوا فقراءَ محتاجينَ، يعانونَ كَثيرًا فى تدبير أمور معيشتهم، وفوقَ هَذا وذاكَ

يتعرَّضُونَ لبطش الأثرياء والحكام، وتتعرضُ ممتلكاتُهم القليلةُ إلى العُدوان، ولاَ يسمعُ لمَظالمهم وشكوَاهُم أحدٌ، بَلْ علَى العكسَ، كانت الشكوَى تُؤدِّى إلى مزيد من الاضطهاد والقهر. فصارَ هؤلاء يترقَّبونَ فرصةً للخلاص ممَّا هُم فيه من مهانة.

ذهبتْ فلورنـدَا بنتُ يوليانَ إلى طُليطلةَ بأسبانيَا ولَم تنتبهْ إلى ما يُعانيه الناسُ بالطبع، لَـم يلفتْ انتباهَها مَا فى وُجوه البعض من غضبٍ أو من قُنوط، ولَم يلفتْ انتباهَها مَا فـى مَلامـح البعض مـن إرهاقٍ مُميت؛ فقَد كانتْ تطيرُ بها أجنحةُ الأحلام إلى قصر الملك رودريُجو الذى هُو واحدٌ مـن أشهر ملوك الأرض، حيثُ المدرسةُ الملكيةُ والمعلماتُ الرقيقاتُ اللاَّتى يعرفنْ كلَّ شيء عَن حياة الأميرات، وحيثُ زميلاتُها من الفتيات صاحبات الحظِّ والجاه والثراء. لكنَّها لَم تكُنْ تعلمُ مَا ينتظرُهَا من أذًى.

وصـلَتْ فلورنـدَا إلى قصـر رودريجُو، وانخرطَتْ فى المدرسة الملكية، وتعلَّمت الكثيرَ من أساليب التعامُلات، ولكنْ حدثَ أن اعتدَى علَيها الملكُ وهُو سكرانُ.

عـادتْ فلورنـدَا باكيةً إلى أبيها فى سبتةَ، وأخبرتْه بما جرَى، فكانتْ هذه الحادثةُ بدايةَ النهاية لحكم رُودريجُو، بَلْ كانتْ بدايةَ النهاية للظلم والاستعباد فى أسبانيَا.

فكـرَ الأميرُ يوليانُ فى الانتقام من الملك رودريجُو، لقَد استعانَ يوليانُ بما يتحلَّى به من خـبرة السياسـيِّ المُحنَّك، وحكمـة القـائد الخـبير، وثـأر الأب الجـريح، ففكَّـرَ.. وخطَّطَ.. وقرَّرَ الإحاطةَ بحُكْم رودريجُو.

عُـرفَ الملـكُ رودريجُو فى بعض المصادر الغَرْبية باسم رُودريكُو، ورُودريك، وعُرفَ فـى المصـادر العَرَبـية باسـم لُذَريـق، واخـتلفُوا فى أصله، لكنَّه قبلَ أنْ يعتلىَ عرشَ أسبانيَا كانَ أميراً علَى ولاية بيتيكَا التى كانَتْ عاصمتَها قُرْطُبَةُ.

وكـانَ رودريُجـو قـد انـتزَعَ الحكـمَ مـن الملك غيطشه وقتلَه، فتفرَّقَ أبناءُ غيطشَه فى الـبلاد، ومضَـى بعضُـهم إلى السـاحلِ الإفـريقيِّ، ولكـنْ كانَ لُهم أعوانٌ فى أسبانيَا يترقَّبونَ الفرصةَ للانتقام من رودريجُو.

وأفصحَ يوليانُ لطارق بن زياد عَن رغبته فى أن يدخلَ العربُ إلى أسبانيَا ليأخذُوا من خَيراتهـا الكثيرة، وأنَّه سوفَ يساعدُهم فى ذلكَ، وسوفَ يكونُ دليلَهم هُو ورجالُه، فيَهديهم إلى أماكنِ الضعف فى البلادِ وكيفية فتحها.

كـانَ هـدفُ يولـيانَ الانـتقامَ مـن رودريجُـو وتقويـضَ مُلكـه، وفى مقابلِ ذلكَ يأخذُ المسلمونَ ما يشاءُونَ من الغنائمِ.

قـرَّرَ طـارقُ بـنُ زيـاد أنْ يُرسـلَ إلى موسَى بنُ نصيرٍ كَى يأمرَ بما يَراهُ مناسبًا. وتقابَلَ يولـيانُ مـعَ موسَى، وهوَّنَ لَه فتحَ الأندلسِ، وحدثَّه عَن خيراتِها، وعمَّا يُعانيه أهلُها من ظلمٍ واضطهادٍ.

أول الفتوحات

جزيرة طريف

لَـم يسـتطعْ موسَـى بنُ نصيرٍ أنْ يتخذَ قَرارًا خَطيرًا مثلَ غزوِ أسبانيَا من نفسه، لذلكَ أرسـلَ إلى الخلـيفة الولـيد بـنِ عبد الملك بن مروانَ يستشيرُه، فأمرَ الخليفةُ بعدمِ عبورِ الجـيشِ مـن المغـربِ إلى أسـبانيَا إلا بعـدَ إرسـالِ فـرقة صغيرة تختبرُ تلكَ البلادَ وترَى إمكانيةَ فتحها من عدَمه، حتَّى لا يغامرَ بجيشِ المسلمينَ.

أرسـلَ موسَـى بـنُ نصيرٍ واحدًا من أكفَأ قواده هُو أبُو زرعةَ طَريفُ بنُ ملوك، وبعثَ معَـه أربعَمائـة من المُشاة ومائةَ فارسٍ، انتقلُوا إلى الجزيرةِ الخضراءِ بواسطةِ أربعِ سُفُنٍ وفَّرَها لهُم الأميُر يوليانُ.

كـانَ طريفٌ وفرقتُه يمثّلونَ طَليعةَ الفتوحات الإسلامية فى بلادِ الأندلُس، وهىَ عبارةٌ عَـن شـبه جَزيـرةٍ تقـعُ فـى الجَنوبِ الغَربىِّ من أورُبَّا، أقدمُ أسمائها أيبيريَا؛ نسبةً إلى

الأيبيريِّينَ الذينَ كانُوا من أقدم سكَّانها، وحينَ نزلَ الفينيقيُّونَ ببَعض سواحلها وجدُوا أسْرابًا من الأرانب، فأطلَقُوا علَى ذلكَ المكان أسبانيا، أي شاطئ الأرانب. فلَمَّا استولَى الرُّومانُ علَيها فى القَرن الثانى الميلادى أطلَقُوا علَى شبه الجزيرة كلِّها اسمَ أسبانيَا وليسَ الشاطئَ فَقَط. ثمَّ خضعَ جنوبُ شبْه الجزيرة لقبائل الوَندال التى غزتْها فى أوائل القرن الخامس الميلادىِّ، وسمِّىَ الجزءَ الذى استولَى علَيه الوندال باسم وَنْداليسْيَا Vandalisia، نسبةً إلى تلكَ القبائل، وهُوَ الاسمُ الذى اختارَه المسلمونَ لهَذه البلاد عندَما نزلُوهَا، بعدَ أنْ ألحقُوا به نَوعًا من التعريب، فصارَ الأنْدَلُسَ.

وقَدْ قامَ القوطُ بغزو الأندلس فى أوائل القرن السادس الميلادىِّ، فطردُوا الوندالَ إلَى الساحل الإفريقىِّ.

ثمَّ كانَ أولُ دخول للمسلمينَ فى الأندلُس عامَ ٧١٠م، التى توافقُ سنةَ ٩١هـ. عبرُوا المضيقَ بقيادة طريف بن ملوك، فنزلُوا فى جزيرة صغيرة اسمُها بالوماسُ علَى مقربُة منَ الموضع الذى ستُقَامُ فيه بلدةٌ فيمَا بعدُ تحملُ اسمَ طريف، وتُسمَّى جَزيرةَ طَريف. وأسرعتْ قوةٌ من أنصار الأمير يوليانَ، وأنصار أبناء الملك غَيطشَه بمُعاونة العَرب، فقامُوا بعدد من الغارات غَنمُوا فيهَا غنائمَ كثيرةً جدًا وعدَدًا كبيرًا من العبيد.

من ناحية أخرَى علَمَ أهَالى الساحل الجنوبىِّ للأندلس أنَّ هناكَ جُنودًا أشدَّاءَ اسمُهم المسلمونَ، وكانتْ هذه بدايةَ التعرُّف الشعبىِّ علَى الإسلام.

ولَم يكنْ بمَقدور طريف ومَن معَه أنْ يحدِّثوا الناسَ عَن الدين الحنيف؛ فقَد ذهبُوا فى مهمة محددة هى اختبارُ قوة هذه البلاد وقدرتها علَى الصُّمود أمامَ الغارات الحربية.

وكلُّ مَا فعلتْه تلكَ الحملةُ أنَّها رفعتْ رايةَ الإسلام علَى جزيرة طريف، وعادتْ بالغنائم والأخبار الطيبة بقدرة المسلمين ـ بعون الله ـ علَى دخول الأندلس وافتتاحها.

وحينذاكَ أصدرَ موسَى بنُ نصيرٍ أوامرَه إلى طارقِ بنِ زيادٍ كَى يعدَّ الجيشَ ليعبُرَ المَضيقَ إلى بلادِ الأندلسِ .

١٣- جبل طارق

أعدَّ طارقُ بنُ زياد جيشًا يتكونُ من سبعة آلاف مقاتلٍ معظمُهُم من البربر وقَليلٌ منهُم من العربِ . واتفقَ مَع يوليانَ أنْ يكونَ دليلُه فى بلادِ الأندلسِ .

ولَم يكنْ عندَ يوليانَ مَا يَصلُحُ لنقلِ الجنودِ من ساحلِ سبتةَ إلَى ساحلِ الأندلسِ غيرُ أربعِ سفنٍ فقطْ ، ولذلكَ اضطُرَّ طارقٌ إلى نقلِ جيشه علَى دُفْعات .

شعرتْ فلورندَا بنتُ يوليانَ بسعادة غامرة حينَ علمتْ أنَّ المسلمينَ سوفَ يَعبُرونَ المضيقَ إلى الأندلسِ ، فقَد توقَّعتْ أنْ يكونَ عقابُ الملك رودريجُو علَى أيديهم ، وكانَ أعظمُ ما تتمنَّاه أنْ يَزولَ مُلكُه بسببهم ، وتمنَّتْ أيضًا أن يَلقَى مصرعَه فى المعركة حتَّى تكتملَ بهجتُها ؛ فقَد زادتْ كراهيتُها للملك رودريجُو بعدَ أنْ تعاملَتْ معَ المسلمينَ .

شكَّ طارقُ بنُ زياد فى وَلاء يوليانَ ، وطلبَ منهُ رهينةً ، فبعثَ إليه بابنتَيْه - فلورندَا وأختها - وذهبَ للإغارة على جنوبِ الأندلسِ وعادَ ، فأعادَ طارقٌ إلَيه الرَّهينتين .

شهدَتْ فلورندَا فى تلكَ الفترة حُسنَ معاملة المسلمينَ لَها ولأختها ، فازدادَتْ كراهيتُها ومَقْتُها الشديدُ للملك رودريجُو الذى خانَ الأمانةَ ، واعتدَى علَيها وهىَ ضَيفةٌ فى قصره . ومن ناحية أخرَى قدَّرَت المسلمينَ واحترمتْهُم ؛ لأَنَّهُم يَتَّصفُونَ بالأخلاق الكريمة والترفُّق فى مُعاملة النساء ، والحفاظ علَيهنَّ .

ذهبَ يوليانُ ورجالُه معَ طارق بنِ زياد ليكونَ دليلُه فى تلكَ البلادِ التى لا يعرفُها ، وخصوصًا أنَّها مَليئةٌ بالجبالِ والهضابِ .

وقبلَ أنْ يَعبُرَ الفَوجُ الأولُ وقفَ طارقٌ يخطبُ فى جنوده، وأمرَهم باتباعِ أوامره بدقة؛ فهُم سوفَ يعبُرونَ إلى منطقة صخرية على شاطئ الأندلس مواجهةً لمدينة سبتةَ، وعلَى مَن يعبُر منهُم أنْ يظلَّ ساكنًا فى خفْيةٍ عَن أهلِ الشاطئ، حتَّى يتمَّ عبورُ الجيشِ كلِّه فيتجمَّعَ عندَ الجبلِ الموجودِ هناكَ.

وبدأَ عبورُ المسلمينَ المضيقَ علَى دُفْعاتٍ ليعبُرَ طارقُ بنُ زيادٍ معَ آخرِ فوجٍ، فيصلَ إلى سواحلِ الأندلسِ اليومَ الخامسَ منْ رجبٍ عامَ ٩٢هـ. ويجمعَ جنودَه فى تلكَ المنطقة الصخريةِ عندَ الجبلِ، حيثُ سُمِّيَتْ جبلَ طارقٍ، وخطبَ فى جنوده خطبتَه الشهيرةَ قائلاً:

"أيُّهَا الناسُ، أينَ المَفَرُّ؟ البحرُ من ورائكمْ، والعدوُّ أمامكم، وليسَ لكُم - واللهِ - إلا الصِّدقُ والصبرُ، واعلمُوا أنَّكم فى هذه الجزيرةِ أضْيَعُ من الأيتامِ فى مَأدُبة اللِّئَام، وقَد استقبلكُم عدوُّكم بجيوشه وأسلحته، وأقواتُه مَوفُورةٌ، وأنتُم لا وزرَ لكم إلا سُيوفُكم، ولا أقواتَ لكُم إلاَّ مَا تَستخلصُونَه من أيدى عدوِّكُم، وإنْ امتدَّتْ بكُم الأيامُ علَى افتقاركم ولَم تُنجزُوا لكُم أمْرًا ذهبتْ ريحُكم، وتعوَّضَت القلوبُ - عَن رُعْبِها منكم - الجَرأةَ علَيكُم، فادفعُوا عنْ أنفُسكُم خذلانَ هذه العاقبةِ من أمركم بمُناجزةِ هَذا الطاغية، فقَد ألقَتْ به إليكُم مدينتُه الحصينةُ، وإنَّ انتهازَ الفرصة منه لممكنٌ إنْ سَمحتُم لأنفُسكم بالموت.

لقَد انتخبكم الوليدُ بنُ عبدِ الملك - أميرُ المؤمنينَ - من الأبطال؛ ليكونَ حظُّه منكُم ثوابَ الله علَى إعلاءِ كلمته وإظهارِ دينه بهذه الجزيرة، واللهُ تَعالَى ولىُّ إنجادكم علَى مَا يكونُ لكُم ذكرًا فى الدارَين.

أيُّهَا الناسُ، مَا فعلتُ من شيءٍ فافعلُوا مثلَه، إنْ حملتُ فاحملُوا، وإنْ وقَفتُ فقفُوا، ثمَّ كونُوا كهيئةِ رجلٍ واحدٍ فى القتالِ، وارغَبُوا فيمَا أحلَّ لكُم من ثوابِ الشهادة".

ورأى طـارقُ بـنُ زيـاد أنَّ المسـلمينَ يحـتاجُونَ إلَـى مكان حصين يحميهم إذَا احتاجُوا لـلحماية، لذلكَ حصَّن جبلَ طارق تَحصينًا قويًا، ورفعَ رايةَ الإسلام فَى ذلكَ الموقع خفَّاقـةً، تُعلـنُ للدنيَا بأسْرها أنَّ دينَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قَد دخلَ إلى بلاد الأندلس مُبتدئًا بجبلِ طارقٍ.

١٤ـ الجزيرة الخضراء

فـرغَ المسـلمونَ مـن تحصـين جـبلِ طـارق، وبعـدَ ذلـكَ بعـثَ طارقُ بنُ زياد بالقائد عـبدالملك بن أبى عامر فى فرقة من أبْرَع الفُرسان، فسارُوا بجوار الساحل الأندلسىِّ، ثـمَّ مضـتْ إلى قرطايةَ فاستولتْ علَيها. بعدَها مضتْ جَنوبًا إلى بلدة الجزيرة الخضراء فـى مقـابل جبل طارق، وفى ذلكَ الوقت تحرَّكَ طارقُ بنُ زياد جهةَ الغرب إلَى ولاية الجزيرة، وذلكَ بمعاونة يوليانَ.

كـانَ تـيودُوميرُ يحكـمُ ولايـةَ الجزيـرة الخضراء، واجتمعت الجيوشُ الإسلاميةُ بقيادة طـارق بـن زيـاد، فهـزمَ قـوات مـتفرقةً مـن القوط، واحتلَّ قلاعَ الجزيرة الخضراء، وصـارت المـنطقةُ فـى أيـدى المسـلمينَ، حيثُ ضمَّتْ جبلَ طارق والجزيرةَ الخضراءَ وجزيرةَ طريف.

نظـرَ أهـلُ ولاية الجزيرة الخضراء إلى المسلمينَ فوجدُوهم قَد اتخذُوا من ولايتهم قاعدةً لجيوشـهم؛ فقَد كانَ واضحًا أنَّ هدفَهم ليسَ تلكَ الولايةَ، لكنَّهم يقصدونَ فتحَ بلاد الأندلس كلِّها.

رصـدَ أهـلُ الولايـة أحـوالَ المسـلمينَ، ورَأوْا بَسالتَهم فى القتال، وشاهَدُوهم وهُم يـتجمَّعونَ فـى أوقـات الصـلاة، كـأنَّهم كـانُوا رجُلاً واحدًا فى قتالهم وفى صلاتهم وفيمَا يقومُونَ به من أعمال فى إعداد مُعسكَراتهم.

ولكنْ ظلَّ الناسُ يتحدَّثونَ طَويلاً عمَّا حدثَ لابنِ فرْنانْدُو، فقَد كانَ شَيئًا يفوقُ الخيالَ.

خرجَ فرناندُو من داره حاملاً سلاحَه ليشاركَ في القتالِ ضدَّ المسلمينَ، ومكثتْ زوجتُه بالدار مع ولدهما الذى يبلغُ من العُمر سبعةَ شهور.

دخلَ فرسانُ المسلمينَ البَلْدةَ، ودارَ قتالٌ، فخرجتْ زوجةُ فرناندُو لتنظرَ ما يحدُثُ، فأمسكَ بها أحدُ الفرسان، كانُوا يجمعونَ النساء في دارٍ في أطراف البلدة، ولَم يلتفت الجنديُّ المسلمُ لصراخها، فقَد كانَ كلُّ النساء يصرخْنَ.

خرجَ الطفلُ من الدار يحبُو، ولمحَهُ الفارسُ المسلمُ عيَّاشٌ، كانَ الطفلُ يبكى بحُرقة. أوقفَ عياشٌ جَوادَه، وحملَ الطفلَ إلَى داخلِ الدارِ ليسلِّمَه إلى أهله، لكنَّه لمْ يجِدْ بالدار أحَدًا.

شعرَ عياشٌ بقلبه يتقطَّعُ من منظر الطفل الباكى، فحملَه وأطلقَ العنانَ لجواده مُتَّجهًا إلى الدار التى تَّم تجميعُ النساء بهَا، لعلَّ أمَّه تكونُ هناكَ، أو تكونُ من بين النساء مَن تعرفُه. دخلَ عياشٌ إلى الدار وسألَ:

ابنُ مَن هذَا الطِّفلُ؟

لَم تصدِّقْ أمُّه عينَيها، كانتْ تبكى بشدَّة، وكانَ الطفلُ يبكى بشدة، وحيَن رآهَا ألقَى بنفسه فى أحضانها، وبَّخَها عياشٌ لأنَّها تركتْ ولدَها، ففهمَتْ من ملامحه وحركاته ما يقصدُه، بالرَّغم من أنَّها لا تعرفُ اللغةَ العربيةَ التى يتكلَّمُ بها. حاولتْ أنْ توضِّحَ لَه الأمرَ، لكنَّه مضَى عَنها؛ فإنَّ لَديه مَا هُو أهمُّ من الاستماع إلى مبرِّرَاتها.

كانَ فرناندُو قَد علمَ أنَّهم جمعُوا النساءَ فى تلكَ الدار التى فى أطراف البلدة، فذهبَ إلى هناكَ، ورأى عياشًا يخرجُ من باب الدار فأطلقَ سَهمًا من قوسه فأصابَ كتفَ عياشٍ، فسقطَ عن جوَاده، كانَ بعضُ النسوة ينظُرْنَ من نافذة الدار، ورأينَ ما حدثَ فصرخْنَ فى فرناندُو الذى كانَ قَد أسرعَ كىْ يُجهزَ علَى عياشٍ!

كانـت النسـوةُ جَمـيعُهنَّ يصـرخْنَ فـى فـرناندُو كَـى يتركَه؛ فهوَ قَد أنقذَ حياةَ طفله الصَّغير.

حيـنذَاكَ انتـبهَ حُـرَّاسُ الـدار وأمسكُوا بفرناندُو أسيرًا، وطلبت النسوةُ إدخالَ عياشٍ إليهنَّ حتَّى يُداوينَ جُرحَه.

بكَـى فـرناندُو طَويـلاً، وطلـبَ مِـن عـيَّاشٍ أن يسامحَه علَى ما فعلَ؛ فقَد كانَ طفلُه الصغيرُ هو أغلَى مخلوقٍ علَى وجه الأرضِ بالنسبة إلَيه.

وتعجَّـبَ الـناسُ.. مـا الـذى دفـعَ بفـارسٍ مـثلِ عـياشٍ إلى الاهتمامِ بطفلٍ صغيرٍ، والبحث عن أمِّه وتوصيله إلَيها بينَما هُو فى حالة حربٍ؟

وأجـابَهم عـياشٌ قـائلاً إنَّ ديـنَ الإسـلامِ يدعُـو إلى الرحمة، فاللهُ عزَّ وجلَّ هو الرحمنُ الرَّحيمُ.

كانَ فرناندُو أولَ مَن أسلمَ من أهلِ ولاية الجزيرة الخضراء، وتبعتْه زوجتُه، وأسلمت النسوةُ اللائى كُنَّ محتجَزات بالدار، وأسلمَ أزواجُهنَّ وأولادُهنَّ.

ولَـم تمـض أيـامٌ قلائلُ إلاَّ كانَ مئاتٌ من أهَالى الولاية قَد أسلمُوا؛ فقَد رأوْا عَمليًا أنَّ الإسلامَ يرقَى بأخلاقِ الإنسان وتَصرُّفاته.

١٥- سهل الفرنتيرة *Frontera*

يَقَـعُ سـهلُ الفرُنتيرة Frontera شمالَ غربِ الجزيرة الخضراء. ويوجدُ فى هذَا السهلِ بحيرةُ خَنْدا Janda وهىَ بحيرةٌ صغيرةٌ تتصلُ بنهرِ بَرْبَاط Barbate.

وقَـد حـدثَ لقـاءُ جـيوشِ المسـلمينَ وجيوشِ القوط الأسبان جنوبىَّ بحيرة خَنْدا عندَ ضفَّة نهرِ بَرْباطَ فى موقعِ بلدة صغيرةٍ اسْمُها بكَّه، وهذه البلدةُ غيرُ موجودة الآنَ.

كـانَ الملـكُ رودريجُـو يحـاربُ بعضَ الخارجينَ علَيه في الولايات الشمالية من أسبانيَا حينَ جاءته الأخبارُ أنَّ قائدًا عَربيًا اسمُه طارقُ بنُ زياد نزلَ بجيوشه فى جنوب البلاد، وأنَّـه يـتَّجهُ إلى الشـمال من جهة الغرب. حينذاكَ أسرعَ رودريجُو إلى طُليطلةَ عاصمة مُلكه، وجهَّزَ جُيوشًا جرارةً وصلتْ إلى مائة ألف مقاتلٍ.

وبعـثَ طـارقُ بـنُ زيـاد إلى الأمير موسَى بنُ نصيرٍ يطلبُ المَدَدَ. كانَ معَ طارق آنَذاكَ سبعةُ آلاف، انضمَّ إليهم عَددٌ من الأسبان الذينَ يكرهُونَ رودريجُو، وقليلٌ ممَّنْ أسلمَ من أهلِ البلاد.

عسكرَ طارقُ بنُ زياد بجيشه فى وادى بلدة بكَّه، عندَ نهر برباطَ، وسارتْ إلَيه جيوشُ القُـوط، وقـبلَ المعـركة بأيامٍ قلائلَ وصلَ المددُ من عند موسَى بن نصيرٍ، وكانَ يقدَّرُ بخمسـة آلاف معظمُهـم مـن الفُرسـان المخـتارينَ، المعـروفينَ بالشـجاعة والبأس فى المعـارك، وقَـد أدَّى وصـولُ المـدد فى ذلكَ الوقت إلى رفعِ معنويات المسلمين بدرجة كبيرة.

كـانَ جـيشُ المسـلمينَ أكـثرَ قليلاً من ١٢ ألفًا، بينَما كانَتْ جيوشُ القوط مائةَ ألف. لكـنَّ جيشَ المسلمينَ كانَ متماسكًا كأنَّه رجلٌ واحدٌ، يسعَى إلى تحقيق هدفٍ نبيلٍ هوَ نشْـرُ ديـن الله عـزَّ وجـلَّ. بيـنَما كانتْ جيوشُ القوط قَد خرجتْ بهدف الحفاظ علَى مُلـك رودريجُـو، وكانـتْ لا تجتمعُ علَى كلمة واحدة، فالَملكُ طاغيةٌ مُستبدٌّ تُحيطُ به البغضـاءُ والسـخطُ، ومُعـاونُوه انقسَـمُوا إلى أحـزابٍ متنافرة، بَلْ لقَد كانتْ جيوشُه نفسُـها مَـثلاً للانقسـامِ علَيه؛ فقَد كانَ يقودُ الجناحَ الأيمنَ والجناحَ الأيسرَ لجيوشه كلٌّ مـن إيفَـا وسيزبوتَ، وهُمَا قائدان عظيمان، لكنَّهما كانَا خَصمَين للملك رودريجُو، وتَتكوَّنُ صفوفُ الجيوش من أتباعهما ومن أتباعِ حُلَفائهما من الأمراء الذينَ يُكرهُونَه ويتحيَّـنونَ الفرصـةَ للانقضـاضِ علَـيه للـثَأرِ منه لَمقْتَلِ الملك السابق غيطشَه، وكانتْ

خُطَّتُهُما أنْ ينتظرَا لحظةً حاسمةً فى الحربِ كَى ينسحبَا بجنودِهِما من ساحة المعركة، فيقعُ الخللُ فى جيوشِ رودريجُو.

وقامَ الأميرُ يوليانَ - بمعاونة الأسقف أوباسَ - بعملٍ مُهمٍّ، إذ استمالَ كثيرًا من جنود رودريجُو، وأقنَعَهم أنَّ العربَ جَاءُوا إلى بلاد الأندلسِ لقَتلِ رُودريجُو والحصول علَى الغنائم، ثم العودة إلى بلاد المغرب، وأنَّهم لَم يَجيئُوا للاستقرار والإقامة بالأندلس، ورأى الأمراءُ أنَّ الحياةَ سوفَ تَصفُو لَهم حينَ يتمَّ التخلُّصُ من طُغيانِ رودريجُو، فحاولَ كلُّ أميرٍ أن يَنجُوَ بنفسه فى اللحظة المناسبة.

هكذَا قامت المعركةُ بينَ جيشينِ مختلفينِ تمامَ الاختلاف، جيشِ المسلمينَ المتماسك، وجيشِ القُوط الضَّخمِ الذى ينهارُ من تلقاء نفسه بالرَّغمِ من ضخامته المرعبة.

وحانَ يومُ اللِّقاء.. الثامنُ والعشرونَ منْ رَمضانَ سنةَ ٩٢هـ، الموافقَ التاسعَ عشرَ يُوليُو سنةَ ٧١١م.. يَومٌ لا ينساهُ التاريخُ، كانَ فارقًا بينَ عهد وعهد، وكانَ فاصلاً بينَ ظلم القوط وعدل المسلمينَ، كانَ فاتحةَ زمانِ الإسلامِ الذى أشرقَ علَى بلاد الأندلس وتألَّقتْ فيه الحضارةُ العربيةُ.

التَقَى الجيشان فى ذلكَ اليوم فى معركة عنيفة، ثمَّ فرَّقَ النهرُ بينَ الجيشينِ مدةَ ثلاثة أيام، دارتْ فيهَا معاركُ بسيطةٌ، ثمَّ التحمَ الجيشان فى اليومِ الرابع. وكانَ القتالُ شرسًا، ظَلَّ حتَّى اليومِ السابع.. حَقًّا انسحَبَ فُرسانُ القوط من المعركة فجأةً فتأثَّرَ جيشُ رودريجُو، وحقًّا انسحب عددٌ كبيرٌ من الأمراء بجنودهم فأحدَثُوا خَللاً، ولكنْ ظَلَّ بعدَ ذلكَ من المائة ألف عدَّةُ أضعاف جيشِ المسلمينَ.

استبسلَ المسلمونَ فى القتال، وكانَ شعارُهم التكبيرَ لله عزَّ وجلَّ، يدفعُهم حماسٌ عظيمٌ لنشرِ دين الله سبحانَه وتعالَى، مُجاهدينَ فى سبيلِ إعلاء كلمة الدين، يرغبونَ فى الاستشهادِ لينالُوا جَنَّةَ الخلود.

وانتهت المعركةُ بانتصار المسلمينَ. وهربَتْ فُلولُ جيشِ القُوط. ووجدَ المسلمونَ خُفَّ رودريُجو فى النهرِ، وقيلَ إنَّه حاولَ الهروبَ بعُبورِ النهرِ فغرقَ، وقيلَ بلْ نَجَا واختفَى بَعيدًا، وقالَ البعضُ إنَّه قُتِل فى المعركة.

وارتفعتْ رايةُ الإسلامِ فى منطقة الفرنتيرة خفَّاقةً تُعلنُ أنَّ دينَ الله - جلَّ وعَلاَ - قدْ فُتحَتْ أمامَه السُّبُلُ كَى ينتشرَ فى بلادِ الأندلسِ، حيثُ قامتْ فيهَا دولةٌ إسلاميةٌ دامتْ قرونًا من الزمانِ.

١٦- استجه

كانَ جنودُ رودريُجو مُوقنينَ أنَّهم سيَهزمُونَ المسلمينَ. وكانَ المسلمونَ موقنينَ أنَّهُم منتصرونَ بإذْنِ الله.

وبينَ هؤلاء وهؤلاء كانَ هناكَ مَن يتشكّكُونَ فى قُدرةِ المسلمينَ علَى هَزيمةِ الجيوشِ الجرَّارة التى يقودُها الملكُ رودريجُو بنفسه فِى أراضيه الَّتى يعلمُ كلَّ شبرٍ فيها.

تشكَّكَ أعوانُ الملك السابق غيطشَه وأقاربُه فى قُدرةِ المسلمينَ، وإنْ كانُوا تمنَّوْا انتصارَهُم، وتَشكَّكَ أعوانُ الأميرِ يوليانَ، بَل تَشكَّكَتْ قبائلُ البربرِ الموجودةُ فى المغربِ، تشككتْ أيضًا فلورندَا بنتُ يوليانَ، وإنْ كانتْ تتمنَّى من أعماقِ قلبها أنْ ينهزمَ رودريجُو ويفقدَ عرشَه، وينتقمَ لَها المسلمونَ منه من أجلِ مَا سبَّبَه لَها مِن غمٍّ وأذًى.

وطارت الأخبارُ بانتصارِ المسلمينَ. . رقصتْ فلُورندَا فَرَحًا، وانضمَّ إلى جيشِ المسلمينَ ألوفٌ من الأسبانِ الذينَ يكرهونَ رودريُجو، وانضمَّ إلَيه كذلكَ ألوفٌ من فقراءِ الأندلسِ الذينَ كانُوا يترقَّبُونَ فرصةَ الخَلاصِ من ظلمِ الأثرياءِ وأصحابِ السُّلْطَة.

وعـبرتْ مضيقَ جبلِ طارق ألوفٌ وألوفٌ من قبائلِ البربر، بعضُهم بالسفن الكبيرة، وبعضُـهم بالمراكـب الصـغيرة، بَل عبرَ بعضُهم بالقوارب، وسعَوْا كَي يلحقُوا بجيشِ المسلمينَ فينضمُّوا إليه.

ومضَـتْ فلـولُ جَـيشِ القُـوط جهةَ الشمال؛ كَيْ يعتصمُوا بالقلاع والحُصون لإعادة تنظـيم صـفوفهم، فأسـرعَ طـارقُ بنُ زيادٍ بجيشه حيثُ دارتْ معركةٌ عنيفةٌ عندَ مدينة إستجَّة شمالَ الفُرنتيرة.

كانـتْ بقـيةُ الجـيشِ القوطـيِّ قـدْ اجتمعـتْ عـندَ إستجّة، وكانَ عددُها كَبيرًا، فلقيَ المسـلمونَ مقاومـةً عنـيفةً، وحيـنذاكَ بعثَ طارقُ إلى يوليانَ كَي يُسرعَ بالمجيء إلَيه.

وكـانَ يولـيانُ فـى الجزيـرة الخضراء فَى الجنوب، فوصلَ مسرعًا إلى طارق بن زياد، وكانَ الراغبونَ فى الانضمامِ إلى طارق قَد وصلُوا إلَيه وهُو يحاصرُ إستجّة.

ولَـم يلبَـثْ حاكمُ إستجّة أنْ صالَحَ المسلمينَ، ودخلَ فى طاعتهم وسلَّمَ البلدَ لطارقِ ابن زياد.

صـارتْ أمـامَ طـارق مشكلةٌ كبرَى. كانتْ تنضمُّ إلَيه أعدادٌ كبيرةٌ من الجنود. أصبحَ جيشُـه يـتكوَّنُ مـن العرب، والبربر، والمَوَالى، والسُّود، والأسبان، وأهلِ الكتاب.

وتضـخَّمَ جيشُـه جـدًا، فصارَ يضمُّ أعدادًا هائلةً من الجنودِ يصعُبُ التحركُ بهم علَى أيِّ قائد مهْمَا كانتْ بَراعتُه!

وحينذاكَ نصحَه يوليانُ بتفريق جيوشه فى النواحي وقالَ لَه قَد فتحتَ الأندلسَ، فخُذْ من أصحابى أدلاَّء، ففَرِّقَ معَهَم جيوشَك، وسرْ معَهم إلى مدينة طُلَيْطلةَ.

وفرَّقَ طارقُ بنُ زياد جيوشَه من إستجّة، ومضَى فى طريقٍ طويلٍ إلى الشمال، قاصدًا طلـيطلةَ عاصـمة الـبلاد، بيـنَما أرسلَ مُغيثًا الروميَّ ـ مولىَ الوليد بن عبد الملك ـ إلَى قرطبةَ، فاقتحمَ أَسوارَها الحصينةَ ومعَه سَبعُمائة فارسٍ، وفتحَها دُونَ مشقة.

١٧- طليطلة

كانتْ أوامرُ موسَى بنُ نُصَيْر إلى طارق بن زياد واضحةً، أمرَهُ ألاَّ يجاوزَ بجيش المسلمينَ قرطبةَ. أوْ حيثُ ينتصرُ علَى جيوش القوط، حتَّى لا يغامرَ بالمسلمينَ فى جبال الأندلس ووديانها التى لا يعرفُها، فيتربَّصَ به القوطُ ويقضُونَ على رجاله.

لَم يُطعْ طارقٌ الأمرَ، فالحَاضرُ يرَى مَا لاَ يرَى الغائبُ، كانت الأندلسُ مفتوحَةً أمامَه ينطلقُ فى أرجائها كيفَ شاءَ، وكانَ معَه يوليانُ ورجالُه يدلُّونَه فى الأراضى الأسبانية إلى أنسب الطرق، وكانَ قَد انضمَّ إلى جيشه ألوفٌ وألوفٌ. من أجل كلِّ ذلكَ لَم يرَ طارقُ بنُ زياد مبررًا للتوقُّف قبلَ إتمام الفتح الكامل، فوزَّعَ جيوشَه فى مناطقَ مختلفة، وانطلقَ شَمالاً إلى طليطلةَ عاصمة مَمْلَكَة القوط.

اخترقَ طارقٌ هضابَ الأندلس، وعبرَ جبالَ سيّرا مُورينَا (جبل الشَّارات) وهى تفصلُ بينَ الأندلس وقَشْتالةَ. كانتْ مسافةً كبيرةً جدًا، وكانَ من اليسير أن تتُوهَ جيوشُ المسلمينَ عبرَ الجبالِ والوديان والطرُق المتشابكة، ولكنْ كانَ يُرشدُهُمْ يوليانُ وأصحابُه.

ولَم ينسَ طارقُ بنُ زياد هدفَه الأساسيَّ وهُو يزحفُ بجيوشه؛ فقَد كانَ يدعُو أهلَ القُرَى والمدن إلى الإسلام، ويبيِّنُ لهُم مَا فيه من خير، وأنَّه السبيلُ إلى الصَّلاح فى الدنُيَا والآخرة، وكانَ حَريصًا ألاَّ يظلمَ أحَدًا، وأنْ يُقيمَ العدلَ حيثُمَا حلَّ، لذلكَ أحبَّه المظلومُونَ فى بلاد الأندلس، وهُم مُعظَمُ سكانها، وانضمَّ إلَيه كثيرٌ منهم، واعتنقَ الإسلامَ أعدادٌ من الأهالى.

وصلت الأخبارُ إلى طليطلةَ باقتراب جيوش المسلمينَ، وكانتْ هىَ عاصمةَ القوط الذينَ احتلُّوا الأندلسَ ثلاثمائة عام، فلمَّا سمعُوا باقتراب طارق بن زياد حملُوا أموالَهم وآثارَ قدِّيسيهم وهربُوا ناحيةَ الشمال.

عبرَ طارقٌ الوادى الكبيرَ عندَ مَنْجبَار، وسارَ فى الطريق القديم الذى كانَ يُعرَفُ فى عهود الرومان باسم طريق هانيبال، ودخلَ طليطلةَ دونَ مقاومة، فأمرَ بعدم الاعتداء علَى أهلها، وتركَ لَهم معابدَهم وكنائسهمْ يُقيمونَ فيها شعائرَهم الدينيةَ، ثمَّ اختارَ لحُكمها وإدارتها مُطرانَها السابقَ أوباسَ، وهوَ أخُو الملك وتيزا.

وجدَ طارقٌ فى قصور القوط فى طليطلةَ كُنوزًا زاخرةً وذَخائرَ عظيمةً وغنائمَ لاَ حُدودَ لَها، لكنَّه لَم يشغلْ نفسَه بها كَثيرًا، فقَد أمرَ الجيشَ بالتحرُّك، ومضَى إلَى وادى الحجارة، وسارَ حتَّى وصلَ إلى بلدة صغيرة أسمَاهَا المسلمونَ بلدةَ المائدة، بالقرب من قلعة هنارسَ. وقَد أسَموْهَا المائدةَ لأنَّهم وجدُوا بها مائدةً عجيبةً كانتْ حافَّاتُها وأرجُلُها من الزَّبَرْجَد الأخضر، وبها كَمِّيَّاتٌ من الجواهر النادرة، وقيلَ إنَّ لَها أكثرَ من ٣٠٠ رجْل، وقيلَ إنَّها مائدةُ سُليمانَ ﷺ، وإنَّ الرومانَ غَنمُوهَا من بيت المقدس فى بعض غزواتهم ونقلُوها إلى رومَا، وغنمَها القوطُ حينَ افتتحُوا رومَا، وجاءُوا بها إلى الأندلس، ثمَّ غنمَها المسلمونَ.

لكنَّ الباحثينَ رجَّحُوا أنْ تكونَ تلكَ المائدةُ مَذْبحُ كَنيسة طليطلةَ الكبرَى، حيثُ كانَ يُوصى كبارُهم بالتبرُّع بأموالهم للكَنيسة بعدَ وَفاتهم، فَتُجمَعُ تلكَ الأموالُ، وابتيعَ بها الجَوهرُ الثَميُن الذى أضيفَ إلى المذبح حتَّى صارَ تحفةً فنيةً ثمينةً إلى أقصَى درجة، فصارَ المذبَحُ من الزبرجَد الخالص المحلَّى بأثمن أنواع الجواهر. وربَّمَا حاولَ القَساوسةُ حمْلَه والهربَ به لفخامته وقداسته، لكنَّهم لَم يَستطيعُوا التقدُّمَ به أكثرَ من ذلكَ حينَ رَأوْا أنَّ جيوشَ المسلمينَ سوف تُدركُهم، فتركُوهُ، وفَرُّوا بما معَهم من أموال وجواهرَ.

حلَّ شهرُ أكتوبرَ، وبدأَ بردُ الخريف، ورأَى طارقُ بنُ زياد أنَّ الغنائمَ التى حصلَ علَيها منذُ بداية الفتح قَد أثقلَتْ جنودَه، فقرَّرَ العودةَ إلى طليطلةَ كَى يَقضىَ الشتاءَ فيهَا، فيستريحَ جيشُه، وبعدَ ذلكَ يستكملُ فُتوحاته.

جاءتْ أوامرُ موسَى بنُ نصير إلى طارق بن زياد حيَن عادَ إلى طليطلةَ . وكانتْ رسالتُه شـديدةَ الـلهجة . لقـدْ أمَـرَ بوقـف الفـتحِ ، وأمـرَ طارقًا بعدمِ التقدم حتَّى يلحقَ به ، وتوعَّدَه بالعقابِ الشديد إنْ هُو توغَّلَ فى بلاد الأندلسِ أكثرَ من ذلكَ بغيرِ إذنه .

وصـارت الفرصةُ مُواتيةً لطارق حيَن استقرَّ فى طليطلةَ كَى يدعُو أهلَها إلى الإسلامِ ، ويبعـثَ بالفُقهـاء من رجاله إلى المناطقِ المجاورة كَى يحدِّثُوا أهلَها عَن الدينِ الحنيف ، فدخلتْ فى الإسلامِ أعدادٌ كبيرةٌ من أهلِ تلكَ النواحى .

١٨- إشبيلية

ترامَـت الأخـبارُ إلى طارقِ بن زيادٍ حيَن عادَ إلى طليطلةَ بأنَّ القوطَ يجمَعونَ قوَّاتهم فى أمـاكنَ متفرِّقة مـن بـلادِ الأندلسِ ، فبعثَ يستنجدُ بالأمير موسَى بنِ نصيرٍ ، ويطلبُ العونَ .

بعثَ يوليانُ برسالة طارق من الجَزيرة الخضراء إلى موسَى بنِ نصيرِ فى القيروانِ . وفى الوقـت الـذى كانـتْ فـيه رسـالةُ طارقٍ ذاهبةً كانتْ هناكَ رسالةٌ من موسَى بنِ نصيرِ قادمةٌ ، يوبِّخُ فيهَا طارقًا ، ويأمرُه بعدمِ التقدمِ فى فتوحاته .

كـانَ الموقـفُ خَطـيرًا ؛ جـيشُ المسـلمينَ فـى طليطلةَ بالشَّمالِ ، ولَه حاميةٌ صغيرةٌ فى قُرطُـبةَ ، ولديَـه قـاعدةٌ فـى الَجزيـرةِ الخضراءِ فى أقصَى الجنوبِ ، هى همزةُ الوصلِ بينَهم وبينَ إفريقيَّةَ ، يُقيمُ فيهَا يوليانُ .

ولَـم تُفْـتَحِ المـدنُ الـتى فـى مَشـرِقِ الأندلـسِ وفـى غَـربها ، وبذلكَ صارتْ خطوطُ المواصَـلات الخاصَّة بالمسلمينَ فى خطرٍ ، فإذَا سارتْ قوَّاتُ القوط التى فى أوريُولة أوْ فى إشْبيليَّةَ ، فاتَّجهتْ إلى إستجّة أو شَذَونةَ فإنَّها سوفَ تفصلُ الجيشَ الإسلاميَّ الذى

فـى الشَّـمال ـ فـى طليطلةَ ـ عَنِ الحاميةِ التى فى قُرْطُبَةَ ، وباستطاعة القوط أيضًا قَطعُ الجـيشِ والحامـيةِ عن الجزيرة الخضراء وعَن مَوانئِ الأتِّصالِ فى إفريقيةَ ، وبذلكَ يمكنُ القضاءُ علَى جيوشِ المسلمينَ .

أدركَ طـارقٌ بـنُ زياد فداحةَ الخطرِ الذى تتعرَّضُ لَه جيوشُه ، وأدركَ فى ذلكَ الوقت فقطْ سببَ أوامرِ موسَى السابقة بعدمِ التقدمِ إلاَّ إلى قرطبةَ ، أو حيثُ تدورُ المعركةُ بينَ المسلمينَ والقوط .

كـانَ جـيشُ المسـلمينَ قَـد أصـابَه الإجهـادُ الشديدُ من المعارك المتتالية . وكانَ القوطُ يجمعُـونَ قواتهـم . وفـى شـهر رمضـانَ مـن سـنة ٩٣هـ وصلَ موسَى بنُ نصيرٍ إلَى الأندلُس ، فخفَّ يوليانُ لاستقباله .

صـنعَ موسَـى بنُ نصيرٍ سُفُنًا كبيرةً لنقلِ جنوده إلى الأندلس ، وقادَ جَيشًا كَبيرًا يتكونُ مـن عشْـرة آلاف مـن العـرب ، معظمُهـم مـن القيسـيَّة واليمنـيَّة ، ومعَهم مَواليهم ، بالإضـافة إلى عـدد من التابعينَ والفُقهاء والعُلماء ، وكانَ فى الجيشِ أيضًا ثمانيةُ آلافٍ من البربر .

قسَّـمَ موسَـى جيشَـه الـذى تكـوَّنَ مـن ١٨ ألفًـا إلى فـرق بحسـب قبائلهم وأصُولهم ومراتـبهم ، وجعـلَ لكلِّ فرقة رايةً . فلمَّا عبَر إلى الأندلسِ انتظرَهم فى موضعٍ قريب مـن الجزيـرة الخضراء ، وشيَّدَ فيه مَسجدًا ووفدَتْ علَيه الفرَقُ تحملُ الرايات فى ذلكَ المَوضعِ فعُرِفَ باسمِ الرايات وسُمِّيَ المسجدُ باسمِ مسجد الرَّايات .

وسـارَ موسَـى بـنُ نصير بجيوشه وَفْقَ خُطَّة محكَمة يقصدُ بها تأمينَ خطوط مُواصلات المسـلمينَ مـن الجزيرة الخضراء إلى قرطبةَ ، ففتحَ شَذُونَةَ ، ثم مضَى إلى قَرْمُونَة وكانتْ حصـينةً منـيعةً ، لكـنَّه تمكَّـنَ مـن فـتحها بمعاونةِ يوليانَ وأصحابه ، ثم فتحَ رعواقَ ، وبذلكَ تمكَّنَ من تأمينِ خطوطِ المواصلات .

مضَى موسَى بنُ نصير بعدَ ذلكَ إلى إشبيليَّةَ التى كانتْ أعظمَ قواعد الأندلس بعدَ طليطلةَ، فحاصرَها بضعة أشهُر دامَ القتالُ خلالَها، ثمَّ فَتحَتْ أبوابَها، وانسحبتْ حاميتُها القوطيةُ مسافات طويلةً حتَّى وصلتْ إلى باجةَ.

رأى موسَى بنُ نصير عجبًا حيَن دخلَ إلَى إشبيلية، كانتْ شوارعُها متَّسعةً، ودُورُها فسيحةً، وحدائقُها وارفةً، وكانتْ جداولُ الماء تمرُّ أمامَ قصورها، وفوجئَ بأعداد كبيرة من الأهالى يرحِّبُونَ به. لقَد رَأوا فيه المنقذَ ورَأوا دخولَه خَلاصًا لَهم من الذلِّ الذى كانُوا يعانُون منه تحتَ وَطْأة ظلم الأثرياء وأصحاب السطوة، لقَدْ سمعُوا كثيرًا عَن عدل المسلمينَ، لذلكَ فرحُوا بدخولهم إشبيليةَ.

لَم يتوقَّفْ موسَى بنُ نصير، بلْ تركَ فى إشبيليةَ عَددًا من الفقهاء يدعُونَ الناسَ إلى الإسلام، وتركَ حاميةً صغيرةً تحافظُ علَى الأمنِ والأمانِ فى إشبيليةَ، وانطلقَ إلى مدينةِ ماردةَ، حيثُ يتجمَّعُ جنودُ القُوط.

١٩- ماردة

التفَّ العبيدُ فى المساء حولَ زميلهم شاسُو. لم يكنْ يزعجُهم أنْ يرَوْا خُطوطًا حمراءَ علَى أجساد بعضهم؛ فقدْ اعتادَ سيدُهم خُوليانَ على ضربهم بالسياط، واعتادُوا هُم علَى تحمُّل ذلكَ. لكنَّهم التفُّوا حولَ شاسُو كَى يُواسُوه فى ذلكَ المَساء؛ فقَد ضربَه خوليانَ بالسَّوط، فسقطت الضربةُ علَى وجهه طُوليًا، وجعلتْه يفقدُ عينَه اليسرَى.

لَم يكنْ شاسُو يشعرُ بألَم الضربة وحدَها فى ذلكَ اليوم، بلْ كانَ يشعرُ بألَمَين، أحدُهُما يعرفُه وهُو ألُم الضرب، أمَّا الألَم الثانى فكانَ ألَمًا نفسيًا شعرَ به للمرة الأولَى فى حَياته، لقَد صحَا فى داخله تمرُّدُ الإنسانِ علَى الظلمِ، شعرَ للمرة الأولَى أنَّه إنسانٌ.

لَـم يكـنْ مَسـموحًا للعـبدِ بـأنْ يـرَى فى نفسه أكثرَ من حيوانٍ أو آلة . وعاشَ شاسُو حـياتَه كلَّهـا علَـى هَـذا المـنوالِ، مـثلُه مـثلُ زُملائه العبيدِ . لكنَّه فى ذلكَ اليومِ شعرَ بالإهانة . . شعرَ أنَّه إنسانٌ.

قالَ لزملائه : لَن أقبلَ أنْ يُهيننِى خوليانُ أو غيرُ خوليانَ بعدَ اليومِ .

ظـنَّ زمـلاؤُه أنَّ ضياعَ عينه هوَ الذى جعلَه يقولُ مثلَ هذَا الكلامِ، لكنَّهم اكتشفُوا أنَّ هـناكَ سَـببًا آخـرَ وراءَ حديثه هذَا حينَ قالَ لَهُم : هَلْ تعلمونَ أنَّ المسلمينَ لا يعذِّبونَ عبيدَهم؟!

همَّهُـم أصـحابُه . . فقال شاسُو : سأقولُ لكُم مَا هُو أعجبُ من ذلكَ . . لقدْ سمعتُ أنَّه إذَا أسلمَ الواحدُ منَّا صارَ حُرًّا .

سـادَ الصـمتُ فجـأةً بيَن العبيد ، واتخذَ كلٌّ منهُم رُكنًا اعتادَ النومَ فيه كلَّ ليلة ، وأخذَ كـلٌّ مـنهُم يحـلمُ أنَّـه صـارَ حُرًّا . . صارَ بإمكانه أنْ يتزوَّجَ . . وأنْ يعملَ ويرتزقَ من عملـه ، بَـل لقَد اتسعَ الحلْمُ عندَ بعضهم فرَأى نفسَه من أصحابِ الأملاك ، ولَه أسرةٌ وأولادٌ، وامتدَّ الحلمُ بالبعضِ فرَأى عندَه الخدمَ والجَوارِيَ .

وكـانَ صَباحًا مُختلفًا . . قامَ العبيدُ مُثقَلينَ بأحلامهم ، فلَم يعملُوا باجتهاد كمَا كانُوا يعملـونَ . لاحـظَ خولـيانُ ذلـكَ لكـنَّه كـانَ مشـغُولاً عَـنهم ، فاكتفَى بأنْ زعقَ فيهم وسبَّهم ، وأجَّلَ عقابَهم إلى وقتٍ لاحقٍ ، إذْ كانَ علَيه أنْ يسرعَ لحضورِ اجتماعٍ عاجلٍ دعَا إلَيه قائدَ حامية ماردةَ .

أنـبأَهُم قائدُ الحامية أنَّ المسلمينَ سوفَ يَصلُونَ بجيوشهم إلى أسوار ماردةَ بعدَ ساعات قلائـلَ ، وأنَّـه يـتوقعُ حصـاراً طويـلاً . وأمرَ كبارَ الأثرياء بأنْ يختارُوا من عبيدهم مَن يتوسَّمونَ فيه القدرةَ علَى القتالِ حتَّى ينضمَّ إلى الجنود .

كانـتْ مـاردةُ مـن أعظـمِ المـدن تحصـينًا، وكـانَ فيها أعوانُ رودريجُو الذينَ نَجَوْا من معـركة وادى بكّـه فـى سـهول الفُرنـتيرة. لقَـد تجمَّعوا فى ماردةَ وصارُوا قوةً ضاربةً يمكنُها الصمودُ أمامَ جيوشِ المسلمينَ.

وصلتْ جيوشُ المسلمينَ، ودارَ قتالٌ عنيفٌ، وضُربَ حصارٌ قويٌّ علَى المدينة، وقُتلَ عـددٌ كبـيٌر مـن جـنود الحامية بسببِ الكمائنِ التى أخفاهَا موسَى بنُ نصيرٍ فى مقاطعِ الصخرِ أمامَ مخارجَ البلد.

ومـرَّتْ شـهورٌ طويلـةٌ مـن الحصـارِ والقتالِ حتَّى تمكَّنَ المسلمونَ من دخولِ ماردةَ فى مستهَلِّ شوال منْ سنة ٩٤هـ.

كـانَ خولـيانُ يجمـعُ أثمـنَ مَـا يملكُ من جواهرَ بيدَين ترتعشان؛ كَى يُخفيَها فى حزامٍ حـولَ خَصـره فى غُرفته الخاصَّة بقصرِه الكبير، بينَما كانَ العبدُ شاسُو يَعدُو إلى حيثُ تجمعَ عددٌ من المسلمينَ.

سألَهم وهوَ يلهثُ عَن مكانٍ أميرهم.

سألُوهُ: لماذَا؟

فأجابَهم بأنَّه يريدُ أنْ يبلغَه بأمرٍ مُهمٍ.

دخـلَ شاسُـو إلى موسَى بن نصيرٍ وخرَّ راكعًا، فأمرَه موسَى بعدمِ الركوعِ، وأنْ يخبرَه بالأمرِ المهمِّ الذى تحدَّثَ عَنه إلى رجاله.

نظـرَ شاسُـو فوجـدَ موسَـى شَيخًا كبيرًا، كانَ عُمْر موسَى بن نصير آنذاكَ ٧٥ عامًا، تعجـبَ شاسُـو.. كـيفَ استطاعَ هذَا الرجلُ الهَرِمُ أنْ يقودَ مثلَ تلكَ الجيوشِ ويحقِّقَ الانتصارَ الباهرَ على جحافلِ القوط التى كانتْ فى ماردةَ.

كرَّرَ موسَى سؤالَه، وقَد بَدا الغضبُ فى ملامحه.

أخـبرَه شاسُـو عمَّا يُعانيه الناسُ من ظلمٍ في هذه البلاد، وأنبَأه أنَّ كثيرًا منهم يرغَبونَ في اعتناق الإسلام، وأنَّ معظمَ العبيد - وهُم ألوفٌ - كانُوا يترقَّبونَ دخولَه ماردةَ حتَّى يُسلمُوا بينَ يديْه، وأنَّه أولُهم، لكنَّهم لا يدرونَ ما يفعلونَ وكيفَ يتمُّ لُهم ذلكَ؟

أمـرَ موسَـى بجمـعِ الـناسِ فـي السـاحة الكبرَى في ماردةَ، وخطبَهم، فعرَّفهم فضلَ الإسـلامِ، وأنَّـه ديـنٌ يدعُو إلى الخير والعدلِ والرحمة والصلاحِ، وقالَ لَهم إنَّه لا فرقَ بـيَن مسـلمٍ ومسـلمٍ إلا بالتقوَى؛ فالمسلمونَ إخوةٌ، وهم سواسيةٌ، وقالَ لَهم إنَّ مَن أرادَ الدخـولَ فـي الإسلامِ علَيه أنْ يُؤمنَ بالله وحدَه لا شريكَ لَه. ويقولَ : أشهدُ ألاَّ إلهَ إلاَّ اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله.

وفوجئَ موسَى بمئات الأصوات تردِّدُ: أشهدُ ألاَّ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله.

وبـدَأ عهـدٌ جديـدٌ فـي ماردةَ، تحرَّرَ العبيدُ حينَ دخلُوا الإسلامَ، وبدَأ عهدٌ جديدٌ من الخـيرِ والصـلاحِ؛ فقَـدْ كانـتْ مـاردةُ مديـنةً شـهدتْ شمسَ الإسلامِ وهيَ تشرقُ في البلاد.

مسـيرةٌ طويلـةٌ قطعَهـا موسَـى بـنُ نصـير . لقَد مكثَ شَهراً فى ماردةَ، ثمَّ خرجَ منها قاصـداً الذهـاب إلى طلـيطلةَ، وبعثَ إلى طارق بن زياد كَى يلقَاهُ فى منتصَف الطريق بـينَ مـاردةَ وطليطلةَ، فسارَ طارقٌ مَا يقرُبُ من ١٥٠ ميلاً حتَّى وصلَ إلى مكان اسمُه المعرضُ، فانتظرْ هناكَ .

وخـرجَ موسَـى مـن مَـاردةَ، فسَـارَ فـى طريق رومانىٍّ قديم، يصلُ بينَ ماردةَ ومدينة سلمنقةَ، ولَم يكنْ يعلمُ أنَّ العدوَّ اللَّدُودَ يُعسكرُ فى السَّهلِ الفَسيحِ المُحيط بسلمنقةَ، لقَـد كـانَ الملـكُ رودريجُـو ملـكُ القوط يتحيَّنُ الفرصةَ هناكَ للانقضاضِ علَى جيش المسـلمينَ، وحيَن أصبحَ موسَى بنُ نصير فى منتصَف الطريق الطويل، حيثُ لا يمكنُه طلـبُ المَعونـة من أحد هجمَ علَيه رودريجُو بجيوشه فى منطقة اسمُها السَّواقى بالقُرب من تمامس Tamames .

وكمَـا فوجِئَ موسَى بنُ نصير بقوات رودريجُو، فوجئَ رودريجُو بصلابة جنود موسَى ابن نصير وبَأسهم وقُدرتهم علَى الصمود وبراعتهم فى القتال .

ودارتْ معركةٌ شرسةٌ انتهتْ بانتصار المسلمينَ وفناء القوط، وقُـتلَ رودريجُو (لذريق) علَـى يـد مَـروانَ بن موسَى بن نصير، فكانَ فى تلكَ الموقعة مَقتَلُ آخر ملوك القوط، وحَملَ أتباعُه جثَّتَه فدفنُوهَا فى فيزيو .

ويبدُو أنَّ المؤامرةَ كانتْ محكَمةً، ففى الوقت الذى دارتْ فيه هذه المعركةُ، هبَّ بعضُ القـوط وأعوانُهـم فى طليطلةَ فانتزعُوهَا من أيدى المسلمين مستغلِّينَ غيابَ طارق بن زياد؛ حيثُ خرجَ بجيشه لمقابلة موسَى بن نصير .

صـارَ موسَـى أكـثرَ شراسـةً وقسوةً بعدَما لاقَاه فى تلكَ المعركة، وبعدَ أنْ نقضَ أهلُ طلـيطلةَ عهدَهـم أعـادَ فـتحَها، وبيـنَما كانَ طارقٌ يميلُ إلى فتح البلاد فتحًا سلميًا إذَا

بموسَى بنُ نصيرٍ يميلُ إلى العنفِ، فى شدةٍ وقسوةٍ وحرصٍ على جمعِ الغنائمِ والأسرَى والسبايَا.

لذلكَ حينَ اقتربتْ طلائعُ المسلمينَ من سَرَقُسْطَةَ أصابَ الرعبُ رهبانَها وأسقُفَها بنسيو، فحملُوا أناجيلَهم وذخائرَهم كىْ يهربُوا من البلدِ، لكنَّ موسَى بعثَ إلَيهم بعهد الأمان، فاطمأنُّوا وظلُّوا فى البلدِ، وحينَ دخلَها المسلمونَ قامَ التابعىُّ حنشُ بنُ عبدِ الله الصَّنعانىِّ بإنشاءِ مسجدٍ فيهَا، واجتهدَ فى نشرِ الدعوةِ الإسلاميةِ، فأسلمَ عددٌ كبيرٌ من أهلها.

مضَى موسَى بنُ نصيرٍ وطارقُ بنُ زيادٍ يُواصلانِ الفتوحاتِ مَعًا، فتمَّ لهُمَا فتحُ كلٍّ من وشقةَ، ولاردةَ، وطرّكونةَ، وبرشلونةَ وغيرها من المُدنِ. وأمرَ موسَى أنْ تُسيَّرَ الجُيوشُ فى اتجاهين.

مضَى طارقٌ غَربًا لغزوِ جلّيقيةَ والقضاءِ علَى بقايَا القوطِ الذينَ هربُوا إلى مرتفعاتها. بينَما سارَ موسَى شَمالاً بجيوشه الجرَّارة.

عبرَ موسَى جبال ألبرتَ أو جبالَ الممرات، وكانَ بهَا خمسةُ ممراتٍ طويلةٍ تستعمَلُ للعبورِ وللغزوِ. وسارَ حتَّى ولاية لانجدوكَ التى كانتْ تابعةً لملوكِ القوطِ، ثمَّ فتحَ قرقشونةَ (كاركاسون) وأربونةَ، ونفذَ إلى ممالك الفرنجة، وغزَا وادىَ الرون حتَّى وصلَ إلى مدينة ليُونَ فى فرنسَا. وهناكَ رفعَ موسَى بنُ نصيرٍ رايةَ الإسلامِ.

فكّرَ موسَى فى أن يخترقَ أوربّا بجيوشه فيفتتحَ بلادَ الفرنجة كلَّها حتَّى يصلَ إلى دمَشقَ عَن طريقِ القسطنطينية، ولكنْ وصلَ إلَيه أمرُ الخليفة الوَليد بن عبدِ الملكِ بالرجوعِ ويحذِّرُهُ من التَّوَغُّلِ بالمسلمينَ فى دُروبٍ مجهولةٍ.

اضـطُرَّ موسَـى للعـودة، لكـنَّه ذهبَ إلى جلّيقيةَ للقضاء علَى مَن تبقَّى هناكَ من فلول القـوط، ثـمَّ جاءَه أمرٌ آخرُ مِن الخليفة يأمرُه بسرعةِ الذهابِ إلى دمشقَ هُو وطارقُ بنُ زياد.

ومضَـى الفاتحـان اللَّـذان حفـرًا اسـميهما بحـروف مـن نـور فـى تـاريخ الفـتوحات الإسـلامية، وكـانَ مَـا حقَّقـاهُ سَـببًا فى نشرِ دين الله - عزَّ وجلَّ - بيَن أهلِ الأندلسِ، حيثُ شهدَتْ مدنُها وقُراها شمسَ الإسلامِ وهيَ تُشرقُ فِي البلادِ.

٢١- الحيرة

فتحَ المسلمونَ مكةَ المكرَّمةَ فى العامِ التاسعِ للهجرة، وسعَتْ الوفودُ من القبائلِ المختلفة إلى رسولِ الله ـ صلواتُ الله وسلامُه علَيه ـ كَى تُعلنَ دخولَها فى دينِ الله عزَّ وجَلَّ.

وخَرَجَ وَفْدُ بَنى شَيبانَ منْ بلاد البحرين، وكانَ ضمنَ الوفد أميرُ بَنى شَيْبانَ المُثَنَّى بنُ حارثةَ الشيبانىُّ، وقيلَ كانتْ معَه زوجتُه سلمَى بنتُ حَفصةَ التَّيْمِيَّةَ.

وعادَ الوفدُ إلى البَحرينِ ليَدعُوَ بَنى شَيبانَ إلى الإسلامِ، وتعتنقَ القبيلةُ دينَ الله تعالَى، وتقيمَ شعائرَ الدينِ، ويعلوَ صَوتُ الأذانِ فى جَنَبَاتِ البلاد.

آمنَ المثنَّى بنُ حارثةَ الشيبانىُّ عَن عقيدة وعَن شعور صادق وعَن ثقة فى أنَّ الإسلامَ هوَ الدينُ الحقُّ الذى بَعثَ به اللهُ ـ تباركَ وتعالَى ـ نبيَّهُ ﷺ إلى الناسِ أجمعينَ، ليكونَ نبراسًا للعدلِ والرحمة، وجعلَه خَيرًا للبشرية كلِّها. وجاءَ العلاءُ بنُ الحضرمىُّ إلى بلادِ البحرينِ لتبصيرِ أهلِها بشئونِ دينهم.

وجاءَ العامُ الحادىَ عشرَ للهجرة، فتوُفِّىَ رسولُ الله ﷺ ووليَ الخلافةَ أبُو بكرٍ الصديقُ ـ رضىَ اللهُ عنهُ ـ وارتدَّتْ بعضُ القبائلِ، وادَّعَى النبوةَ بعضُ الأشخاصِ، فأمرَ أبُوبكرٍ الصديقُ بقتالِ المُرتَدِّينَ. ووصلَ إلى البحرينِ جيشٌ بقيادة العَلاء بنِ الحَضْرَمىِّ.

دعَا المثنَّى بنُ حارثةَ الشيبانىُّ أهلَه من بَنى شيبانَ إلَى التمسُّك بالدِّين الحنيف، والدفاعِ عَنه، وكوّنَ المثنَّى جيشًا كبيرًا بلغَ عددُه ثمانيةَ آلاف مقاتلٍ، وانضمَّ إلى جيشِ العلاء بنِ الحضرمىِّ، وانتصرَ العلاءُ علَى المرتدينَ، وحاولَ المنهزمونَ الهروبَ عَن طريقِ الخليجِ، فنشرَ المثنَّى جنودَه علَى طولِ الساحلِ ليصدَّ الذينَ فرُّوا عَن الوصولِ

إلى الخَليجِ ، وفتَكَ بهم ، وكانَ المثنَّى يعلمُ أنَّ الفُرسَ يَدفعونَ الناسَ إلى الكُفرِ ، ويحاولونَ تقويتَهم حتَّى يرتَدُّوا عَن دينِ الإسلامِ .

كانَتْ فى قلوبِ العربِ رهبةٌ شديدةٌ من الفُرسِ . وكانَ مجرَّدُ التفكيرِ فى قتالِ الفرسِ يصيبُ البعضَ بالهَلَعِ . فيفضِّلُ أنْ يتركَ الأسدَ نائمًا لا يوقظُه .

وأنزلَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ سكينَتَه علَى المثنَّى ، واندفعَتْ فى قلبه رغبةٌ عارمةٌ فى الانتقامِ ممَّنْ ساعدُوا علَى الردَّةِ ، وتدفَّقَت الشجاعةُ فى عُروقه ، فسارَ بجيشه إلى القطيفِ وهَجَرَ ، وبلغَ مصبَّ دجْلةَ والفُرَاتِ ، وبذلكَ أصبحَ يهدِّدُ دولةَ الفرسِ التى كانتْ تساندُ المرتدِّينَ ، وتمكَّنُ المثنَّى مِن مقاومةِ دسائسِ الفرسِ ومِنَ القضاءِ علَى أنصارهم .

كانَ معَه أصحابُه يؤيِّدُونَه ويُطيعُونَ أوامرَه ، وكانَ معَه أخوَاه المُعَنَّى ومسعودٌ ، وكانتْ معَه زوجتُه سَلمَى بنتُ حَفْصةَ التى شاركتْه فى حروبِ الردَّةِ ، وحمَّسَتْه لدخولِ العراقِ ، وعاشتْ معَه حياتَه الحربيةَ بحُلْوِها ومُرِّهَا .

بدَأ المثنَّى بنُ حارثةَ الشيبانيُّ غاراته علَى مدينة دهشتاباذ أردشير ، وهيَ إحدَى المدنِ العتيقة فى فارسَ ، شنَّ غارات متتاليةً عليهَا حتَّى تمكَّنَ من دخولها فغنمَ منهَا أموالاً طائلةً وخرَّبَها ، فسمَّاهَا العربُ الخَريبةَ ، وبنَى المسلمونَ مدينةً مكانَها بعدَ ذلكَ .

سارَ المثنَّى إلى مدينة الأبلة ، وكانتْ فى موقعِ مدينة البَصرة الحاليَّة ، وجدَ المثنَّى بهَا قوةً فارسيةً كبيرةً ، فانتصرَ علَيها ، ثمَّ سارَ إلى الحيرة عاصمة دولة المَنَاذرَة التابعة للفُرسِ .

كانَ المثنَّى قدْ دخلَ أرضَ السَّواد . وأرضُ السواد يُقصَدُ بهَا أرضُ العراق ، وأسمَاهَا العربُ بهَذا الاسمِ لأنَّهم كانُوا إذَا خرَجُوا مِن صحرائهم القاحلة الصَّفْراء تقعُ عيونُهم علَى خُضرة الأشجار والزرعِ والنخيلِ ، فأطلقُوا علَيها أرضَ السوادِ لخضرتها . وكانَ العربُ يسمُّونَ الأخضرَ سَواداً ، والسَّوادَ أخضرَ .

كانتْ أرضُ السوادِ - أىْ العراقِ - مستعمَرَةً فارسيةً يقطنُها كثيرٌ من العربِ، وعلمَ المثنَّى بنُ حارثةَ الشيبانىُّ أنَّ العربَ هناكَ يعانونَ من ظلمِ الفرسِ، وهذه الأرضُ عربيةٌ يجبُ أنْ تكونَ تابعةً للعربِ وليسَ للفرسِ. لذلكَ قرَّرَ المثنَّى أنْ يعملَ علَى إنقاذها من يد الدولة الفارسية.

كانَ المثنَّى شُجاعًا قويًا بَطلاً، وآزَرَتْهُ بُطولةُ رجالِه، وحينَ وصلَ إلَى الحيرةِ وقعتْ مُناوَشاتٌ بينَه وبيَن حاميتها الفارسية وجنودهَا.

تقعُ الحيرةُ فى مكانٍ اسمُه النَّجفُ علَى ضفَّةِ نَهرِ الفُرَاتِ الغربيَّة، مَبانيهَا مُتَّسعةٌ، وتكْثُرُ فيهَا الحدائقُ والقُصورُ، وكانَ بجوارِها القَصرانِ الشَّهيرانِ الخَوَرْنَقُ والسديرُ.

كانَتْ الحيرةُ تقعُ علَى حُدودِ الباديةِ، واشتُهِرَتْ بصحَّةِ هوائها حتَّى قيلَ: يومٌ ولَيلةٌ فى الحيرة خيرٌ من دَواءِ سنة.

وقالُوا عَن تسمية الحيرة عدَّةَ آراء. قيلَ: سُمِّيَتْ الحيرةُ بمَعنَى الضَّلال؛ لأنَّ مَن بلغَ مَوضعَهَا ضلَّ دليلُه وتحَيَّرَ. وقيلَ إنَّها سُمِّيتْ بذلكَ لأنَّ مالكَ بنَ فَهْمٍ حينَ نزلَها جعلَها حيرًا، أىْ بُستانًا، وقيلَ سُمِّيَتْ الحيرةَ من الحوارِ، أىْ البَياضَ لبياضِ أبنيَتها، وقيلَ إنَّ لفظَها سرْيانىٌّ، معناهُ الحصنُ حولَه خَندقٌ.

تحدَّثَ المثنَّى بنُ حارثةَ الشيبانىُّ عَن الإسلامِ إلى قبائلِ العربِ التى تُقيمُ فى دلتَا نَهْرَىْ دجلةَ والفُراتِ وتعاهَدَ معَهُمْ.

سارَتْ أخبارُ المثنَّى بينَ القبائلِ فى جزيرةِ العربِ، وأخذُوا يَتناقلُونَ أنباءَ انتصاراته علَى قُوَّاتِ العَجَمِ، ووصَلَتْ تلكَ الأخبارُ إلَى أبى بكرٍ الصِّدِّيقِ - رضىَ اللهُ عنهُ - فسألَ مَنْ حَوْلَه عَن المُثنَّى قائلاً: مَنْ هذَا الذى تأتينَا أخبارُ وقائعه قبلَ معرفة نسبه؟ فأجابَه قيسُ بنُ عاصمِ بنِ سنان قائلاً: هَذا رجلٌ غيرُ خاملِ الذِّكرِ، ولاَ مَجْهولُ النسَبِ، ولاَ ذليلُ العمادِ.. هذَا المثنَّى بنُ حارثةَ الشَّيْبانىُّ.

أمرَ أبُو بكرٍ الصِّديقُ - رضيَ اللهُ عنهُ - أنْ يتحرَّكَ خالدُ بنُ الوليد بجيوشه من اليَمامة كَي يُعينَ المثنَّى فى حرْبه ضدَّ الفُرس، فسارَ خالدٌ إلَى بلاد العراق، وفى جيشه عددٌ من الأبطال العظام، منهُم القَعقاعُ بنُ عمرو التميميُّ علَى سبيل المثال، وكانَ خالدٌ قَد طلبَ من أبَى بكر مددًا، فلَم يُرسلْ إلَيه جَيْشًا، وإنَّمَا أرسَلَ إلَيه القَعْقاعَ، فسُئلَ: أتُمدُّهُ برجلٍ واحد؟

فقالَ أبُو بكر - رضيَ اللهُ عنهُ: لاَ يُهزَمُ جيشٌ فيه مثلُ هذَا.

فكأنَّ القعقاعَ بنَ عمرو التميميُّ جيشٌ بأكمله.

انسحبَ المثنَّى بنُ حارثَةَ الشيبانيُّ من عند الحيرة، ومَضَى إلَى موقعٍ قريبٍ من صحراء العرب اسمُه خَفّان، حتَّى يسيرَ إلى خالد بن الوليد - رضيَ اللهُ عنهُ - فورَ وصول أوامره إلَيه. ووصلَ خالدٌ بالفعل إلَى موضعٍ اسمُه النباجُ، وكتبَ إلى المثنَّى كَي يُوافيَه ومَن معَه.

وتجمَّعت الجيوشُ، كانَ معَ خالد عشرةُ آلاف، ومعَ المثنَّى ثمانيةُ آلاف، وصارت القيادةُ العُلْيَا لخالد بن الوليد. وانضمَّ المثنَّى إلَى صُفُوف المقاتلينَ جُنديًا مُطيعًا لقائده.

قسَّمَ خالدٌ جيشَهَ إلى ثلاثة فرَق، جعلَ قيادةَ الفرقة الأولَى للمُثَنَّى بن حارثةَ الشَّيبانيِّ وهيَ طليعةُ الجيوش، وجعلَ قيادةَ الفرقة الثانية لعَدىِّ بن حاتمٍ وعاصمِ بنِ عمرو، وقادَ خالدٌ الفرقةَ الثالثةَ.

قادَ خالدُ بنُ الوليد جيشَ المسلمينَ البالغَ ثمانيةَ عشرَ ألفًا، وقادَ هُرْمُزُ جيوشَ الفُرسِ التى تَزيدُ علَى ثلاثينَ ألْفًا.

كانَ هُرْمُزُ هُوَ حاميَ البلاد التى تُعَدُّ مفتاحَ فارسٍ، وكانَ من أسوَإ أمراءِ الفُرسِ مُعاملَةً للعرب؛ إذْ كانَ يقاتلُهُم فى كلِّ مكانٍ.

سارَ خالدٌ بجيشه، وبعثَ إلى هُرْمُزَ يدعُوهُ إلَى واحدة من ثلاث: الإسلامِ أو الجزْيَة أو القتال، فقالَ: أمَّا بعدُ. فأسلمْ تَسْلَمْ، أو اعتقدْ لنفسكَ وقومكَ الذِّمَّةَ وأقررْ بالجزية، وإلاَّ فَلاَ تَلُومَنَّ إلاَّ نفسَك.. فقد جئتُكَ بقومٍ يحبُّونَ الموتَ كمَا تُحبُّونَ الحياةَ.

ودارَت المعركةُ عندَ كاظمةَ، كانَ القتالُ عَنيفًا، وانتهَى بمَقْتَلِ هُرْمُزَ وفرارِ جيشه، فَانْطَلَقَ المثنَّى يُطاردُ الفارِّينَ.

وصلَتْ أخبارُ هَزيمة الفُرس إلى كسرَى أردشيرَ، ملك فارس، فجهَّزَ جَيشًا كَبيرًا بقيادة أحد أبطال الأمراء هُو قارنُ بنُ قريانسَ، وتقدَّمَ إلَى مكانٍ اسمُه المذارُ يقعُ بينَ البَصْرة وواسطَ. وهناكَ التقَى بفُلول الجيش المنهَزم فأعادَ تنظيمَها، وضمَّها إلَى جيشه وجعلَ قيادتَها لقباذَ وأنوشجانَ ابنَيْ الملك أردشيرَ.

كانَ المثنَّى بنُ حارثةَ الشيبانيُّ يطاردُ فُلولَ الجيشِ الفارسيِّ، وحينَ رأى تجمُّعَ جيوشهم عندَ المذار عسكرَ قريبًا منهُم، وبعثَ إلى خالد بن الوليد، الذى جاءَ مُسرعًا بجيشِ المسلمينَ، فوصلَ فى الوقت المناسب، ودارَتْ معركةٌ شرسةٌ، انتهَتْ بمقتَلِ قادة الفُرسِ الثلاثة قارنَ وقباذَ وأنوشجانَ، وبلغَ عددُ القتلَى من الفرسِ ثلاثينَ ألفًا، وفرَّتْ بقيةُ جيوشهم.

وواصلَ جيشُ المسلمينَ زحفَه، وخاضَ عدَّةَ معاركَ حتَّى وصلَ مرةً أخرَى إلَى الحيرة. وكانتْ قويةً حصينةً حاصرَها العربُ، ثمَّ دخلُوها، بعدَ أنْ عاهدَ رؤساءَهَا علَى الجزية، وأقامَ خالدٌ بالحيرة وجعلَها مركزَ قيادته.

وجدُوا بهَا كَثيرًا من حانات الخُمور، ووجدُوا خَلْقًا كَثيرًا لا يعرفُ معظمُهُم عَن الإسلامِ شَيئًا، كانَ خالدٌ والمثنَّى يعلمان أهميةَ مدينة الحيرة تمامَ العلم، لذلكَ اهتمَّا باستقرارِ حاميةٍ مسلمةٍ فيهَا، وانتشرَ الفُقهاءُ بينَ الأهالى يحدِّثُونَهم عَن الإسلامِ.

قالُوا لهُم إنَّ دينَ الإسلامِ يدعُو إلَى الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهْيِ عن المُنكَرِ، وأنَّه يدعُو إلَى مكارِمِ الأخلاقِ، ويُحَرِّمُ القتلَ والسرقةَ والمَيْسرَ والخمرَ والرِّبا والزِّنَا، ويُحَرِّمُ الخيانةَ والكَذِبَ وشهادةَ الزُّورِ، ويدعُو إلَى الأمانةِ والصدقِ وقولِ الحقِّ، هُوَ دينُ الرحمةِ والعدلِ.

بدَأَ أهلُ الحيرةِ يُنصتونَ إلَى مَا يقولُه الفُقهاءُ من أمورٍ فيهَا صلاحُ الدُّنيَا والآخرةِ، ثمَّ راقبُوا سلوكَ المسلمينَ وتصرفاتِهم، فوجدُوهُم نماذجَ رفيعةً لمَنْ يتحلَّى بالسُّلوكِ المستقيمِ والأخلاقِ الكريمةِ.

وبدَأَ أهلُ الحيرةِ يدخلُونَ في دينِ الإسلامِ، وارتفَعَ الأذانُ في جَنَبَاتِ المدينةِ، وتحسَّنَتْ أخلاقُ الناسِ، ورأَوْا أنَّ مَا عندَ اللهِ ـ سبحانَه وتعالَى ـ خيرٌ وأبقَى، حقًّا لَم يدخلْ آنَذَاكَ عددٌ كبيرٌ من أهلِ الحيرةِ في الإسلامِ، لكنَّ إسلامَ بعضِهم كانَ بدايةً وفاتحةَ خيرٍ، سجَّلتْ للحيرةِ أنَّها رأتْ في العامِ الثانيَ عشرَ للهجرةِ شمسَ الإسلامِ وهيَ تُشرقُ في البلادِ.

٢٢- اليرموك

اليَرْمُوكُ وادٍ بناحيةِ الشامِ ينتهي إلى نهرِ الأُرْدُنِّ، شَهِدَ موقعةً من أعظمِ المعاركِ، انتصرَ فيهَا المُسلمونَ علَى الرومِ، وكانَتْ هناكَ قوتانِ عظيمتانِ همَا الفرسُ والرومُ.

عقدَ أبُو بكرٍ الصديقُ لواءً لخالدِ بنِ سعيدِ بنِ العاصِ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ ووجَّهَه بجيشٍ كبيرٍ إلى بلادِ الشامِ، وأمرَه بأَنْ يعسكرَ في تَيْمَاءَ، وهُو بلدٌ في أطرافِ الشامِ، وانضمَّتْ إلَيه جموعٌ كثيرةٌ حينَ وصلَ إلى تيماءَ.

وسارَ خالدُ بنُ سعيدٍ حتَّى نزلَ القَسْطَلَ، وهُو بلدٌ في طريقِ البحرِ الميتِ. بينَما سارَتْ إلَيه جيوشُ الرومِ بقيادةِ باهانَ البطريقِ. وكتب خالدُ بنُ سعيدٍ بذلكَ إلَى أبي بكرٍ الصديقِ ـ رضيَ اللهُ عَنهُ ـ وطَلبَ منهُ المَدَدَ.

وصلَ في ذلكَ الوقت عكْرِمَةُ بنُ أبي جهل إلى بلاد الحجاز فيمَن كانَ معَه من جُند تهامةَ وعُمانَ والبَحرين، فأمرَهم الخليفةُ بالسَّيرِ إلَى بلَاد الشام ليكُونُوا مَدَدًا لخالد بن سعيد، وسارَ معَهم ذُو الكَلاَع بالجُند الذينَ صحبُوهُ من اليَمَن.

وجاءَت الأخبارُ إلى أبي بكر الصديق - رضيَ اللهُ عنهُ - بأنَّ الرومَ قَد جمعُوا جيوشَهم وعسكَرُوا في اليرموك. فكتبَ إلَى عمَّاله من أبطال العرب الذينَ تفرَّقُوا في القبائلِ لجمع صدقاتها، أمْثال عمرو بن العاص الذي ندَبَ الناسَ للقتال من قبائل سعد وعذرةَ وجذَام فتجمَّعَ معهَ خلقٌ كثير، وكذلكَ فعلَ الوليدُ بنُ عُقْبَة في قبيلة قُضَاعَةَ.

وأصدرَ أبو بكر أوامرَه. جعلَ عمرُو بنُ العاص أميرًا علَى جيش فلسطينَ. وجعلَ الوليدَ بنَ عُقْبَةَ أميرًا علَى جيش الأردنِّ. وجعلَ أبَا عبيدةَ بنَ الجراح أميرًا علَى جيش حمْص. وأعقبَ هؤلاء بيَزيدَ بنِ أبي سُفيانَ في جُند عظيمٍ. ثمَّ بعثَ إلَيهم بعدَ ذلكَ شُرَحْبيلَ بنَ حَسَنَةَ.

خرجَ القُوَّادُ بجيوشهم نحوَ الشام، وكانَ عكْرِمةُ في المُؤخِّرة ومعَه ستةُ آلاف، بينَما كانتْ جيوشُ المسلمينَ واحدًا وعشرينَ ألفًا، معَ كُلِّ قائد بضعةُ آلاف.

علمَ الرومُ بذلكَ فبعثُوا إلى هرَقْلَ ملك الروم الذي جاءَ إلى حمص، ووجَّهَ جيوشَه، فبعثَ جُيوشًا إلى الأماكن التي عسكرَتْ فيهَا جيوشُ المسلمينَ فنزلتْ بإزائها، وكانَ الفَرْقُ - في العَدد - شاسعًا بينَ جيوش العرب وجيوش الروم؛ فقَدْ كانَ أبُو عبيدةَ بنُ الجَرَّاح يواجهُ ستينَ ألفًا، بينَما كانَ عمرُو بنُ العاص يواجهُ تسعينَ ألفًا من مُقاتلي الروم الأشداء.

تشاورَ قادةُ المسلمينَ، وبعثُوا إلَى الخليفة يستشيرونَه، فاقترحَ عمرُو بنُ العَاص أنْ تتجمَّعَ جيوشُ العرب في جيشٍ واحد، واتَّفقُوا علَى التجمُّع في اليرموك، وبذلكَ جاءَ ردُّ الخليفة أيضًا.

عسـكَرَ العـربُ بإزاء الروم، وليسَ للروم طريقٌ إلاَّ علَيهم، فقالَ عمرُو بنُ العاص: أيُّها الناسُ أبشرُوا. . حُصرَت - والله - الرومُ، وقلَّمَا جاءَ محصورٌ بخير.

ظَلَّ العـربُ والرومُ مُتواجهيَن لمدة شَهريَن، فبعثُوا إلى الخليفة يطلبونَ المَدَدَ، حتَّى لاَ يَسْأمَ الجُندُ ويضعفُ إيمانُهُم بالنَّصر معَ طول الوقت.

فقـالَ أبُـو بكـرٍ رضـىَ اللهُ عَـنه: والله. . لأنْسِـيَنَّ الـرومَ وساوسَ الشيطانِ بخالد بن الوليد.

بعـثَ الخلـيفةُ إلى خـالد فـى الحـيرة يأمرُه بأنْ يتركَ نصفَ مَا معَه من جنود تحتَ قيادة المثـنَّى بـن حارثـةَ الشيبانىِّ بالحيرة، ويصحَبَ النصفَ الآخَرَ إلىَ اليرموك ليُعينَ جيشَ المسلمينَ فى حربه ضدَّ الروم.

فكّـرَ خالدٌ. . لَو سارَ بجيشه من الطريق المعروف فسوفَ يقفُ الرومُ بينَه وبينَ جيوش المسـلمينَ فلاَ يصلُ إلَيها، لذلكَ حينَ بلَغَ ماءَ قـُرَاقر أرادَ أنْ يقطَعَ الصحراءَ إلى سُوَى وهُو ماءٌ فى طريق الشام. وبذلكَ يُمْكنُه أنْ يصلَ من وراء جموع الروم.

فقـالَ لَـهُ كـلُّ مَـنْ معَـه: طـريقُ الصَـحراء هـذَا لاَ تسيرُ فيه الجيوشُ، ولا يَعبُرُهُ غيرُ الراكب الفَذِّ، فإيَّاكَ أنْ تُغَرِّرَ بالمسلمينَ.

فسـألَ خـالدٌ عَـن دليلٍ يعرفُ ذلكَ الطريقَ، فلَم يَجدْ غيرَ رجلٍ اسمُه رافعُ بنُ عُمَيْرَةَ الطَّائىُّ.

قـالَ رافـعٌ لخـالد بـن الوليد: إنَّكَ لَن تُطيقَ ذلكَ بالخَيل والأثقال، والله، إنَّ الرَّاكبَ الفَرْدَ لَيَخَافُهَا علَى نفسه، ومَا يَسْلُكُهَا إلاَ مُغَرَّرًا، إنَّها لَخَمْسُ لَيَالٍ لا يُصَابُ فيها ماءٌ مَعَ مَضَلَّتها.

إذنْ يمكـنُ أنْ يضـلَّ المسـافرُ فيهَا، وسيظلُّ الجيشُ يسيرُ فيهَا بلاَ ماء. . ومعَ ذلكَ قرَّرَ خالدُ بنُ الوليد أنْ يعبُرَهَا، حتَّى يصلَ فى وقتٍ سريعٍ إلىَ بلادِ الشامِ، وحتَّى لا يَمْنَعَه الرومُ من نَجْدَة المسلمينَ.

وقـفَ خالدُ بنُ الوليد بينَ جنوده وهتفَ فيهم قائلاً: لاَ يَخْتَلفَنَّ هَدْيُكُمْ، ولا يَضْعُفَنَّ يقينُكم، واعلمُوا أنَّ المعونـةَ تـأتى علَـى قَـدْر النية، والأجرُ علَى قدر الحسبة، وإنَّ المسلمَ لا ينـبغى لَـه أنْ يكترثَ بشىء يقعُ فيه مَعَ معونة الله لَه. حينذَاكَ تحمَّسَ الجنودُ ووافَقُـوا علَـى رأى خـالد، ولَـم يَجدْ رافعُ بنُ عُمَيْرَةَ بُدًا من الطاعة، فطلبَ عشرينَ جمـلاً سَـمينًا، فأظمَأهـا، فلمَا أجهدَها العطشُ أوردَها الماءَ مرةً بعدَ مرة حتَّى امتلأتْ بطونُها فقطعَ مشافرَهَا لئَلا تَجْتَرَّ.. وبدأت المسيرةُ.

أسـرعَ خـالدٌ بالخيول والأثقال، وكلَّما نزلَ منزلاً شقَّ بطنَ عدد من الإبل، وأخذَ مَا فى بطونها من ماء فسقَى به الخيلَ، وفعلَ ذلكَ أربعةَ أيام.

وكـانَ الجـنودُ يشربُونَ ممَّا حملُوه معَهم من ماء قُـرَاقر، فقدْ طلبَ منهم رافعُ بنُ عميرةَ أنْ يسـتكثرُوا منَ الماء، لدرجة أنَّه قالَ لَهُم: مَن استطاعَ منكُم أنْ يَصُرَّ أذن ناقته علَى ماء فليفعلْ.

وخشىَ خالدٌ علَى جنوده فى آخر يوم من المَفازة فقَد نفدَ مَا معَهُم من ماء، لكنَّ رافعًا شـجَّعَهم وقـالَ لَهم: أدركتُم الـرِّىَّ إنْ شاءَ اللهُ. وقالَ لهُم: ابحثُوا عَن جبلَين كأنَّهما ثَدْيَـان. فوجدُوهُمَـا، فقـالَ: انظُروا يَمينًا ويَساراً حتَّى تجدُوا عَوْسَجةً، وهىَ شجرةٌ كثيرةُ الشَّوْك.

قالُوا له: لا نَرَى أثَرًا لأية شجرة.

حينذَاكَ قالَ رافعٌ: إنَّا لله وإنَّا إلَيه راجعونَ، هلكْتُم ـ والله ـ وهلكتُ، انظرُوا جيِّدًا.

فسارُوا يبحثُونَ حولَ الجبلَين، فوجدُوا أصولَ الشجرة، أمَّا الشجرةُ نفسُها فلا وجودَ لهَـا، فقـالَ لَهـم: احفُرُوا حيثُ شئتُم فى ذلكَ الموضع، فحفرُوا.. فنبعَ الماءُ. وكبَّرَ المسلمونَ.. وارتَوَوْا.

قالَ رافعُ بنُ عميرةَ الطَّائيُّ لخالد بن الوليد : أيُّها الأميرُ . . والله ما وردْتُ هذَا الماءَ منذُ ثلاثينَ سنةً ، ومَا وردْتُه إلاَّ مرةً واحدةً وأنَا غلامٌ معَ أبى .

وسارَ خالدٌ بجيشه حتَّى وصلَ إلى سُوَى فأغارَ علَيه ثمَّ سارَ إلى مَرْجِ راهط فاكتسحَها ، ثمَّ إلى بُصْرَى فظفرَ بمَنْ بها ثمَّ صالحَهم . . ووصلَ إلى اليرموك .

هكَذا تجمَّعَتْ جيوشُ المسلمينَ فى اليرموك ، ولمْ يكُنْ لهَا أميرٌ مُعَّينٌ من قبَل الخليفة ، وإنَّمـا كـانَ هُـناكَ عددٌ من الأمراء : خالدُ بنُ الوليد ، وعمرُو بنُ العاص ، وأبُو عُبَيْدَةَ ابن الجَرَّاحِ ، والقَعْقَاعُ بنُ عَمرو التَّميميُّ . . وغيرُهم .

خرجَ الرومُ من خَندقهم ، كانُوا مائَتَىْ ألف مقاتلٍ ، وخرجَ العربُ وكانُوا يقتربونَ من الأربعينَ ألفًا ، فجعلُوا خالدَ بنَ الوليد أميرًا علَيهم ، فأمرَ خالدٌ بأنْ ينقسمَ الجيشُ إلَى ستة وثلاثـينَ فـرقةً ، كـلُّ فرقة تَزيدُ علَى الألف بقليلٍ ، وكانَ تقسيمُ الجيش إلى فرَق يُوهِـمُ بـأنَّ عـددَه أكـثرُ ممَّـا هُـوَ علَيه . وجعلَ أبَا عبيدةَ بنَ الجراحِ علَى قلب الجيش ، وجعـلَ عمرَو بنَ العاص على المَيْمنة ومعَه شُرَحْبيلُ بنُ حَسَنَةَ ، وعلَى المَيْسَرة يزيدَ بنَ أبـى سُـفيانَ وجعـلَ لكـلِّ فرقة رَئيسًا ، وكانَ علَى جَانبَىْ قلب الجيش عكْرِمَةُ بنُ أبى جهـلٍ والقَعقـاعُ بـنُ عمـرو ، وكـانَ القـتالُ يبدأ بتحرُّكهما ، وأمرَهُما خالدٌ بالحركة فالـتحَمَ الجيشان وتَطارَدَ الفُرسانُ ، وشبَّت المعركةُ محدودةً وكأنَّها اختبارٌ لقوة كلٍّ من الجيشين ، ثمَّ تراجعَ الفُرسانُ .

كانَ قائدُ طليعة جيوش الرومِ اسمُه جَرَجَةُ .

خـرجَ القـائدُ بـينَ الجيشينِ وطلبَ أنْ يخرُجَ لَه خالدُ بنُ الوليد ليتحدَّثَا ، علَى أنْ يؤمِّنَ كلٌّ منهُما الآخرَ .

خرجَ خالدٌ علَى جواده ، واقتربَ القائدان .

قـالَ جـرجةُ: يـا خالدُ اصدُقْنى ولا تكْذِبْنى؛ فإنَّ الحُرَّ لا يكذبُ، ولا تخادعْنى؛ فإنَّ الكـريمَ لا يخـادعُ. . بالله، هل أنزلَ اللهُ علَى نبيِّكُم سَيفًا من السماء فأعطاكَ إيَّاه، فلاَ تَسلـُّه علَى قوم إلا هزمتَهم؟ قالَ: لاَ. قالَ: فبمَ سُمـِّيتَ سَيفَ الله المسلولَ؟ قالَ: إنَّ اللهَ ـ عـزَّ وجـلَّ ـ بعـثَ فيـنَا نبيَّهﷺ فدعَانَا فنفَرْنَا، ونأيْنَا عنه جَميعًا، ثمَّ إنَّ بعضَنا صـدَّقَه وتابَعَـه، وبعضَـنا بـاعدَهُ وكذَّبَه، فكنتُ فيمَن كذَّبَه وباعدَهُ وقاتَله، ثمَّ إنَّ اللهَ أخذَ بقلوبنا ونَواصينَا، فهدَانَا به فتابَعْناهُ، فقالَ ﷺ: أَنْتَ سيفُ من سيوف الله، سلَّهُ اللهُ علَى المشركينَ، ودعَا لى بالنصر، فسُمِّيتُ سَيفَ الله بذلكَ، فأنَا من أشدِّ المسلمينَ علَى المُشركينَ. قالَ: صدَقْتَنى.

ثمَّ قالَ جرجةُ: يا خالدُ أخبرْنى. . إلاَمَ تَدعُوننى؟ قالَ: إلَى شهادة ألاَّ إلهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، والإقرار بمَا جاءَ به من عنْد الله. قالَ: فمَنْ لَمْ يُجبْكُمْ؟ قالَ: فالجزْيَةُ، ونَمْنَعُهم (أىْ نَحميهم)، قالَ: فإنْ لم يُعْطهَا؟ قالَ: نُؤْذنْه بحرب ثمَّ نقاتلْه.

قـالَ جرجةُ: فمَا مَنزلةُ الذى يَدخُلُ فيكُمْ ويُجيبُكم إلَى هذَا الأمر اليومَ؟ قالَ: مَنزلَتُنَا واحدةٌ فيمَا افترضَ اللهُ علَينا، شَريفُنَا ووَضيعُنا، وأوَّلُنا وآخرُنا.

قـالَ جرجةُ: هَلْ لمَنْ دخلَ فيكُم اليومَ يا خالدُ مثلُ مَا لكُم من الأجر والذُّخْر؟ قالَ: نعَـمْ. . وأفضلُ. قالَ: وكيفَ يُساويكُم وقَد سبقتُمُوه؟ قالَ خالدٌ: إنَّا دخلْنا فى هذَا الأمـر وبايَعْـنا نبيَّـنا ﷺ وهُوَ حَىٌّ بَينَ أظْهُرنا، تأتيه أخبارُ السماء، ويُخْبرُنا بالكتب، ويُريـنَا الآيـات، وحُـقَّ لمَـنْ يَـرَى مَا رَأيْنَا ويَسمعُ ما سَمعْنَا أنْ يُسْلمَ ويُبايعَ، وإنَّكم أنـتُم لـَم تَـرَوْا مَا رَأيْنَا، ولَم تَسْمَعُوا ما سَمعْنَا من العجائب والحُجَج، فمَن دخلَ فى هذَا الأمر بحقيقة ونية كانَ أفضلَ منَّا.

قالَ جرجةُ: بالله لقَدْ صدَقْتَنى، ولمْ تُخَادعْنى؟ قالَ: بالله قَد صدقتُكَ، ومَا بى إلَيكَ ولاَ إلَى أحد منكُم وَحشةٌ، وإنَّ اللهَ لَوَلىٌّ مَا سألتَ عَنه.

قالَ: صَدَقْتَنى. ثمَّ قالَ لخالد: علـِّمْنى الإسلامَ.

اصـطَحَبَه خـالدُ بـنُ الولـيدِ إلى خَيمـتِه، فصـبَّ علَـيه قِربةً مِن ماءٍ، ثمَّ صلَّى جرجةُ ركعتَين.

وهجـمَ الـرومُ علَـى المسـلمينَ، ثـمَّ تراجعَ الرومُ إلى مواقعهم، فهجمَ خالدٌ وبجواره جـرجةُ، وهجـمَ العربُ علَى الرومِ كانتْ ساحةُ القتال واسعةً، ولكنَّ مكانَ الهُروب ضيِّقٌ، وتضايَقَتْ خيلُ الرومِ، وأرادَ الفُرسانُ الهروبَ، فأفسحَ المسلمونَ مكانًا تخرُجُ منهُ خـيلُ الـرومِ، فخـرَجَ الفرسـانُ إلى الصـحراء فتفرَّقُوا فيهَا، وهجَمَ خالدٌ هجمةً رهيـبةً علَـى مُشـاةِ الـرومِ، فشـعَرُوا كأنَّ جبلاً هوَى علَيهم، فانسحبُوا إلى خَندَقِهم، فاقـتحَمَه علَـيهم، وظلَّ القتالُ دائرًا إلى الليلِ، فقتلَ مِن الرومِ أكثرَ مِن مائة وعشرينَ ألفًا.

وهكَـذا انهزمَتِ الرُّومُ، وظلَّتْ موقعةُ اليَرموك صفحةً مُضيئةً فى تاريخِ العَربِ، فَقَدْ أدَّى انتصارُ المسلمينَ فِيها إلى فَتحِ البَابِ أمَامَ أهلِ الشَّامِ للدخولِ فى دينِ الإسلامِ.

٢٣- القادسية

انكسـرتْ شَـوْكةُ الفُـرسِ فِـى مَوقِعـةِ القَادسيةِ كمَا انكسرتْ شوكةُ الرومِ فى موقعةِ اليرموك.

وتَقَـعُ القادسيَّةُ علَى حُدود العراق الجنوبية علَى مشَارف صحراء شبه جزيرة العَربِ. وهـىَ بَلـدةٌ حصـينةٌ، شـرقُها مَحْمـىٌّ مِـن جهة نَهر الفُرات، وفى شَمالها نهرٌ صغيرٌ مـتفرِّعٌ مِـن الفُـرات اسمُـه العَتـيقُ، وفـى جنوبها خَندَقٌ عميقٌ حَفَرَهُ الملكُ الفارسىُّ سـابورُ لـيكونَ حاجـزًا بيـنَه وبينَ بَدو الصحراء، أمَّا غربُها فيطلُّ علَى الصحراء التى يمكـنُ أنْ يجـىءَ المددُ لجيُوشِ المسلمينَ عَن طريقها مِن بلاد الحجازِ أوْ مِن بلادِ الشامِ،

كمَا تسمحُ بالانسحاب المنظَّمِ إذَا ساءت الأحوالُ. وفي تلكَ البلدة جرتْ معركةُ القادسية الشهيرةُ سنةَ ١٤هـ.

كانَ للمعركة مقدماتٌ. فَزِعَ الفارسيُّونَ من الانتصارات المُتلاحقة التي يحقِّقُها المثنَّى ابنُ حارثةَ الشيبانيُّ، خاصةً بعدَ الهزيمة القاسية التي نزلتْ بهم في موقعة البُوَيْب.

تجمَّعُوا عندَ القائدَين المُتنازعَين رُسْتَمَ بنُ هُرْمُزْدَ والفَيْرُزَان، وقالُوا لَهما إنَّ صراعَهما هُوَ السببُ في ضَعف أمة الفُرس، وهدَّدوهُما بالقتل إنْ لَم يتعاونَا علَى إنقاذ البلاد منَ المثنَّى وجيشه الذي يجوسُ في الُمدُن والقُرَى.

بحثَ القائدان عَن نساء آل كسْرَى وجواريهم، حتَّى استدلاَّ علَى ولد وحيد باق من سُلالة كسرَى هُو يَزْدجرْدُ بنُ شَهْريارَ بن كسرَى، وكانَ عمرُه واحدًا وعشرينَ عامًا، ففرحَ الفرسُ بذلكَ، فأتَوا به، وملَّكوه، وتبارَوا في طاعته، وطلبُوا منه تخليصَ البلاد من المثنَّى وجيشه، الذي كسرَ رهبةَ الفرس في نفوس العرب بانتصاراته المتتالية. وأعلنَ كسرَى يَزدجردُ أنَّه سوفَ يسحقُ المثنَّى، وسوفَ يؤدِّبُ العربَ.

حينذاكَ كفرَ أهلُ البلاد التي فتحَها المسلمونَ في العراق، سواءً مَن كانَ لَه عهدٌ، ومَن لَم يكنْ لَه عهدٌ، فخرجَ المثنَّى بجيشه إلى جنوب العراق، فنزلَ عندَ ماء ذي قار، وهيَ بئرُ ماء لبكر بن وائل قريبةٌ من الكُوفة، وبعثَ إلى الخليفة عمرَ بن الخطاب ـ رضيَ الله عنهُ ـ ينبئُهُ بمَا كانَ.

وجاءَ ردُّ الخليفة يأمرُ المثنَّى بالخروج من وسط العجم، وأنْ يدعوَ أهلَ النَّجدات من قبائلِ ربيعةَ ومُضَرَ وحلفائهم، وأنْ ينزلُوا في أماكن المياه علَى حدود شبْه جزيرة العرب والعراق. وتجمَّعَ الفُرسانُ العربُ بالفعلِ علَى طول الحُدود الجنوبية لبلاد العراق.

أدركَ عمـرُ بـنُ الخطـاب ـ رضىَ اللّه عنهُ ـ أنَّها حربٌ مصيريةٌ، لذلكَ بعثَ إلى عُمَّاله فـى مختلف الـبلاد يقـولُ: لا تدعَـوا أحـدًا لـه سلاحٌ أو فرَسٌ أو نَجدةٌ أو رأىٌ، إلاَّ انتخَبْتُمُوهُ، ثمَّ وجَّهْتُمُوهُ إلىَّ، والعَجَلَ العَجَلَ.

تجمَّعَـتْ ألـوفٌ مـن أعظمِ فرسانِ العربِ، ومَن كانَ قريبًا من العراق انضمَّ إلَى المثنَّى مباشرةً. واستقرَّ الرأىُ علَى عدمِ خروجِ الخليفة. فقالَ: فأشيرُوا علىَّ برجلٍ.

فـى تلـكَ الـلحظة وصـلَ كتابٌ من سعد بن أبى وَقَّاصٍ ـ وكانَ مَسئولاً عن صدقات قبـيلة هَـوازنَ ـ فقـالَ إنَّـه انتخبَ ألفَ فارسٍ ذَوِى نَجدة من أبطالِ هوازنَ وبعثَ بهم للخليفة.

فقالَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوف: قَد وجدتَه؟ سألَه عمرُ: مَن؟ فأجابَ: الأسدُ فى براثنه، سعدُ بنُ أبى وقاصٍ بنِ مالكٍ بن وهبٍ.

ووافقَ الجميعُ علَى رأىِ عبد الرحمنِ بن عَوْف ـ رضىَ اللهُ عنهُ ـ وبعثَ عمرُ إلى سعد، فقدمَ إلى المدينة، حيثُ جعلَه الخليفةُ أميرًا علَى جيوشِ العراقِ.

كـانَ سـعدُ بـنُ أبى وقاصٍ من بَنى زهرةَ أخوالِ النبىِّ ﷺ، وكانَ من أسبق قريشٍ إلَى الإسلام، وهوَ واحدٌ من العشرة المبشَّرينَ بالَجنَّة.

وقَـدْ أوصـاهُ عمـرُ ـ رضـىَ اللهُ عـنهُ ـ فقـالَ: يا سعدُ لا يَغُرَّنَّكَ منَ الله أنْ قيلَ: خالُ رسـول الله ﷺ وصـاحبُه، فـإنَّ اللهَ ـ عـزَّ وجـلَّ ـ لا يمحُو السَّيِّئَ بالسَّيِّئِ، ولكنَّه يمحُو السيِّئَ بالَحَسن؛ فإنَّ اللهَ ليسَ بينَه وبينَ أحد نسبٌ إلا طاعتُه، شريفُهم ووضيعُهم فى ذات الله سَـواءٌ، اللهُ ربُّهُـم وهُـم عـبادُه، يتفاضَـلونَ بالعاقـبة، ويُدركُـونَ مَا عندَ الله بالطاعَـة، فانظـرِ الأمرَ الذى رأيتَ النبىَّ ﷺ عليه منذُ بُعث إلَى أنْ فارقَنَا فالزَ

ولَمَّا حانَ موعدُ خروجِ سعد إلى العراق قالَ له عمرُ: إنِّى وَلَّيْتُكَ حربَ العراق فاحفظْ وصيَّتى، فإنَّكَ تُقْدِمُ علَى أمرٍ كريه شديد، لا يخلصُ منه إلا الحقُّ، فعوِّدْ نفسَك ومَن معَكَ الخيرَ واستفتحْ به، واعلمْ أنَّ لكلِّ عادة عَتادًا، فعتادُ الخير الصبرُ، فالصبرَ الصبرَ علَى ما أصابَك أو نابَك، يجتمعُ لكَ خشيةُ الله. واعلمْ أنَّ خشيةَ الله تجتمعُ فى أمرَين: فى طاعته، وفى اجتناب معصيته، وإنَّما أطاعَه مَن أطاعَه ببغضِ الدنيَا وحبِّ الآخرة، وعصَاه مَن عصاهُ بحبِّ الدنيَا وبُغض الآخرة، وللقلوب حقائقُ ينشئُها اللهُ إنشاءً، منها السرُّ ومنها العلانيةُ، فأمَّا العلانيةُ فأنْ يكونَ حامدُه وذامُّه فى الحقِّ سواءً، وأمَّا السرُّ فيُعرَفُ بظُهور الحكمة من قلبه علَى لسانه وبمحبة الناس، فلاَ تزهدْ فى التحبُّب؛ فإنَّ النبيِّينَ قدْ سألُوا محبَّتهم، وإنَّ اللهَ إذَا أحبَّ عبدًا حبَّبه، وإذَا أبغضَ عَبدًا بغَّضَه، فاعتبرْ منزلتَكَ عندَ الله - تعالَى - بمنزلتكَ عندَ الناس ممَّنْ يشرعُ معَك فى عملك.

كانَ عمرُ - رضىَ اللهُ عنهُ - يعلمُ أنَّ المسلمينَ ذاهبونَ لقتال أمة متقدمة، لدَيها علماءُ وأدباءُ وفلاسفةٌ، فقالَ: والله.. لأضربَنَّ ملوكَ العجم بملوك العرب.

ولمْ يَدَعْ رئيسًا ولاَ ذَا رأى ولاَ ذَا شرف ولاَ ذَا سُلْطة، ولا خَطيبًا ولاَ شاعرًا إلاَّ بعثَ به ليكونَ من رجالِ سعد بنِ أبى وقاص.

سارتْ جيوشُ المسلمينَ حتَّى وصلتْ إلى بَلدة شرافَ، وعندَها ماءٌ، وهىَ فى بلاد نجد، وهناكَ جاءَ إلَيه المُعَنَّى، أخُو المثنَّى بنُ حارثةَ الشيبانىِّ، ومعَه سَلمَى بنتُ حفصةَ التيميةُ أرملةُ المثنَّى، فأخبرَهُ بوفاة البطلِ المغْوَار متأثِّرًا بجُرْحٍ سابق، وحملَ لسعد وصيةَ المثنَّى إلَيه، وملخَّصُها ألاَّ يقاتلَ الفرسَ فى عُقْر دارهم إذَا جمعُوا جيوشَهم، بلْ يكونَ علَى حدود العراق حتَّى يمكنَه التقدمُ إذَا انتصرَ، ويمكنَه الرجوعُ إذَا كانَت الأخرَى، كىْ يعيدَ تنظيمَ صفوفه ويُعيدَ الكرَّةَ علَيهم.

تـرحَّمَ سـعدٌ كثيرًا على المثنَّى، وجعلَ المُعَنَّى مكانَه، وأوصَى بأهلِ بيت المثنَّى خَيرًا، وخطبَ سلمَى فتزوَّجَها إكرامًا للمثنَّى.

وبعـثَ سـعدٌ إلى عمـرَ يستشـيرُه، فجـاءَ ردُّهُ بمـثلِ مـا أوصَى به المثنَّى، وأمرَ عمرُ أنْ تـتجمَّعَ الجـيوشُ فـى بلدة القادسية. ونظمَ سعدٌ جيشَه وعيَّنَ القادةَ والعُرَفاءَ، وسارَ إلى القادسيَّة.

أقـامَ سـعدٌ بالقادسـيةِ شـهرًا ولـم يوجِّـهْ إلَـيه الفرسُ أحدًا من جُنودهم أو جَيشًا من جيوشـهم. فـأخذَ بعـضُ المسـلمينَ يغـيرُ علَى مَا حولَهم. وأمرَه عمرُ بأنْ يبعثَ إلَى كسرَى مَن يدعُوه إلى الإسلام.

كانـت الرسـائلُ ذاهـبةً آتيةً بينَ القادسية والمدينة المنورة، وكانَ سعدٌ يكتبُ رسالةً كلَّ يومٍ إلَى عمرَ يُخْبِرُه فيها بمَا يحدُثُ، فيردُّ علَيه عمرُ بما يراهُ.

بعـثَ سـعدٌ رجـالاً لهُـم مـنظَرٌ وعلَيهم مهابةٌ ولَهم آراءُ واجتهادٌ، فمضَوْا إلى المدائنِ عاصـمة مُلك كسرَى، فلمَّا دخلُوا علَيه، جعلَ يزدجردُ بينَه وبينَهم مَن يُترجمُ كلامَه لُهـم وكلامَهـم لَـه، فقالَ كسرَى: سَلْهُم مَا جاءَ بكُم؟ ومَا دعاكُم إلى غَزْونا والولوعِ ببلادنا؟ أمِنْ أجلِ أنَّنا أرحْناكُم، وانصرفْنَا عنكُم، وتشاغَلْنا عنكُم اجترأتُم علَينا؟

فـتكلَّم الـنُّعمانُ بـنُ مُقَـرِّنٍ قائلاً: إنَّ اللهَ رحمَنا، فأرسلَ إلينَا رَسولاً يدلُّنا علَى الخيرِ ويأمـرُنَا بـه، ويعرِّفُنا الشرَّ وينهانا عَنه، ووعدَنا علَى إجابته خيرَ الدنيَا والآخرة، فلَم يَـدْعُ إلَـى ذلـكَ قبيلةً إلا صارتْ فرقَتين: فرقةٌ تقاربُهُ، وفرقةٌ تباعدُه، ولا يدخلُ معَه فـى ديـنه إلا الخـواصُّ، فمكَـثَ بذلـكَ مَا شاءَ اللهُ لَه أنْ يمكُثَ، ثمَّ أمرَ بأنْ يقاتلَ مَن خالفَه من العربِ وأنْ يبدأَ بهم، فدخلُوا جميعًا معَه علَى وجهَين: مُكْرَه علَيه فاغتبطَ، وطـائعٍ أتـاهُ فـازدادَ، فعرفْـنَا جمـيعًا فضـلَ مَـا جاءَ به علَى الذى كنَّا علَيه من العداوة والضـيقِ، ثـمَّ أمـرَنا بـأنْ نـبدأَ بمَـنْ يَلِيـنَا مِن الأمَمِ، فندعُوهم إلى الإنصاف، فنحنُ

ندعوكم إلى ديننا، وهوَ دينٌ حسَّن الحسنَ، وقبَّحَ القبيحَ كلَّه، فإنْ أَبَيْتُمْ فالجزيةُ، فإنْ أبيتُم فالقتالُ. . أمَّا إنْ أجبتُم إلى ديننا خلَّفنا فيكُم كتابَ الله وأقمنَاكُم علَيه، علَى أنْ تحكمُوا بأحكامه، ونَرجعُ عنكُم، وشأنكم وبلادكم، وإنْ اتَّقَيْتُمُونَا بالجزية قَبِلْنَا وحَمَيْناكُم. . وإلاَّ قاتلنَاكُم.

فقالَ يزدجردُ: إنِّى لا أعلمُ فِى الأرضِ أمةً كانتْ أشقَى ولاَ أقلَّ عَددًا ولاَ أسوأَ ذات بَيْنِ منكُم، قَد كنَّا نُوكِّلُ بكُم قُرَى الضَّواحى فيكفونَنَا غاراتكم، لا تغزوكُم فارسٌ، ولا تطمَعُونَ أنْ تقومُوا لَها، فإنْ كانَ غرورٌ لَحقكُمْ فَلاَ يغرنَّكُم منَّا، وإنْ كانَ الجَهْدُ والفقرُ دعاكُم إلَى ما فعلتُم فَرَضْنا لكُم قُوتًا إلى خصْبكُمْ، وأكرمْنَا وجوهكم ورءوسكم، وكسَوْنَاكُم، وملَّكْنَا علَيكُم مَلكًا يَرْفُقُ بكُم.

صمَتَ الجميعُ. . فهبَّ المُغيرةُ بنُ زُرَارةَ واقفًا وقالَ: أيُّهَا الملكُ، إنَّ هؤلاء رءوسُ العربِ ووجوهُهم، وهُم أشرافٌ يَسْتَحيُونَ من الأشراف، وإنَّمَا يُكرمُ الأشرافَ الأشرافُ، ويُعَظِّمُ حقوقَ الأشراف الأشرافُ، ويُفَخِّمُ الأشرافَ الأشرافُ، وليسَ كلُّ مَا أرسلُوا به جمعُوهُ لَكَ، ولاَ كلُّ مَا تكلَّمتَ به أجابوكَ علَيه، وقَد أحسنُوا. . ولا يحسُنُ بمثلهم إلاَّ ذلكَ، فجاوبْنى لأكونَ الذى أبلغَكَ، ويَشهدُونَ علَى ذلكَ. إنَّكَ وصفْتَنَا صفةً لَم تكنْ عالمًا بهَا.

هَمْهَمَ الفُرسُ الموجودونَ فى مَجلسِ كسرَى، وتَمَلْمَلُوا ممَّا قالَه المغيرةُ بنُ زُرارةَ، الذى واصَلَ حديثَه قائلاً:

فأمَّا مَا ذكرتَ من سوء الحال، فمَا كانَ أحدٌ أسوأَ حالاً منَّا، وأمَّا جُوعُنا فلَم يكنْ يُشبهُ الجوعَ، كنَّا نأكلُ الخنافسَ والعقاربَ والحيَّات فنرَى ذَلكَ طعامَنا، وأمَّا منازلُنا فإنَّما هىَ ظهرُ الأرضِ، ولاَ نَلبسُ إلاَّ مَا غزَلْنَا من أَوْبار الإبلِ وأشعار الغنم، شأنُنا أنْ يقتلَ بعضُنا بعضًا، ويُغيرُ بعضُنا علَى بعضٍ، وكانَ منَّا مَن يدفنُ ابنتَه وهىَ حيةٌ

كراهـيةَ أنْ تـأكلَ مـن طعامنا، فكانَتْ حالُنا قبلَ اليوم علَى ما ذكرتُ لكَ. فبعثَ اللهُ فينَا رَجُلاً مَعروفًا، نعرفُ نسبَه، ونعرفُ وجهَه ومولدَه، فأرضُه خيرُ أرضنا، وحسبُه خـيرُ أحسـابنا، وبيـتُه أعظـمُ بيوتـنا، وقبيلتُه خيرُ قبيلتنا، وهُوَ بنفسه كانَ خيرَنَا فى الحال التى كانَ فيها، أصدقَنا وأحلَمَنا. فدعَا إلى أمر فلَم يُجبْ غيرُ صديق لَه، وكانَ الخلـيفةَ مـن بعـده. فقـالَ وقلْـنَا، وصـدَّقَ وكذَّبْنَا، وزادَ ونقصْنَا، فلمْ يقُلْ شيئًا إلاَّ كـانَ، فقذفَ اللهُ فى قلوبنا التصديقَ لَه واتّباعَه، فصارَ فيمَا بينَنا وبينَ ربِّ العالَمينَ، فمَـا قـالَ لَـنا فهُوَ قولُ الله، وما أمرَنا فهُو أمرُ الله، قالَ لَنا إنَّ ربَّكُم يقولُ: إنِّى أنَا اللهُ وَحـدى لاَ شَـريكَ لـى، كَنـتُ إذْ لَـم يكنْ شىءٌ، وكلُّ شىء هالكٌ إلا وَجهى، وأنَا خلقْـتُ كـلَّ شـىء، وإلَىَّ يصيرُ كلُّ شىء، وإنَّ رحمتى أدركَتْكُمْ، فبعثتُ إلَيكُم هذَا الـرجلَ لأدلَّكُـم علَى السبيل التى بها أنجيكُم بعدَ الموت من عذابى، ولأحلَّكُمْ دارى دارَ السـلام، فنشـهدُ علَـيه أنَّه جاءَ بالحَقِّ من عند الحقِّ، وقالَ: مَن تابعكُم علَى هذَا فلَـه مَـا لكُـم وعلَـيه مـا علَـيكم، ومَـن أبَـى فأعرضُوا عليه الجزْيَةَ، ثمَّ امنَعُوهُم ممَّا تَمْـنَعونَ مـنْهُ أنفسَـكُم، ومَن أبَى فقاتلُوهُ، فأنَا الحَكَمُ بينكم، فمَن قُتلَ منكُم أدخلْتُه جَنَّـتى، ومَـن بقىَ منكُم أعقَبتُه النصرَ علَى مَن عاداه. فاخترْ إنْ شئْتَ الجزيةَ وعَنْ يَد وأنتَ صاغرٌ ذَليلٌ، وإنْ شئتَ فالسَّيفُ، أو تُسْلمْ فتُنجى نَفسَكَ.

كـادَ كسـرَى يَزدجـردُ يـنفجرُ غَيظًا. وقالَ للمغيرة: أتستقبلُنى بمثل هذَا؟ (أىْ أتقولُ مثلَ هذَا الكلام فى وجَهى؟)، لَوْلاَ أنَّ الرُّسُلَ لاَ تُقتَلُ لقتلتُكم، لا شَىءَ لكُم عندى.

وأمـرَ كسـرَى مَـنْ حَولَـه بإحضار حمْل ثقيل من التراب ليَجعلَ أشرفَهم يحملُه علَى عنُقه، ويسوقُوه حتَّى يخرُجَ من بابَ المدائن وهُوَ يحملُ الترابَ.

وقـالَ كسـرَى: أعلمُـوا صـاحبكم أنِّى مرسـلٌ إلَيكم رسْتُمَ حتَّى يقتلَه ويقتلكم فى خنْدَق القادسية، ويُنكِّلَ به وبكُم بعدَ ذلكَ، ثمَّ أطلقُه فى بلادكم، حتَّى أشغلكم فى أنفسكم بأشدَّ ممَّا نابكم من سابورَ.

وادَّعَى عاصمُ بنُ عمرو أنَّه أشرفُ القومِ، وحملَ الترابَ وأسرعَ به من الإيوان، حتَّى خرجَ من بابِ المدائنِ، فوضعَه علَى راحلته، وأسرعَ به هُو وأصحابُه حتَّى وصلَ إلَى سعد بنِ أبي وقاصٍ في القادسيةِ، وأخبرُوهُ بما كانَ، فقالَ سعدٌ: أبشرُوا.. فقَدْ أعطَانَا اللهُ مَفاتيحَ مُلكهم.

عادَ رستمُ من ساباطَ إلَى المدائنِ مسرعًا، فأخبرَه كسرَى يزدجردُ بمَا جرَى، وكانَ رستمُ حكيمًا، وعلمَ أنَّ المسلمينَ إذَا خرجُوا بهذَا الترابِ إلى القادسية فسوفَ يضيعُ مُلكُ فارسٍ، وأطلقَ فُرْسَانَه فى أثَرِ الوفدِ، لكنَّهُم لَم يُدْرِكُوهُ، فقالَ رستمُ: ذهبَ القومُ بأرضِكم دونَ شكٍّ.

وأصدرَ كسرَى يزدجردُ أوامرَه إلى رستمَ كىْ يَسيرَ بالجيوشِ إلى القادسيةِ، سارَ رستمُ علَى مَهَلٍ، فقدْ نظرَ فى النجومِ وظنَّ أنَّ النصرَ للمسلمينَ، وهاجَمَتْه الكوابيسُ المزعجةُ، فظلَّ يتباطأُ لمدة أربعةِ شهور؛ لعلَّ المسلمينَ يَسأمونَ ويعودُونَ إلى بلادهم. لكنَّ هذَا لَمْ يَحدُثْ، وكانَ سعدٌ يأمرُ جنودَه بالإغارة علَى الأماكنِ المجاورة، ويأمرُهم بتبديلِ مَواقعِهم فى المعسكرِ، وبذلكَ جعلَهُم فى حركة دائمة حتَّى لاَ يتسرَّبَ المللُ إلى قلوبهم، ومن ناحية أخرَى كانَ كسرَى يتعجَّلُ رستمَ.

لَمْ يَجدْ رستُمُ بُدًا منَ الذَّهابِ إلى القادسية فسار إلَى النجف، ثمَّ سارَ إلى نهرِ العتيقِ، وسارَ بجواره حتَّى بلغَ خَفَّانَ، ثمَّ طلعَ موضعًا يُشرفُ منه علَى جيوشِ المسلمينَ.

أرادَ رستمُ أنْ يؤجِّلَ القتالَ، فبعثَ إلَى سعد كَى يرسلَ لَه بعضَ رجاله يتحدثُ إلَيهم، فبعثَ لَه ودارَ حديثٌ بينَه وبينَهم مثلَما دارَ بينَ كسرَى والوفدِ الذى ذهبَ إلَيه.

ظلَّتْ الوفودُ ذاهبةً عائدةً. وفشلَت المفاوضاتُ، وتأهَّبَ الفريقانِ للحربِ.

أ ـ يوم أرماث

كـانَ جـيشُ الفـرسِ مائـةً وعشرينَ ألفَ مقاتلٍ، منهُم ثلاثونَ ألفًا قـيِّـدُوا بالسلاسلِ حـتَّى لا يهـربُوا مـن سـاحة القـتال، وكانَ المددُ الذى ينتظرُ الإشارةَ لينضمَّ إلى جيشِ الفرسِ مائةً وعشرينَ ألفًا آخرينَ.

بـاتَ الفـرسُ يردمُونَ فمَ نهرَ العتيقِ بالترابِ والقصبِ والبراذعِ حتَّى الصباحِ، إلَى أنْ جعلُوهُ طريقًا عبرُوه إلى القادسيةِ، ونظمُوا صفوفَهُم.

ونظمَ المسلمونَ صفوفَهم فِى مواجهتهم، وفوجئَ العربُ بمشكلة، لقَد أصابَ المرضُ سـعدَ بـنَ أبى وقاصٍ، أصيبَ بعرْقِ النَّسَا، وامتَلأ فَخذَاهُ بالدَّماملِ فعجزَ عَن ركوبِ الفـرسِ، وبالـتالى لَـم يكـنْ باسـتطاعته المشـاركةُ فِى القتال، فولَّى مكانَه علَى قيادة الجيشِ خالدَ بنَ عُرْفُطَةَ وأمرَ الجندَ بطاعته؛ لأنَّه يتلقَّى أوامرَه من سعد، وانبطحَ سعدٌ علَى بطنه وتحتَ صدره وسادةٌ فِى نافذة القصرِ، يتابعُ المعركةَ ويصدرُ أوامرَه.

كـبَّرَ سـعدٌ مـرتَّين وكـبَّرَ المسلمونَ، فلمَّا كبَّرَ الثالثةَ كبّرُوا وهجمَ فُرسانُ العربِ وبدأَ القـتالُ بينَهم وبينَ فرسانِ الفرسِ، فلمَّا كبّرَ سعدٌ الرابعةَ كانتْ إيذانًا بالزحفِ العامِ، فهجمَ جيشُ المسلمينَ علَى الفرسِ.

كـانَ فـى جيشِ رستمَ ٣٣ فيلاً، منها ١٨ فيلاً فى القَلْب، وفرَّقَ الباقىَ علَى الجَناحَين الأيمـنِ والأيسـرِ. وبـدأتْ المعركةُ فاصطدمَتْ صفوفُ المسلمينَ بالفرسِ صدمةً هائلةً ودارَ القـتالُ، ولكـنْ مـا كـادتْ خـيولُ العـربِ تلـتقى بالفـيَلة حـتَّى نفـرت الخيولُ وتفرقـتْ، فـأطلقَ الفرسُ أفيالَهم علَى ميمنة جيشِ المسلمينَ وميسرته، فأطلقَ الرماةُ نـبالَهم لكنَّها لَم تُؤثِّرْ فى الأفيالِ التى انطلقتْ تَفْتكُ بأعداد كبيرة خاصةً من بَنى بجيلة الذيـن قُـتل مـنهم أكثر من خمسمائة رجل، رأى سعد ذلك فأمر بنى أسد بمعاونة بنى بجـيلةَ، لكـنَّ الفـيَلةَ هجمَـتْ علَى بَنى أسدٍ أيضًا، وأرسلَ سعدٌ إلى عاصمِ بنِ عمرٍو

التميميِّ يقولُ لَه : يا معشرَ بَنِى تَميمٍ ، ألستُمْ أصحابَ الإبلِ والخيلِ؟ أمَا عِندكُم لهذه الفيلة من حيلة؟

وتصـرَّفَ عاصـمُ بـنُ عمـرو ، فجعـلَ بعـضَ أصـحابه يُشـاغلونَ مَن يَسوقونَ الفيلةَ بالنِّـبال ، ودارَ خلفَهَـا مـعَ بعـضِ أصحابه ، فأمسكُوا بذُيولها ، وقطعُوا الأحزمةَ التى تـربطُ الصـناديقَ علَـى ظُهورها ، حيثُ يجلسُ فى تلكَ الصناديق مَن يسوقُونَها ، فلمَّا قُطعَـتْ الأحـزمةُ وسقطت الصناديقُ عَلاَ عُواءُ الفيلة وراحتْ تجرى وهىَ تدهسُ مَن فى طريقها من عربٍ أو فرس .

وسُحبتْ الفيلةُ ، وأعيدَ تنظيمُ صفوف العرب والفرس ودارت المعركةُ إلى الليلِ حيثُ كـانَ النصـرُ أقربَ إلَى الفرسِ منه إلَى المسلمينَ ، وسُمِّىَ هذَا اليومُ يومَ أرمَاث ، وهوَ اسمُ نبتٍ فى الباديةِ ، وهُو أولُ أيامِ القادسية .

ب ـ يوم أغواث

سُمِّيَت الليلةُ التى بينَ اليومَين ليلةَ الهَدأة . وانشغلَ المسلمونَ والفرسُ فى صباحِ اليومِ الـثانى بدفـنِ قَتلاهُم ونقلِ جَرحاهُم . فنقلَ المسلمونَ الجرحَى إلى العُذَيْب فسلَّمُوهُم للنِّسـاء كىْ يداوينَهُم ، وقبلَ أنْ يبدأَ القتالُ ظهرتْ علَى البُعد نواصِى الخيلِ تُعلنُ عنْ وصولِ المدد للمسلمينَ من بلادِ الشامِ .

كانَ الخليفةُ عمرُ بنُ الخطابِ ـ رضىَ اللهُ عَنه ـ قَد بعثَ إلَى أبى عبيدةَ بن الجراح يأمرُهُ بإعـادة جـيش العراق إلى القادسية بعدَ انتصاره على الروم ، فأرسلَ هاشمَ بنَ عُتْبةَ فى سـتة آلاف مَـدَدًا لسعد بن أبى وقاص ، وسارَ القعقاعُ بنُ عمرو التميمىُّ بمقدمة القوة يسـابقُ الـريحَ كَىْ يدركَ سَعدًا قبلَ فَوات الأوان . كانَ معَ القعقاعِ ألفُ فارس ، فلمَّا اقـتربَ مِـن القادسـيةِ قسـمَهُم إلى عشـرِ دفعاتٍ حتَّى يُلقِى الرعبَ فى قلوبِ الفُرسِ

فيظـنُّونَ أنَّ عددَهـم كـبيرٌ، وحـتَّى يـرفعَ مَن معنويات المسلمينَ حينَ يظنُّونَ أيضًا أنَّ عددَهُم كبيرٌ.

وتمَّ للقعقـاعِ مـا توقَّعَـه، وتحمَّـسَ المسـلمونَ، خاصـةً أنَّ الفـيلةَ لم تنزلْ إلَى أرضِ المعـركة فـى ذلـكَ الـيومِ، إذْ كـانَ الفرسُ يُصلحونَ صناديقَها التى تكسَّرَتْ فى اليومِ السابق.

استغلَّ العـربُ الفرصـةَ وأحضـرُوا إبلَهُـم ووضـعُوا البراقعَ علَى وجوهها، وساقَها الفرسـانُ فانطلقـتْ هادرةً إلى صفوف الفرس، ففزعتْ خيلُهُم، ودهستْ جنودَهم، ولقـىَ الفـرسُ مـنَ الإبـلِ فـى ذلـكَ اليومِ أعظمَ ممَّا لقىَ المسلمونَ من الفيلة فى يومِ أرمَاث.

وانطلـقَ القعقاعُ بنُ عمرو ورجالُه يحصدُ رءوسَ الفرس، فقُتِلَ فى ذلكَ اليومِ الأميرُ بَهْمَـن جاذوَيْـه كمَـا قُـتِلَ الـبيرزانُ وهُمَـا مـن أعظمِ أمراء الفرس وقادتهم الكبار، وانطلقَ أبُو محْجَن الثقَفىُّ فى ذلكَ اليوم يشقُّ صفوفَ الفرسِ ويحصدُهُم بسيفه.

واسـتمرَّ القـتالُ عَنـيفًا بـينَ الفـريقين حـتَّى انتصـفَ اللـيلُ، وكـانَ النصرُ أقربَ إلَى المسلمينَ، وسمِّىَ هذَا اليومُ يومَ أغوَاث.

وقالَ البعضُ إنَّه سمِّىَ كذلكَ لأنَّ القعقاعَ بنَ عمرو جاءَ فيه بالغَوْث للمسلمينَ.

ج ـ يوم عماس

بـاتَ القعقـاعُ بنُ عمرو التميمىُّ ليلتَه كلَّها يسرِّبُ أصحابَه إلى الصحراء ليذهبُوا إلَى المكـان الذى قسَّمَهم فيه بالأمس، وأمرَهم أنْ يأتُوا مائةً مائةً، كلَّمَا توارَتْ عَنهُم مائةٌ تخـرجُ مائـةٌ فـى أثرهَا، فإنَّ ذلكَ يجددُ رجاءَ المسلمينَ فى المدد، والرجاءُ يزيدُ إيمانَهم بالنصر، ويزيدُ إقدامَهم فى القتال.

نقـلَ المسلمونَ قتلاهُم وراءَ ظهورهم ليدفنَهم المكلّفُونَ بذلكَ، ونقلَ آخَرونَ الجرحَى إلى النساءِ، وكانَ قتلَى المسلمينَ ألفَين، وقتلَى الفرسِ عَشرةَ آلاف.

وحينَ طلعت الشمسُ ظهرتْ نواصي الخيلِ علَى البعد فكبَّرَ القعقاعُ وكبّرَ المسلمونَ.

وأدركَ هاشـمَ بنَ عُتْبَةَ بالمدد آخرُ دفعة من فُرسان القعقاعِ وعلمَ ما فعلَه بتقسيمِ الألف فارسٍ إلى دفعات، فقسمَ عساكرَه مثلَه، وتوافدَ المددُ وعلاَ التكبيرُ فرجَّ الأرجاءَ.

ودارَ القتالُ والمددُ يتوالَى.

ولكنْ كانت الفيلةُ قَد عادتْ إلَى المعركة بعدَ أنْ تمَّ إصلاحُ صناديقِها، وجعلَ الفرسُ عـدداً مـن المُشـاة وراءَهـا لحمايتِها فلاَ يستطيعُ أحدٌ أنْ يصلَ إلَيها لقطعِ أحزمتِها التي تربَطُ الصناديقُ بها.

وفعلـت الفـيلةُ فعلَها واخترقَتْ صفوفَ المسلمينَ، ورأَى سعدُ بنُ أبي وقاصٍ ذلكَ، فاسـتدعَى بعضَ الفرسِ الذينَ أسلمُوا، وسألَهم عَن مَقاتلِ الفيلة فأخبرُوهُ أنَّها تـُقتَلُ إذَا طُعنتْ في عيونها أو قـُطعت خراطيمُها.

رأى سـعدٌ أنَّ الفـيلةَ كلَّهـا تتبـعُ فـيلَين أحدُهما أبيضُ، والآخرُ أجربُ، فأرسلَ إلَى القعقـاعِ وعاصـم ابـنَىْ عمرو أنْ يكفياهُ الفيلَ الأبيضَ، فضربَا عينيْه برُمْحَيْن، فوقعَ ودلَّى مِشْفَرَه فقطعَه القعقاعُ بسيفه، فوقعَ الفيلُ لجنبه.

وبعـثَ سـعدٌ إلى حَمَّال والرِّبيّـل من بَني أسد أنْ يكفياهُ الفيلَ الأجربَ، فهجَمَا علَى الفـيلِ دفعـةً واحـدةً، فطعـنَ حَمّـالٌ عيـنَه، وقطعَ الربيلُ مشفرَهُ فأقعَى الفيلُ ثمَّ قامَ فصـرخَ عالـيًا وجـرَى، فجرت الفيلةُ خلفَه تخترقُ صفوفَ الفرسِ وقَد ألقتْ مَن كانَ علَـى ظهُورهـا، فهـوَى الفـيلُ الأجـربُ إلى نهـرِ العتيقِ، وخرجَ من الضفة الأخرَى يعـدُو، وتَعْـدُو الفـيلةُ خلفَـه، حـتَّى وصـلتْ إلَـى المدائـنِ وعلَى ظهورها صناديقُها خاليةً.

وتـزاحفَ الجيشان حينَ ذهبت الفيلةُ، ودارَ القتالُ عنيفًا، ودخلَ الليلُ وقَد عَلا الغبارُ فلَم يعلمْ سعدٌ ولَم يعلمْ رستمُ مَن منهُما كفتُّه الراجحةُ.

وهدَأ القتالُ.. وتراجعَت الصفوفُ.

كانـتْ توجـدُ مخاضـةٌ فـى نهر العتيق قليلةُ الماء، وخشىَ سعدُ بنُ أبى وقاصٍ أن يأتيَه الفرسُ من تلكَ المخاضة بأسفلِ العسكرِ فتكونَ القاضيةَ.

اسـتدعَى كُـلاً مـن طـلحةَ وعمرو معَ بعضِ الجند وقالَ لهُمَا: إنْ وجدتُما الفرسَ قَد سبقُوا إلَيها فانزلا بحيالهم، وإنْ لَم تجداهُم علمُوا بها فأقيمَا حتَّى يأتيكُمَا أمرى.

لَـم يجدْ طلحةُ وعمرٌو علَى المخاضة أحداً، فقرَّرَا أن يخوضاهَا بمَنْ معَهما من الجنود، ويأتيَا جيشَ الفرس من الخلف.

أخـذَ طـلحةُ مكانَـه وراءَ عسـكر الفـرس فكـبّر ثلاثَ تكبيرات فزعَ لَها أهلُ فارس، وأغارَ عمرٌو علَى جماعة منهُم أسفلَ المخاضة، فأيقنُوا أنَّ المسلمينَ هجمُوا علَيهم لَيلاً فقدمُوا صفوفَهم زاحفينَ.

ومـن ناحـية أخرَى تعجَّبَ المسلمونَ حينَ سمعُوا التكبيرات، وظنُّوا أنَّ الفرسَ فَتَكُوا برجالهم، فهُم يكبِّرونَ مستغيثينَ.

ورَأى القعقـاعُ صفوفَ الفرس تزحف فُهجمَ علَيهم بفُرسانه دونَ أنْ يستأذنَ سعدَ بنَ أبـى وقاص.. ورأَى سعدٌ ذلكَ فقالَ: اللَّهُمَّ اغفرْهَا له.. وانصُرْهُ.. فقَدْ أذنتُ لَه، وإنْ لَم يستأْذنِّى.

كانـتْ لـيلةً رهيبةً، لَم يرَ المسلمونَ ولاَ الفرسُ مثلَها، لَم يكنْ يُسمَعُ فيهَا غيرُ صليل السـيوف، وكانَ للسيوف قَعْقَعَةٌ مثلُ صوت مطارق الحدَّاد، وسُمِّيَتْ تلكَ الليلةُ ليلةَ الهريـر. وظـلَّ القـتالُ دائـرًا طـوالَ الليل بينَ الفريقين، وانقطَعَت الأخبارُ عَن رستمَ وعَن سَعد الذى قضَى ليلتَه يدعُو اللهَ ـ سبحانَه وتعالَى ـ أنْ ينصرَ المسلمينَ.

فلمَّا أقبلَ وجهُ الصبحِ علمَ سعدٌ أنَّ الغَلَبَةَ للمسلمينَ، وأنَّهُم هُم الأعلَوْنَ بحمدِ الله.

طلعَ الصبحُ والقتالُ دائرٌ، ولمَ ينمْ أحدٌ، واشتدَّ التعبُ بالجميعِ، فسارَ القعقاعُ بنُ عمرو التميمىُّ بيَن صفوف المسلمينَ يقولُ لَهم: إنَّ الدائرةَ بعدَ ساعةٍ لمَن بدأَ القومَ، فاصبرُوا ساعةً، واحملُوا، فإنَّ النصرَ معَ الصبرِ.

واشتدَّ القتالُ حتَّى حانت الظهيرةُ. واجتمعَ حولَ القعقاعِ جماعةٌ من الفدائيِّينَ، فانطلقَ بجواده، وانطلقُوا خلفَه بجيادهم، فشقُّوا صفوفَ الفرس قاصدينَ رستمَ، وحينذاكَ هبَّتْ ريحٌ شديدةٌ، خلعَت المظلةَ التى فوقَ سريره وهوَتْ بهَا إلى نهرِ العتيقِ وأسرعَ القعقاعُ ومَن معَه إلى السرير الذى انكشفَ، لكنَّهم لَم يجدُوه علَى سريره.

كانَ رستمُ حينَ طارت المظلةُ قَد أسرعَ إلى نهر العتيق، فلمَّا وصلَ إلَيه رمَى بنفسه فيه، فلمحَه هلالُ بنُ علقمةَ - أحدُ رجال القعقاعِ - فاقتحمَ النهرَ وراءَه، وسحبَه من قدمه حتَّى أخرجَه إلى الشطِّ، وضربَ جبينَه بالسيف فقتلَه، ورمَى به بينَ أرجلِ البغَال، وصعدَ هلالٌ علَى سرير رستمَ ثمَّ نادَى: قتلتُ رستمَ وربِّ الكعبةِ.

فكبَّرَ الناسُ. وانهزمَ الفرسُ. تولىَّ الجالينوسُ القيادةَ وهتفَ بعساكره أنْ ينسحبُوا فيعبُرُوا الردمَ إلى الناحية الأخرَى من نهر العتيق.. فأسرعُوا إلى الردمِ فانهارَ بهم فى نهرِ العتيقِ، فغرقَ منهُم ثلاثونَ ألفًا الذين كانُوا مقيَّدينَ بالسلاسلِ حتَّى لا يهربُوا من أرضِ المعركة.

انسحبَ الجالينوسُ ببقية القوات نحوَ الشمال، وأرسلَ سعدٌ خلفَهم قوات بقيادة القعقاعِ بن عمرو وشُرَحبيل بن حسنةَ، فأدركُوا الجالينوسَ قبلَ أنْ يعيدَ تنظيمَ صفوفه مرةً أخرَى، فبعثرُوا صفوفَهم وقتلُوا الجالينوسَ وقضَوا علَى قوة فارسٍ قضاءً مُبرمًا.

وصارَ الطريقُ مَفتوحًا أمامَ العرب، فسارُوا حتَّى دخلُوا المدائنَ عاصمةَ بلاد فارسٍ، فنشرُوا دينَ الله الحنيفَ، وسطعتْ شمسُ الإسلامِ بنورها الفيَّاضِ علَى البلاد.

٢٤- سجستان

أشـرقـتْ شمـسُ الإسـلام بأنوارهـا الإلهـية فـى بـلاد الله، ومدّتْ أشعتّها الطيبةَ إلَى سجسْتانَ، لتخرجَ أهلَها من الظلمات إلى النور.

تضـمُّ سجسـتانُ عدداً من المدن والقُرَى فى شرق إيرانَ جهةَ الجنوب، وتقعُ سجستانُ فى الشمال الشّرقىِّ من كرْمَانَ.

سـعَتْ إلَـيها جيوشُ المسلمينَ فى عام ٣٠هـ، وكانَ القائدُ الفاتحُ عبدُ الله بنُ عامر بن ربيعةَ بن عبد شمس قدْ توجَّهَ بالجيوش العربية إلى بلاد خُراسانَ، فعسكرَ بالقرب من كـرمانَ. وأمـرَ القـائدُ الفـاتحُ الربـيعَ بـنَ زيـاد بن أنس الحارثىَّ أنْ يتوجهَ بجيشه إلَى سجستانَ.

سـارَ الربـيعُ إلى مديـنة المهـرج، ثـمَّ عبرَ الصحراءَ وأخذَ يقتربُ شيئًا فشيئًا من مدينة زالقَ، وهىَ مدينةٌ اشتُهرَتْ بقلاعها، وقصورها الحصينة ذات الأسوار العالية.

وصـلتْ هذه الأخبارُ إلى ملك سجستانَ فى مقرِّ إقامته فى مدينة زَرَنْجَ، ونصحَه قائدُ جيوشـه بتدعـيم قـوات زالـقَ بـبعض الكتائب من المقاتلينَ، لكنَّ الملكَ لَم يشَأ إبعادَ الجنود عَن أهليهم والمهْرَجَانُ قَد اقتربَ موعدُه، فطلبَ من قائده تأجيلَ كلِّ شىء إلَى مَا بعدَ الاحتفال بالعيد، خاصةً أنَّه يعلمُ أنَّ أميرَ زالقَ رجلٌ قوىٌّ يستطيعُ صدَّ جيوش المسلمينَ كلِّها وليسَ جيشًا واحدًا فحسبُ.

كـانَ أهـلُ سجسـتانَ يُعـانونَ آنـذَاكَ معانـاةً شـديدةً بسبب الباعة الذينَ يُخْسرُون فى المـيزان، وتفـاقَمَ الأمـرُ لدرجـة لَم يعُدْ لَها حلٌّ، فالناسُ تدفعُ الكثيرَ من المال لتأخذَ بضائعَ قليلةً.

كانَ القائدُ العربىُّ الربيعُ بنُ زياد الحارثىُّ واحدًا من هؤلاء القادة الذينَ هداهُم اللهُ إلَى حسنِ التفكير أثناءَ الحروب، وإلَى اتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب، وقَد أرادَ

بعـضُ رجالـه الهجـومَ علَـى زالـقَ، وأهلُها مشغولونَ فى الإعداد للمهرجان، لكنَّ الربـيعَ قـررَ الهجـومَ فـى أثـناء الاحتفال بالعيد (المهرجان) وأهلُ زالقَ سُكارَى، فلاَ يشعرونَ بالمسلمينَ إلاَّ وهُمْ فوقَ رءوسهمْ.

وهجمَ المسلمونَ فاحتلُّوا الحصنَ.

دخـلَ بهـرامُ إلى داره مسـرعًا، وكـانَ رجـلاً هَـرِمًا، واختطفَ سيفَه، وهمَّ بالخروجِ فاستوقَفَتْه أتوسَا زوجتُه العجوزُ هاتفةً: ما الأمرُ؟

أجابَها: هجمَ المسلمونَ علَى زالقَ.

أتوسا: تمهَّلْ.

بهرامُ: كيفَ أتمهلُ وهُم سينتزعونَ البلدَ منَّا؟

أتوسا: أنتَ مخطئٌ يا بهرامُ.. هُم لَن ينتزعُوا البلدَ من أهلِها، لكنَّهُم سينتزعُونَها من الدهقان الذى يحكمُها.

هتفَ بهرامُ متعجّبًا: ويحَك! ماذَا تقولِينَ؟

قالتْ أتوسَا: أقولُ الحقيقةَ.. فنحنُ لا نملكُ فى هذَا البلد غيرَ دارنا التى نعيشُ فيهَا، ولا يخصنُّا فيهَا غيرُ أهلنا.. ألمْ ترَ مَا نحنُ فيه؟ إنَّنا حتَّى فى هذَا اليوم - فى المهرجان - نقضـى العـيدَ فـى بيتـنا، بيـنَما يستمتعُ به الأثرياءُ من رجَال الإمارة، ورجالُ الحرب والكَهنة، أمَّا طبقةُ الحرّاثينَ أمثالُنا وأصحابُ الحرَفَ فَلا يملكُونَ فى البلد شيئًا تعجَّبَ بهرامُ وقَالَ لزوجته: هَل خرفْت أيتُها العجوزُ أتوسَا؟ هلْ نتركُ بلادَنا للمسلمينَ؟

قالتْ لَه وقَد زادَ انفعالُها: لَقَد تركْنَاها للدهقان.. فماذَا أخذْنَا؟ الفقيرُ مثلُكَ يتزوجُ امرأةً مثلى.. بينَما رجلٌ مثلُ قوباذَ مستشار الأمير لديَه أكثرُ من سبعينَ امرأةً.

صمتَ بهرامُ.. فأكملَتْ أتوسَا قائلةً: أجرُكَ لا تحصلُ علَيه إلَا بشقِّ النَّفس.. الباعةُ ملاعـينُ يسـرقُونَ فـى الكَـيل والميزان.. فعلَى أىِّ شىء تبكى فى هَذا البلد يا بهرامُ؟ هَـل تظـنُّ أنَّ الأمـورَ سـتكونُ أسـوأَ ممَّا هىَ علَيه الآنَ إذَا حكمَ المسلمونَ هذه البلادَ الظالمةَ؟

هتفَ بهرامُ في زوجته : خرفت أيتُها العجوزُ . . خرفت !

فقالَتْ لَه : بَلْ أنتَ الذى خرفتَ أيُّها الهَرِمُ . . لَم تعدْ لدَيكَ قدرةٌ علَى إعمال عقلكَ مِن طولِ امتصاصِهم لقُواكَ فى عملٍ ينالونَ خيرَه ، ولا يمنحُونَك أجرَه . . . فاترُكْ سيفَكَ ، فلعلَّ المسلمينَ أفضلُ من الدهقانِ ورجاله . . أمْ تُراكَ لَم تسمعْ ما يتناقَلُه الناسُ عَن عدل المسلمينَ؟

كانَ المسلمونَ فى ذلكَ الوقت يقاتلونَ حاميةَ زالقَ ، وأوشكت المعركةُ علَى الانتهاء . ثمَّ سقطَت المدينةُ فى أيديهم حينَ أسرُوا الدهقانَ كبيرَ أمراءِ زالقَ . فافتدَى نفسَه بذهبٍ كثيرٍ .

أمرَ القائدُ الربيعُ بنُ زيادٍ بأنْ يجمَعُوا أهلَ زالقَ فلمَّا اجتمعُوا فى الساحة الكبرَى تحدَّثَ إلَيهم فقالَ : أيُّها الناسُ . . يا أهلَ زالقَ ، لَم نأت إليكُم إلا لتقديمِ الخيرِ لكم ، نَعرِضُ علَيكُم دينَ الإسلامِ ، دينَ الحقِّ ، فمَن شهدَ منكمْ ألاَّ إلهَ إلاَّ اللهُ ، وأنَّ محمدًا رسولُ الله ﷺ ، فقَدْ صارَ منَّا ، لَه مَا لَنا ، وعلَيه ماَ علَينا ، وسوفَ يجلسُ إلَيكم الفقهاءُ ليبيِّنُوا لكُم أنَّ دينَ الإسلام يدعُو إلَى ٱلأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عَن المُنكَرِ ، هداكُم اللهُ . . والسلامُ علَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى .

تركَ الربيعُ بنُ زيادٍ حاميةَ مسلمةَ فى زالقَ ، وصحبَ الأدلاَّءَ كَىْ يدلُّوهُ فى الطَّريقِ إلَى زَرَنْج عاصمة بلادِ سجستانَ ، وأمرَ جيشَه بالمسيرِ .

وسجستانُ أرضٌ رمليَّةٌ منبسطةٌ ، تهبُّ فيهَا الرياحُ الشديدةُ ، ولولاَ أنَّ أهلَها يحتالونَ ويتفنَّنونَ فى معالجة تلكَ الرمال لطُمسَتْ كثيرٌ من المدن والقرَى . وقالَ ياقوت الحمويُّ فى معجَمِ البلدان : إنَّ النخيلَ يكثرُ فى سجستانَ ، إلاَّ أنَّه لا ينبُتُ فى الجبالِ المحيطة بهَا بسببِ الثلجِ الذى يغطِّى تلكَ الجبالَ ، ويجرى بهَا نهرٌ اسمُه الهِنْدَمَنْدُ ، وكانت الرياحُ تشتدُّ فى سجستانَ وتدومُ شهوراً طويلةً خلالَ العامِ ، وكانَ الأهالى

ينصبُونَ أرحيةً تدورُ بالرياحِ فتنقلُ الرمالَ بعيدًا، فكانُوا يجمعونَ ـ حولَ الرمالِ التى يبغُونَ نقلَها ـ حطبًا وشوكًا وغيرَها، فينصبُونَها مثلَ الحائطِ الدائرىِّ حولَ الرمالِ، كأنَّها أسطوانةٌ عريضةٌ من أسفلَ، تضيقُ كلَّمَا ارتفعَتْ، ثمَّ يَفتحُونَ بابًا من أسفلَ، فتدخلُ الرياحُ الشديدةُ من ذلكَ البابِ، فتطيرُ الرمالُ إلَى أعلَى مثلَ الزَّوبعةِ، فتقعُ بعيدًا علَى مرمَى البصرِ، وبذلكَ يتمُّ نقلَ الرمالِ فَلاَ تضرُّهُم.

اقتربَتْ جيوشُ المسلمينَ من زرنجَ عاصمةِ سجستانَ وخرجَ جيشُها لملاقاة العربِ. ودارتْ معركةٌ أبلَى فيهَا المسلمونَ بلاءً حسنًا، فأسرعَ جيشُ الفرسِ بالانسحابِ إلَى مدينةِ زرنجَ وأغلقُوا أبوابَها بعدَ أنْ قُتلَ نصفُ جيشهم.

بعثَ أبرويزُ ملكُ سجستانَ إلَى الربيعِ بنِ زيادٍ ألفَ وصيفٍ، معَ كلِّ وصيفٍ صفحةٌ كبيرةٌ مملوءةٌ ذهبًا، وطلبَ الصلحَ، وأمرَ بفتحِ أبوابِ زرنجَ.

ودخلَ العربُ المدينةَ. آذتْهُم القنافذُ الكثيرةُ فطاحُوا فيهَا ضَربًا بسيوفهم فقتلُوا منها أعدادًا كبيرةً، وجلسَ الربيعُ وأبرويزُ لعقدِ الصلحِ، فكانَ من شروطه ألاَّ يقتلَ العربُ قُنفُذًا؛ لأنَّها تأكلُ الثعابينَ، وحينَ قتلَ العربُ منها أعدادًا كبيرةً انتشرت الحياتُ فقتلتْ كثيرًا من أهلِ سجستانَ ومن المسلمينَ أيضًا.

وبدأَ دخولُ أهلِ سجستانَ فى الإسلامِ.

كانَ الإيرانيونَ كثيرًا ما يلقَونَ العذابَ بيَن الفَيْنَة والفينة بسببِ تعصُّبِ كهنةِ النارِ التابعينَ لمَا نادَى به زَرَادشْتُ، وحاولَ الفرسُ أنْ يثورُوا مرَّتَينِ علَى هؤلاءِ الكهنةِ. كانت المرةُ الأولَى فى القرنِ الثالثِ الميلادىِّ، وكانت المرةُ الثانيةُ فى القرنِ الخامسِ الميلادىِّ، وكانت الثورتانِ بلاَ جدوَى، وظهرتْ المَزْدكيّةُ معَ الثورةِ الثانيةِ، ولكنْ عندَ تطبيقِها أدَّتْ إلَى الاشتراكِ فى الزوجاتِ والأموالِ، وعادت الزرادشتيَّةُ مذهبَ الدولةِ الرسمىِّ مرةً أخرَى فى عهدِ كسرَى الأولِ، وظلَّتْ حتَّى ظهورِ الإسلامِ

ودخوله إلى إيرانَ، وكانتْ قَد انتشرتْ معتقداتٌ كثيرةٌ آنذاكَ فى أرجاء بلاد فارس، كانَ هناكَ مسيحيُّونَ ويهودُ، وكانَ هناكَ زرادشتيةٌ ومانويةٌ وصابئةٌ وبوذيُّونَ، وكانَ الصراعُ عنيفًا بينَ أصحاب تلكَ المعتقدات.

وكانَ الفرقُ شاسعًا بينَ طبقة رجال الدين ورجال الحرب والحكم من ناحية، وطبقة المزارعينَ وأصحاب الحرف من ناحية أخرَى، لذلكَ رحَّبَت الطبقةُ الدنيَا من مزارعينَ وصُنّاع بالإسلام، إذْ خلَّصَهُم منَ الطبقية التى كانتْ سائدةً فى المجتمع الإيرانىِّ، كمَا أحسَّ الإيرانيونَ برباط وثيق يربطهم بالإسلام والمسلمينَ عندَما تزوَّجَ الحسينُ بنُ علىٍّ - رضىَ اللهُ عنهُما - شاهبانو إحدَى بنات يزدجردَ.

وقَدْ رحبَ أهلُ إيرانَ بالإسلام خاصةً أنَّه انتشرَ بينهمْ بالدعوة دونَ أىِّ ضغط أوْ إكراه، ومعَ ذيوع الإسلام ذاعت اللغةُ العربيةُ، وقَد كانَ الحسنُ البصرىُّ هوَ كاتبَ الربيع بن زياد فاتح سجستانَ.

وتقعُ سجستانُ الآنَ فى جمهورية أفغانستانَ، أمَّا عاصمتُها زرنجُ فاسمُها الآنَ زاهيدانُ.

وقَد انتشرت المساجدُ فى أنحاء سجستانَ، ودخلَ أهلُها فى دين الله، وتحسَّنَتْ أحوالُهم، فلَم يعُدْ غنىٌّ يتحكَّمُ فى فقير، وانضبطَ الكَيْلُ والميزانُ، وسادَ العدلُ فى أرجاء البلاد حينَ أشرقَتْ فيهَا شمسُ الإسلام.

٢٥- بخارى

بـلادُ التركسـتان بلادٌ متسعةٌ، تحدُّهَا أفغانستانُ منَ الشرق، وبحرُ قزوين من الغرب، وإيرانُ من الجنوب، وفى شمال التّرْكسْتان تقعُ بُخارَى فى غرب سَمَرْقَنْدَ.

كانـتْ بُخـارَى سـوقًا للأصـنام، تُـباعُ فـيهَا فى يومَين كلَّ عام، وكانَ يباعُ فى اليوم الواحد أصنامٌ بخمسينَ ألف درْهَم، واشتُهرَ أهلُ بخارَى بصناعة الأصنام الخشبية.

معظـمُ الـبلاد فُـتحَ مـرةً واحـدةً.. أمَّـا بخـارَى ففتحـتْ ثلاثَ مرات.. وكانتْ لهَا حكايةٌ.

يُحكَى أنَّـه فـى قديـم الـزمان كـانَ هـناكَ نهـرٌ عظيمٌ يشقُّ الأرضَ بناحية سَمَرْقَندَ، ويـتجمَّعُ الطَّمْـىُ بسـببه فى بركة هىَ موضعُ بخارَى. ثمَّ جفَّ النهرُ بعدَ أنْ ملأ البركةَ بالطمى، فصارتْ من أجوَد الأراضى الزراعية، وتجمَّعَ الناسُ فى ذلك المكان، وكانَ بـه كثيرٌ من الماء والشجر والصَّيد، وأقامَ الناسُ فى خيام، ثمَّ زادُوا علَى مرِّ العصور، وعمـرُوا المكـانَ، وبـنَوا القُرَى، وجعلُوا علَيهم أميرًا، حكمَ بالعَدل قليلاً، ثمَّ زلَّتْ قدمُه فى مستنقَع الظُّلم.

فـرَّ عظمـاءُ الـبلد حـينَ زادَ ظُـلمُ الأمـير، واسـتنجَدُوا بملـك التُّرك، الذى بعثَ ابنَه شيرْكَشُـورَ، أىْ أسـدَ الـبلاد، فقتلَ الأميرَ، وأعجبَه ذلكَ البلدُ، وكانَ أكبرُ الأثرياء رجـلاً اسمُـه بُخَـار خُـدَاه، فبـنَى شيركشـورُ مدينةً فى ذلكَ الموضع وأسمَاهَا بخارَى نسبةًإلى بخار خُدَاه الذى كانَ يملكُ أكثرَ الضِّياع وكانَ معظمُ السكان عبيدَه وخدامَهُ.

وحكـمَ شيركشـورُ مـنطقةَ بخـارَى عشـرينَ سـنةً، ثـمَّ حكـمَ مـن بعـده أمـيرٌ اسمُـه سـكجكتُ، بـنَى عـدداً مـنَ المُـدن، مـنها مديـنةُ رامـتنَ، وقـد تزوَّجَ هذَا الأميرُ ابنةَ

إمبراطور الصِّين، فجاءَتْ إلَيه بأعداد ضخمة منْ أصنامها الغريبة، فبنَى لهَا فى رامتنَ معبدًا كبيرًا؛ كىْ تضعَ فيه أصنامَها.

بعدَ ذلكَ حكمَ بخارَى ملكٌ اسمُه بندونُ، جدَّدَ قلعةَ بخارَى، وخلفَه ولدُه طغشادُ فى الحكمِ، وكانَ طغشادُ صَبيًا، فانفردتْ أمُّه خاتُونُ بشئُون المُلْك، وقَد اشتُهرَتْ بحكمتها وإجلال شعبها واحترامه لَها.

كانت الخاتونُ تخرجُ من حصن بُخارَى كلَّ يوم بعدَ شروق الشمس إلى باب ريكستانَ، فتجلسُ علَى عرش لَها وحولَها رجالُ البَلاط والأعْيان، تنظرُ فى مظالم الناس وتحكمُ بينَهمْ بالعدل، وكانَ يقومُ علَى حراستها مائَتَا شاب فى ذلكَ المجلس يتمنطقُونَ بالذهب ويحملُونَ سيوفَهم الذهبيةَ ويقفُونَ فى صَفَّين، جميعهُم من قبيلة واحدة، وفى اليوم التالى يتمُّ تغييرُهم بمائَتَيْن غيرهم من قبيلة أخرَى، وهكذَا كلَّ يوم، وبذلكَ أتاحتْ لكلِّ القبائل التى تتبعُ مملكتَها أنْ تشاركَ فى هذَا الشرف، وأنْ ينقلَ هؤلاء الشبابَ لقومهم صورَ عَدلها وحكمتها، وكانتْ كلُّ قبيلة تشتركُ فى هذَا الأمر أربعَ مرات كلَّ عام؛ إذْ كانتْ تتبعُ مملكتَها تسعونَ قبيلةً.

وزحفتْ جيوشُ المسلمِين بقيادة عبيد الله بن زياد فوصلتْ إلى بخارَى فى أوائل عام ٥٤ للهجرة. فتحت الجيوشُ مدينةَ بيكندَ، ثمَّ فتحتْ مدينةَ رامتنَ حيثُ وجدَ المسلمونَ المعبدَ الكبيرَ الذى تَملأه الأصنامُ فحطَّمُوهَا عَنْ آخرها، ثمَّ زحفُوا فحاصَرُوا بخارَى.

بعثَت الخاتونُ رسولاً إلَى التُّرك تطلبُ منهُم العونَ لتخليصها من حصار المسلمينَ، وبعثَتْ رسولاً إلى عُبَيْد الله بن زياد تطلبُ سبعةَ أيام مُهلةً، وقالتْ لَه: إنِّى فى طاعتكَ. وأرسلَتْ لَه هدايَا كثيرة.

فـلمَّا لَـم تصـلْ جيوشُ الترك فى تلكَ الأيامِ السبعة أرسلت الخاتونُ هدايًا أخرَى إلَى عبيد الله، وطلبَتْ مهلةً سبعةَ أيامٍ أخرَى. ووصلتْ جيوشُ الترك تسدُّ عينَ الشمس.
هجـمَ الـتركُ علَى المسلمينَ، وصمدَ المسلمونَ، وطالت المعاركُ، ثمَّ انقلبَ الوضعُ، فانهـزمَ الـتركُ وتقهقَـرُوا، ودخلَـتْ جيوشُ المسلمينَ بخارَى، فأسرعَت الخاتونُ إلَى القلعـة فاحتمَـتْ بهَا، بينَما انتشرَ الجيشُ الإسلامىُّ فى بخارَى، فأخذُوا سَلاحًا وثيابًا وأدوات ذهبيةً وفضيةً، وواحدةً من خُفَّى الخاتون معَ جوربٍ، وكانَ الجوربُ والخُفُّ من الذهَب المرصَّع بالجوهر، فلمَّا قوَّمُوهُما بلغَا مائتَىْ ألف درهمٍ.
وجـدَ عبـيدُ الله بـنُ زياد أنَّهم لَن يستطيعُوا اقتحامَ القلعة، فبعثَ للخاتون يأمرُهَا بأنْ تفـتحَ لَـه بابَ القلعةِ وإلاَّ أمرَ جنودَه بتخريب بخارَى، وبدَأ بالفعلِ فى قَطعِ الأشجارِ التى حولَ بخارَى.
أرسـلت الخـاتونُ أحـدَ رجالهـا ليـتفاوَضَ معَ عُبيد الله طالبًا الصلحَ، علَى أنْ يرحلَ بعسـكَرِه عَـن بخـارَى ويدفعُـوا لَه مائةَ ألف درهمٍ فى العام، فطلبَ عُبَيدُ الله ألفَ ألَ درهـمٍ (أىْ مليونَ درهمٍ) وقالَ لرسول الخاتون: إنَّ بلادًا تنفقُ مائتَىْ ألف درهمٍ علَى خـفٍّ الملكـةِ وجوربهـا لا يضـيرُهَا أنْ تدفـعَ خمسةَ أضعاف هذَا المبلغِ كَى تنالَ الأمنَ والأمانَ.
وافـقَ عبيدُ الله ووافقت الخاتونُ، وتركَ حاميةً صغيرةً من المسلمِين فى بخارَى وزحفَ قاصدًا بلادَ الصُّغْد فى شرق بخارَى، وكانتْ عاصمتُها سمرقندَ. حملَ عبيدُ الله مليونَ درهمٍ، واصطحبَ أربعةَ آلاف من عَبيد بخارَى ومضَى.
ووصَـلَ أمـرُ الخليفة معاويةَ بن أبى سُفيانَ بعزل عبيد الله بن زياد عَن إمارة خُراسانَ، ووبَّخَه لأنَّه قطعَ الأشجارَ التى حولَ بخارَى، وشرعَ فى تخريبِ بعضِ ديارِ الناسِ كَى

يضطرَّ الخاتونَ إلى فتح القلعة، فالمسلمُ لا يجبُ أنْ يحرقَ زرعًا أو يطمرَ ماءً أو يخرِّبَ ديارَ الناس. وأمرَ معاويةُ بأنْ يتولَّى إمارةَ خُراسانَ سعيدُ بنُ عثمانَ بن عفانَ.

امتنعت الخاتونُ عَن دفعِ الجزية؛ فقدْ نصحَها وزيرُها بإنفاقِ المال لتقوية جيوشها بدلاً من إعطائه للمسلمينَ. وكانَ العربُ قَد عجزُوا عَن فتحِ بلادِ الصغد، فسارَ سعيدُ بنُ عثمانَ بجيوشه إلى بخارَى.

وصلت الأخبارُ باتجاه جيوشِ المسلمينَ إلى بخارَى، فأسرعت الخاتونُ ببعث رسائلَ إلى ملوكِ الصغد وكشْ وتَخْشَبْ تستنجدُ بهم.

كانَ الأميرُ سعيدٌ أشدَّ شراسةً من عُبيد الله، وقفَ بجيوشه بإزاء باب بخارَى وبعثَ للخاتون يأمرُها بفتحِ الباب وإلاَّ هدمَ القلعةَ على رءوس مَن بها.

كانت الخاتونُ تنتظرُ جيوشَ الممالك التى طلبتْ نجدتَها، فبعثتْ إلىَ سعيد جُزءاً من الجزية وطلبتْ منه أنْ يُمْهلَهَا قليلاً حتَّى توافيَه بَما تبقَّى.

ووصلَت الجيوشُ. . وجدَ سعيدٌ نفسَه فى مواجهة مائة وعشرينَ ألفَ مقاتل، وندمَت الخاتونُ أنَّها أعطَتْهُ جُزءاً من الجزية، ونقضَت العهدَ. . ودارت المعركةُ وانتصرَ المسلمونَ بعدَ قتال عنيف، فلمَّا رأت الخاتونُ ذلكَ أعطتْهُ بقيةَ الجزية وأعادت الصلحَ، ودخلَ سعيدُ بنُ عثمانَ بخارَى، وكانَ ذلكَ فتْحَها للمرة الثانية، وتمَّ فى عام ٥٥ للهجرة. واعتنقَ طغشادُ ابنُ الخاتون الإسلامَ وصارَ مَلكًا علَى بخارَى بعدَ أمِّه.

ثمَّ كانَ فتحُ المسلمينَ الثالثُ لبخارَى عامَ ٨٧هـ. أثناءَ ولاية البطل الفاتح قُتَيْبَةَ بن مسلمٍ علَى خراسانَ، فقدْ عبرَ النهرَ بجيوشه إلى بخارَى فحاصرَها، فاجتمعَتْ جيوشُ الصغد وفَرْغَانَةَ والشاشِ وبُخَارَى وأحدقُوا به أربعةَ أشهرٍ، ثمَّ نصرَه اللهُ - عزَّ وجلَّ - علَيهم، فهزمَهُم شرَّ هزيمة، وقتلَ منهُم أعداداً هائلةً، وسبَى منهُم خمسينَ ألفًا، وفتحَ بخارَى.

وكانتْ سياسةُ قُتَيْبَةَ بن مسلم الباهليِّ فى البلاد التى افتتحَها تعتمدُ علَى نشر الإسلامِ بالحكمة والموعظة الحسنة، فدخلَ أهلُ بخارَى فى دين الله، وجعلَ لَهُم مَن يعلِّمُونَهم تعاليمَ الإسلام، وبنَى المساجدَ التى كانتْ منارات للعلم، فتعلمَ مسلمُو بخارَى أصولَ دينِهم وشرائعَه، ووجدُوا مَن يفسِّرُ لَهم القرآنَ ومَن يفقِّهُهُم فى الدين، فخرجَ من بُخارَى علماءُ أجلاَّءُ يأتى فى مقدمتهم إمامُ أهلِ الحديث النبويِّ الشريف أبُو عبدالله محمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ بنِ مغيرةَ المعروفُ باسمِ الإمامِ البخاريِّ، صاحبِ الجامعِ الصحيحِ والتاريخِ.

لقَد انتشرَ الإسلامُ فى بخارَى، وحسُنَ إسلامُ أهلها، وصارُوا معَ مُرور الزمنِ من الدعائمِ القوية للإسلامِ فى العالَمِ، ولاَ عجبَ؛ فهىَ بلادٌ شهدتْ شمسَ الإسلامِ وهىَ تشرقُ بنورِها الفياض.

٢٦- سمرقند

كانَ الإسكندرُ المقدونىُّ هوَ أولَ مَن أنشأَ مدينةً فى موضعِ سَمَرْقَنْدَ فى قديم الزمان، ثمَّ قررَ ملكُ بلاد اليمن شَمرُ بنُ أفْريقَيْسَ بن أبْرَهَةَ أنْ يكتسحَ العالمَ بجيوشه، فخرجَ فى خمسمائة ألف مقاتلٍ من اليمن حتَّى وصلَ إلَى العراق، علمَ الملكُ يَشْتَاسَفُ أنْ لاَ طاقةَ لَه بحرب شمر، فدخلَ فى طاعته.

سارَ شمرٌ بجنوده لا يصدُّهُ أحدٌ حتَّى وصلَ إلَى بلاد الصين، وأثناءَ طريقه حينَ وصلَ إلى بلاد الصُّغد تجمَّعَ الناسُ فى مدينة الإسكندر وقاوَمُوهُ، فحاصرَها، وأنزلَ مَن بها فقتلَهم وهدمَ المدينةَ. فقيلَ: شَمرُ كَنْد، أىْ: شمر هدمَها.

سارَ شمرٌ بعدَ ذلكَ إلى الصين، فقيلَ إنَّه ماتَ عطَشًا هوَ وجيشُه البالغُ خَمسَمائة ألفٍ.

وظلَّتْ سمرقندُ خَرابًا حتَّى ولَىَ مُلْكَ اليمن تُبَّعُ الأقْرَنُ بن أبى مالك بن نَاشر يُنْعمُ، وكانَ ناشر يُنعم أخَا شمر. ولَم يكنْ لتُبَّعِ الأقرنِ غيرُ هدف واحد هوَ الانتقامُ لجدِّه شمر الذى هلكَ ببلاد الصين.

تجهزَ تبعٌ الأقرنُ واستعدَّ، وسارَ بجنوده إلى العراق فدخلَ الملكُ بَهْمَنُ فى طاعته، وسارَ تبعٌ حتَّى بلغَ سمرقند، فبناهَا أحسنَ ممَّا كانتْ علَيه فى الماضى، وظلَّ بها حتَّى اكتملَ بناؤُها، ثمَّ مضَى متَّجهًا إلى بلاد الصين فقابلتْه بلادٌ واسعةٌ كثيرةُ الماء والمراعى، فبنَى مدينةً أسماها تُبَّتْ، وأسكنَ فيهَا ثلاثينَ ألفًا من أصحابه الذينَ لَم يستطيعُوا السيرَ معَه إلى بلاد الصين.

وصلَ تبعٌ الأقرنُ إلى الصين، فقتَلَ وسبَى وأحرقَ منتقمًا لجَدِّه شمر، ثمَّ عادَ فى قصة طويلة مفعمة بالمغامرات والمفاجآت والبطولات التى ليسَ لهَا مثيلٌ، ولاَ يوجَدُ مَا يشبهُهَا إلاَّ فى بعض الأساطير.

وقَد خلَّف تبعٌ الأقرنُ مُدنًا كثيرةً بنَاها أثناءَ مسيرة، كانتْ سمرقندُ إحداهَا.

وربَّمَا كانتْ بطولاتُ تبعِ الأقرنِ الحربية أعظمَ من بطولات الإسكندرِ بن فيليبَ المقدونىِّ المعروف باسمِ الإسكندر ذى القرنين، بَل ربَّمَا كانتْ بطولاتُ تبعِ الأقرنِ أعظمَ البطولات قبلَ الإسلام؛ فقدْ خرجَ من بلاد اليمن حتَّى بلاد الصين، وهىَ مسافةٌ رهيبةٌ خاصةً علَى مَن يقطعُها علَى ظهر دابة، ثمَّ عادَ إلى بلاده سالمًا غانمًا، محقِّقًا انتصارات زاهيةً وبطولات عظيمةً أهملَها التاريخُ.

وبعدَ أنْ بنَى تبعٌ الأقرنُ مدينةَ سمرقندَ أمرَ فكتبَ عليهَا باللغة الحمْيَريَّة لغة اليمن القديمة. بيَن هذه المدينة وبينَ صنعاءَ ألفُ فَرْسَخ، وبينَ بغدادَ وبين إفريقيةَ ألفُ فرسخ وبينَ سجستانَ وبينَ البحرِ مائتَا فرسخ، ومن سمرقندَ إلى رامينَ سبعةَ عشرَ فرسَخًا.

وصـارتْ سمرقـندُ تابعـةً لملـوكِ الصـغدِ، وكانتْ عاصمةَ بلادهم، وظلُّوا يحكمونَها حتَّى دخلَها المسلمونَ.

كانـتْ سمرقـندُ ذاتَ تاريخٍ طويلٍ وذاتَ حضارة. وكانتْ أيضًا ذاتَ تاريخٍ إسلاميٍّ حـافلٍ، لهَـا موقعُهـا الـبارزُ بـينَ المـدنِ، وتتمـتَّعُ بمكانـةٍ علمـيةٍ رفـيعةٍ فِي الحضارةِ الإسلاميةِ؛ إذْ كانتْ مستقرًا لعددٍ من كبارِ العلماء.

عرفَت سمرقندُ الإسلامَ للمرة الأولَى حينَ حاصرَتْها جيوشُ عبيدِ الله بن زياد بن أبي سـفيانَ عـامَ ٥٤هـ، وعجـزتْ عَـن فـتحها، وبالرغمِ من فشلِ عبيد الله إلاَّ أنَّ أهلَ سمرقندَ تناقَلُوا أخبارَ المسلمينَ، وتناقلُوا حكاياتٍ كثيرةً سمعُوهَا عَنْ عدلِهم وحُسْنِ أخلاقهم.

فـلمَّا ولِيَ بـلادَ خُراسـانَ سـعيدُ بـنُ عـثمانَ بـنِ عفـانَ أعادَ فتحَ بخارَى، ثمَّ سارَ إلَى سمرقـندَ، وعاونَتْه خاتونُ ملكةُ بخارَى، فاستطاعَ أنْ يحاصرَ سمرقندَ ويضيقَ الحصارَ عليَهَا، فصالَحَه ملوكُها علَى أن يدفعُوا لَه الجزيةَ. وكانَ ذلكَ فِي عامِ ٥٥هـ.

ومـرَّ ثلاثـونَ عامًـا. كانـتْ جـيوشُ الفاتحِ قتيبةَ بن مسلمٍ الباهليِّ تجتاحُ شرقَ العالَمِ لنشـرِ ديـنِ اللـه بـينَ عـبدة الـنارِ والأصـنامِ. ووصلَتْ أخبارُ الانتصاراتِ الإسلاميةِ المتتاليةِ إلى مَسَامعِ أهلِ سمرقندَ.

رجـلان قـبضَ الرعـبُ علَـى قلبَـيْهِمَا بقبضـةٍ مـن جمـر، أولُهُمـا الملـكُ غوزكُ ملكُ سمرقندَ، وثانيهما فرهادُ رئيسُ الكهنة فِي المملكة.

اهـتمَّ الملـكُ بالـتأكُّد مـنَ اسـتعداد جيوشـه لصـدِّ الغـزو، بيـنَما راحَ فرهادُ ورجالُه يجـتمعونَ بـأهلِ سمرقندَ لتعبئتهم ضدَّ المسلمينَ، وكانَ الملكُ يعملُ بنصيحته فِي كلِّ أمورِ المملكة.

ويحدثُنَا ياقوتُ الحَمَوِىُّ عَن مدينة سمرقندَ فى معجم البلدان فيقولُ: مدينةُ سمرقندَ مبنيةٌ جنوبىَّ وادى الصغد، وفيهَا نهرٌ يجرى مبطّنٌ بالرصاص، وفى المدينة مياهٌ من هذَا النهر علَيها بساتينُ، ولَيسَ من طريق ولا دار إلاَّ وبها ماءٌ جار إلاَّ القليلَ، وقلَّما تخلُو دارٌ مِن بُستان، حتَّى أنَّكَ إذَا صعدتَ سورَها: لا ترَى أبنيةَ المدينة لاستتارها عنكَ بالبساتين والأشجار، وقالُوا: ليسَ فى الأرض مدينةٌ أنزَهُ ولا أطيبُ، ولاَ أحسنُ مُستَشْرَفًا من سمرقندَ.

كانَ من عادة قتيبةَ بن مسلم أنْ يطلقَ رجلين أو ثلاثةً من رجاله متفرِّقَين إلَى كلِّ مدينة ينوى فتحَها، حتَّى إذَا اقتربَ منها جاءَه رجالُه بأخبارها، فيعرفُ مصادرَ قوتها ونقاطَ ضَعفها. وبينَما كانَ يخوضُ المعاركَ فى بلاد خُوارزْمَ مُنتقلاً من نصر إلى نصر كانَ رجلانِ من المسلمينَ يَجُوسَان خلالَ طرقات سمرقندَ بصفتهمَا تاجرَين، فكانَا يتحدَّثان إلى النَاس ويجمعان الأخبارَ.

كانَ قتيبةُ بنُ مسلم يدركُ أنَّه لا يفتحُ البلادَ من أجل تحقيق نصر حربىٍّ، أو ضمِّ ممالكَ إلى دولة المسلمينَ، وإنَّمَا يفتحُها لكَى يقولَ لأهلها إنَّ هناكَ دينًا قيمًا هُو دينُ الإسلامَ، يدعُو إلى عبادة الله الواحد الأحد، ويدعُو إلَى مَا فيه صلاحُ الناس فى الدنيَا والآخرة، فمَن رَغبَ دخلَ فيه بإرادته، ومَن لَم يرغبْ يدفع الجزْيةَ مُقابلَ حمايته.

اقتربَ قتيبةُ من سمرقندَ، وعلَمَ أنَّ أهلَها طيبونَ ومنَ المُمكن أنْ يكونُوا مصدَراً للخير والإيمان، ولا حائلَ بينَهم وبينَ الإسلام غيرُ أصنامهم؛ فهُم مُقتنعُونَ بقدرة تلكَ الأصنام، ولا يقضى علَى اقتناعهم هذَا غيرُ تحطيم أصنامهم ليكتشفُوا عَمَليًا أنَّها لاَ تضرُّ ولا تنفعُ، بَل ولا تقوَى على حماية أنفسها.

حاصرَ المسلمونَ سمرقندَ والتقَوا مراراً معَ أهلها فاقتتلُوا، ثمَّ انسحبتْ جنودُ سمرقندَ إلَى داخل المدينة فتحصَّنُوا بهَا، وبعثَ المَلكُ غوزكُ يستنجدُ بملك بلاد الشاش، فزحفَ بجيوشٍ جرارة كىْ ينقذَ سمرقندَ.

ودارَتْ معـركةٌ شرسـةٌ سـقطَ فـيهَا عشـراتُ الألـوف مـن القتلَى من جيوشِ الشاشِ فانسحبَتْ بقيَّتُهم، وتُركتْ سمرقندُ تتهاوَى تحتَ سيوفِ المسلمينَ عامَ ٨٧هـ.

بعـثَ غـوزكُ للـتفاوُضِ مَـعَ قتيبةَ بشأنِ الصلحِ، فصالَحَه علَى جزية قدرُها سبعُمائة ألـفِ درهمٍ كلَّ عامٍ، وأنْ يستضيفَ جيوشَ المسلمينَ ثلاثةَ أيامٍ، وأنْ يصلِّيَ قتيبةُ بنُ مسـلمٍ فـي سمرقـندَ، وأنْ يكونَ لَه مَا فِي بيوتِ عبادةِ النارِ مِن أموالٍ، ومَا فِي معابدِ الأصنامِ مِن ذهبٍ وجواهرَ.

حـذَّرُوا قتيـبةَ مـن أنَّ بعـضَ أصنامهم تقتُلُ مَن يمسُّها بسوء، فأحرقَها كلَّها، وحاولَ بعـضُ الكهـنة أنْ يقـتلوهُ فـي تلـكَ اللـيلة حتَّى يقولُوا إنَّ الأصنامَ قتلتْه، وتمكَّنوا من الوصـول إلَـى فراشـه رغـمَ الحراسـة الشـديدة، لكنَّهم لَم يجدُوا به أحدًا، وفي اليومِ التالي أخبرُوا أهلَ سمرقندَ أنَّ أصنامَهم انتقمَتْ من قتيبةَ وأزالَتْه من الوجود.

وفجأةً ظهرَ قتيبةُ علَى سطحِ إحدَى البنايات وتحدَّثَ إلَى أهلِ سمرقندَ قائلاً:

يـا أهـلَ سمرقـندَ، أدعُوكُـم إلى عـبادة الله الواحـد الأحـد، هداكُـمُ اللهُ إلى طـريقه القَويـمِ. إنَّ أصـنامكم التي كنتُم تعبدونَها لا تضرُّ ولا تنفعُ، وإنَّ الإسلامَ يدعوكُم إلى الطهـارة ويـنزِّهُكُم. يـا قـومُ، لا إلـهَ إلاَّ اللهُ، ولا نعبدُ إلاَّ إيَّاهُ، لا أضطرُّكُمْ إلَى شـيء، لكـنِّي أدعوكُـم بالحُسـنَى إلى ديـن الله، هَـا أنتُم ترَونَ بأعيُنكم أنَّكم كنتُم فِي ضـلالٍ مـبينٍ، فمَـن أرادَ الحـقَّ ومَـن أرادَ الهدايـةَ فلْيشهَدْ أنَّ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله.

وبـنَى قتيـبةُ مسـجدًا فـي سمرقندَ، وبالرغمِ من كلِّ ما حدثَ لَم يسلمْ مِن أهلِها غيرُ القليلِ.

مـرَّت السـنواتُ. ووفـدَ علَى عمرَ بن عبد العزيز سنةَ ١٠٠هـ. جماعةٌ من سمرقندَ، أبلغُوهُ أنَّ سعيدَ بنَ عثمانَ صالحَهم علَى ٤٠٠ ألفِ درهمٍ جزيةً فِي العامِ سنةَ ٥٥هـ.

وأنَّ قتيبةَ بنَ مسلمٍ دخلَ مدينتَهم وأسكنَها المسلمينَ، وألغَى معاهدةَ سعيدٍ وفرضَ عليهم ٧٠٠ ألف درهمٍ جزيةً كلَّ عامٍ، وقالَ إنَّ الجزيةَ تنفقُ علَى الجيوشِ لحمايتهم، وأنَّ النفقاتِ زادتْ خلالَ ٣٢ عامًا هيَ الفرقُ بينَ المعاهدتَين ولذلكَ يجبُ زيادةُ الجزية.

بعثَ عمرُ بنُ عبد العزيز إلى سليمانَ بن أبى السَّرْحِ وإلَى سمرقندَ يأمرُه بتعيينِ قاضٍ ينظرُ فى هذه الشكوَى، فعيَّنَ القاضىَ جُمَيْعَ بنَ حاضرٍ الباجيَّ.

وانتظرَ الجميعُ مَا سيحكمُ به القاضى جُمَيْعٌ..

قالَ إنَّ دينَ الإسلامِ دينُ عدلٍ وحقٍّ وسلامٍ ومحبة، وعلَى جيشِ المسلمينَ الذى فتحَ سمرقندَ أن يتأهَّبَ للخروجِ من المدينةِ فورًا، وبعدَ أنْ يخرُجَ الجيشُ يُرَدُّ إلى أهلها عهدُهم السابقُ معَ الأميرِ سعيد بنِ عثمانَ.

وخرجَ الجيشُ.. وتعجَّبَ أهلُ سمرقندَ؛ لقَدْ حكمَ القاضى علَى قومه.. إنَّ هذَا هوَ العدلُ، وإنَّ دينًا يرفَعُ رايةَ العدلِ والحقِّ هوَ الدينُ لا شكَّ.

وأسلمَ أهلُ سمرقندَ.

وطلبُوا من جيشِ المسلمِينَ الذى خرجَ من مدينتهم - بأمرِ القاضى - أنْ يعودَ إلَيها، فقَد اقتنعُوا بعدلِ الإسلامِ الذى منحَهم حريةَ الاختيارِ وحريةَ العقيدة، فاعتنقُوا ذلكَ الدينَ القيمَ، وارتفعَ صوتُ الأذانِ فى كلِّ الأرجاء، وانتشرَ نورُ الإسلامِ فى القلوبِ، وعمَّ الخيرُ فى سمرقندَ، تلكَ المدينةِ التى شهدتْ شمسَ الإسلامِ وهىَ تشرقُ فى البلادِ.

٢٧- الهند

كـانَ مَـا حـدثَ فـى جزيـرة الـياقوت سـببًا فـى فتح بلاد الهند، وقد سمِّيَتْ جزيرةُ الـياقوت بهـذَا الاسـم لجمـال وجوه نسائِها، وهُو الاسمُ القديمُ لجزيرةِ سيلانَ، التى صارَ اسمُها الآنَ سرى لأنْكَا.

كـانَ يقيمُ فى جزيرة الياقوت عددٌ من التجار العرب، يركبونَ البحرَ للتجارة فى بلاد الصـين. وخـرجَ سـتُّونَ تاجـرًا مسلمًا بإحدَى السفنِ فغرقَتْ بهم، وخلَّفُوا وراءَهم حوالَى مائة من أراملهم وبناتهم.

ذهبـتْ أرملةُ أحدهم وكانَ اسمُها سَلْمَى اليَرْبُوعيَّةُ إلى ملك جزيرة الياقوت كَى يوفِّرَ لهـنَّ سفينةً تحملهُنَّ إلى بلاد العرب. فنصحَه مستشارُوهُ بأنْ يبعثَ بهنَّ إلى الحجَّاجِ بن يوسُـفَ الـثقفىِّ أمـير العراق، كَىْ يوصِّلَهُنَّ إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروانَ معَ هدايَا للحجاجِ وللوليد، وبذلكَ يكسبُ ودَّهُما.

كـانَ بالجزيـرة تاجـرٌ اسمُـه عـبدُ الـرحمن العقيـلىُّ مـرضَ فلَمْ يخرُجْ معَ التجار الذينَ غـرقُوا، وحـينَ وقعَ مَا كانَ قرَّرَ العودةَ إلى بلاد العرب، حتَّى لا يغرقَ مثلَ مَن غرقُوا ويتركَ زوجتَه وحدَها، لذلكَ صحبَ زوجتَه وصعدَ إلى السفينة التى أبحرتْ بالأراملِ والبـنات مـن جزيـرةِ الـياقوت إلى جـنوبِ الهند، ثم صعدتْ شمالاً بمحاذاة الساحلِ الغربىِّ لبلاد الهند.

ومـن الغرائـب أنَّ زوجـةَ عبد الرحمن العقيلىِّ تُوُفِّـيَتْ بعدَ إقلاعِ السفينة بأيامٍ قلائلَ، وهُو الذى كانَ يخشَى أنْ يموتَ ويتركَها.

وظهـرَتْ ثـلاثُ سـفنٍ يقودُهـا القرصـانُ شـهبورُ. واقتربَـتْ من السفينة التى تحملُ النسـاءَ، والتصـقَتْ بهـا، فانـتقلَ القراصنةُ إلى السفينة، وهوَوْا بسيوفهم علَى رقابِ

الملاَّحينَ، فقفزَ عبدُ الرحمنِ العقيلىُّ إلى الماء وسبحَ مبتعدًا، وهوَ يسمعُ ضحكات القراصنة وصرخات النساء، ويعلُو من بينِ كلِّ تلكَ الأصواتِ صوتُ سلمَى اليربوعية وهيَ تهتفُ:

يا حجاجُ . . يا حجاجُ . . يا حجاجُ.

سبحَ عبدُ الرحمنِ العقيلىُّ مسافةً كبيرةً حتَّى وصلَ إلَى ساحلِ الهند الغربىِّ، وكانَ طوالَ الوقت يدعُو اللهَ - عزَّ وجلَّ - أن ينقذَه ويكتبَ لَه النجاةَ.

سارَ عبدُ الرحمن هائمًا علَى وجهه حتَّى وجدَ نفسَه فى معسكرِ لجيشِ المسلمينَ ببلاد السند. كانَ قائدُ المعسكرِ هُو محمدَ بنَ القاسمِ الثَّقَفىَّ ابنَ أخى الحجاجِ بن يوسُفَ الثقفىِّ، فسمعَ حكايتَه وبعثَ معَه مَن يصاحبُه فى الطريق حتَّى وصلَ إلى الحجاج فى العراق، فأخبرَه بما كانَ، وأنَّه سمعَ سلمَى اليربوعيةَ تهتفُ: يا حجاجُ . . يا حجاجُ . . يا حجاجُ.

فهتفَ الحجاجُ آنذاكَ: يا لَبَّيْك . . يا لبيك . . يا لبَّيك.

عزمَ الحجاجُ علَى إنقاذ المرأة التى استنجدتْ به فى بحار الهند، وعزمَ علَى إنقاذ مَن معَها من النساء المسلمات، فبعثَ برسالة عاجلة إلى الملك داهر ملك بلاد السند كَى يسرعَ بإنقاذ المسلمات، ولكنْ جاءَه ردُّ الملك داهرٍ بأنَّه لا سيطرةَ لَه علَى القراصنة الذينَ فى سواحلِ بلاده.

مضَى الحجاجُ من الكوفة إلَى دمشقَ فعلمَ أميرُ المؤمنينَ الوليدُ بنُ عبد الملك أنَّ أمْرًا جلَلاً قد وقعَ، وحينَ استفسرَ من الحجاج، أبلغَه أنَّ الأميرَ داهرًا يستهينُ بقوة أمير المؤمنينَ، وردَّ علَى الرسالة كأنَّه يردُّ علَى أطفال قائلاً إنَّه لا يملكُ السيطرةَ علَى القراصنة الذينَ يجوبونَ سواحلَ بلاده.

أمـرَ الخلـيفةُ بخـروجِ حملة حربية إلى مِينْاء دَيْبُلَ الهندىِّ بقيادة عبيدِ الله بن نَبْهَانَ، لكنَّه حينَ وصلَ إلَى هناكَ لاقَى مقاومةً شديدةً وسقط شهيدًا.

فكتـبَ الحجـاجُ إلَى والى عُمَانَ بديلِ بن طبقةَ البجلىِّ يأمرُه أن يسيرَ إلى الديبلِ، فلمَّا لقىَ الأعداءَ نفرَ به جوادُه فأحاطَ به جنودُ الهند فقتلُوهُ.

حيـنذاكَ بعـثَ الحجـاجُ إلى ابـنِ أخيه محمد بن القاسمِ فعقدَ لَه إمارةَ ثغورِ الهند وأمرَه بالمسـير، فسـارَ إلى شـيرازَ حيـثُ عَسـكرَ بهَـا حـتَّى جاءتْـه الجيوشُ التى أعدَّها عمُّه الحجاجُ.

اسـتدعَى محمـدُ بـنُ القاسـمِ العـلماءَ الذينَ يضمُّهُم جيشُه، واستمعَ إلَيهم، فلَم يجدْ عـندَهم ما يفيدُه، وجاءَ شابٌّ اسْمه علاءُ الدينِ أحمدُ أبلغَه أنَّ فى ديبلَ بناءً كبيرًا متينًا فيه صنمٌ يعبُدُه الهنودُ، ولَو هدمَ ذلكَ المبنَى لانكسرَ الهنودُ. واقترحَ أنْ يصنعَ مَنْجَنيقًا ضخمًا فى شيرازَ، يُحمَلُ إلَى الديبلِ كَى يهدمُوا به ذلكَ المبنَى.

كانَ المنجنيقُ العادىُّ يملأُه خَمسةُ رجال بالصخور، أمَّا منجنيقُ علاء الدين فكانَ يملأُهُ بالصخور خمسمائةُ رجلٍ، كانَ مَنجنيقًا عملاقًا لَمْ يرَ الناسُ لَه مَثيلاً، وأطلقَ محمدُ بنُ القاسـمِ علَـيه اسـمَ العَـرُوس؛ لأنَّـه حينَ يُطلقُ صخورَه يُدْخلُ السعادةَ والبهجةَ إلَى قلوبِ الجند.

قسـمَ محمـدُ بـنُ القاسـمِ جيشَـه قسمين، قسمٍ يذهبُ إلى الديبلِ فى السفنِ عَن طريق الـبحرِ ومعَهُـم المنجنـيقُ الضخمُ، وقسمٍ يقودُه هُو برًا، وفى طريقه فتحَ مملكةَ قَنْزَبُورَ وأرْمَائيلَ.

ووصـلَ جـيشُ المسـلمينَ عندَ أسوارِ ديبلَ، ثمَّ وصلتْ السفنُ، فنزلَ منْ تحملُهم إلَى الـبرِّ، وأنـزلُوا أجـزاءَ المنجنيقِ العملاق، وعسكرُوا عندَ صخرةٍ مرتفعة نصبُوا فوقَها المنجنيقَ، وحفرُوا خندقًا حولَ معسكرِهم.

انضمَّ إلى جيشِ المسلمينَ كثيرٌ من قبيلتَي الجات أو الزُطِّ وقبيلة المَيْد، وكانتْ حكومةُ الهند تعاملُ أهلَهُما أسوأَ معاملة، فلمَّا علمُوا أنَّ الإسلامَ لا يفرِّقُ بينَ الناسِ دخلُوا الإسلامَ وانضمُّوا إلى الجيشِ العربيِّ.

نزلَ القراصنةُ إلى غابة بالقرب من ديبلَ، وبينَما هُم منهمكونَ فى تأمين السُّفُن وإنزال حاجياتهم منها هربتْ سلمَى اليربوعيةُ وهندُ بنتُ سلامٍ وأسرعتَا حتَّى وصلتَا إلَى الوادى الواقعِ خلفَ مدينة الديبل.

أطلقَ محمدُ بنُ القاسمِ فى ذلكَ الوقت الدفعةَ الأولَى من منجنيق العروس، فسقطَت الصخورُ علَى معبد الهَنَادكَة، فحطمت الصَّارىَ الذى فوقَ المعبد وحطمتْ زجاجَ المعبد وأحدثتْ شُروخًا فى بعضِ جُدرانه.

فزعَ الهنودُ وأمرَ حاكمُ الديبل بفتحِ باب المدينة وخروجِ الجيوشِ لقتال المسلمينَ. لكنَّهُم وجدُوا أسُودًا كاسرةً فى ثياب جنود، فعادُوا ينسحبونَ إلى مدينتهم، وحينذَاكَ أمرَ محمدُ بنُ القاسمِ، فوُضعَت السلالمُ علَى الأسوار، وصعدَ جنودُه، ثمَّ نزلُوا إلَى المدينة، ودارَ قتالٌ انتهَى بانتصارِ المسلمينَ وقتلِ سدنة المعبد.

خرجَ المسلمونَ بعدَ ذلكَ إلى الأماكنِ المحيطة بمدينة الديبل فصادفُوا سلمَى وهندًا الهاربتَين من القراصنة، ثمَّ أمرَ محمدُ بنُ القاسمِ أنْ تخرجَ خمسُ سفنٍ تأتى بالقراصنة وبخاصةً زعيمُهم شهبورُ وإرسالَهم إلَى الأميرِ الحجاجِ وإنقاذ النساء والفتيات اللاَّئى فى أسْرِهم.

استعانَ محمدُ بنُ القاسمِ بعدد من رجال قبيلتَي الزطِّ والميد فدلُّوهُ فى مسالك الهند ودُرُوبها، وسارَ يفتحُ المدنَ واحدةً بعدَ أخرَى، حتَّى وصلَ إلَى مدينة برهمنا باذَ العتيقة مركزِ مُلْك داهرٍ ملك بلاد السند.

تكلفت الحروبُ التى خاضَها محمدُ بنُ القاسمِ الثقفىُّ ستينَ مليونَ درهمٍ. ودلَّهُ أحدُ الرهبانِ علَى كَنزٍ فى أحد المعابدِ ببلادِ الهندِ، فبعثَ إلى عمِّه الحجاجِ مائةً وعشرينَ مليونَ درهمٍ.

بدأَ فتوحاته وهُوَ لَم يبلغِ العشرينَ من عمره، ففتحَ ممالكَ كثيرةً ونشرَ الإسلامَ بينَ أممٍ وشعوبٍ، ولَم يعُدْ إلى العراقِ إلاَّ بعدَ ١٧ عامًا من الفتوحاتِ فى بلاد السِّنْد والهند.. وأسلمَ علَى يدَيْه ألوفٌ وألوفٌ.

وأثناءَ عودة محمد بنِ القاسمِ مرَّ علَى الديبلِ - التى هىَ كَراتْشى الآنَ - فوجدَ المساجدُ تَمْلأُهَا، وانتشرتْ بِها المدارسُ التى تعلمُ حفظَ القرآنِ الكريمِ والتفسيرَ والفقهَ والحديثَ.

وكانَ للهند - ولَم يزَلْ - تاريخٌ إسلامىٌّ مشرقٌ يعيشُ فيهَا ملايينُ من أهلها المسلمينَ، وأنجبَتْ بلادُ الهندِ علماءَ أجلاَّءَ منذُ دخلَها الإسلامُ حتَّى اليومِ، وكانَ لجامعاتها دورٌ بارزٌ فى نشرِ كثيرٍ من كتبِ التراث الإسلامىِّ، بَل إنَّ رابطةَ الأدب الإسلامىِّ العالميةَ نشأتْ فى الهند ومقرُّهَا الرئيسُ هناكَ حتَّى الآنَ، وكانَ رئيسُها العالَم الهندىَّ الجليلَ أبَا الحسنِ النَّدْوىَّ - رحمهُ اللهُ - وهوَ صاحبُ الكتاب الشهير (ماذَا خسرَ العالَمُ بانحطاط المسلمينَ؟) ذلكَ الكتاب الذى قدمَه الشيخُ سيدُ قطب.

لقَدْ أضاءَ نورُ الهدايةِ جَنَبَاتِ الهندِ، ولَمْ تزلْ شمسُ الإسلامِ تشرقُ فى أرجائها.

٢٨- صقلية

تقعُ جزيرةُ صقَلِّيَّةَ فى جنوبِ إيطاليا بالبحرِ المتوسط، وهىَ جزيرةٌ كثيرةُ الخيراتِ والمياه. بدأتْ محاولاتُ العربِ غزْوَها منذُ عامِ ٣٢هـ. لكنَّهم لَم يتمكَّنُوا من فتحِها إلاَّ عامَ ٢١٢هـ، حيَن استنجدَ قائدُ الأسطولِ الصقليِّ بالعربِ.

كانَ يوفيميوسُ ـ أو فيمى كمَا تُسمِّيه المصادرُ العربيةُ ـ قائدًا للأسطولِ البيزنطيِّ فى صقليةَ. وغضبَ علَيْه الإمبراطورُ ميشيلُ، فأمرَ قسطنطينُ والى صقليةَ بالقبضِ علَيه.

قيلَ إنَّه أحبَّ راهبةً اسمُها هومونيزا لكنَّ والىَ صقليةَ اغتصبَها منه، وقيلَ إنَّه غرَّرَ بإحدَى الراهباتِ وأخرجَها من الدّيرِ وتزوَّجَها قَسْرًا فقرَّرَ الإمبراطورُ مُعاقَبَتَه.

والحقيقةُ أنَّه اغتنمَ فرصةَ قيامِ توماسَ بالثورةِ علَى الإمبراطورِ، وانتصارِ المسلمينَ وفتحَهُم جزيرةَ كريتَ، فثارَ علَى الإمبراطورِ وجمعَ أصحابَه، ومضَى بأسطولِه إلَى مدينةِ سرقوسةَ فى شرقِ صقليةَ، وتصدَّى لَه قسطنطينُ، فانتصرَ يوفيميوسُ علَيه ثمَّ قتلَه بعدَ ذلكَ، ولكنِ انقلبَ علَيه أصحابُه وانضمُّوا إلَى الإمبراطورِ، فاتَّجَه ببعضِ أعوانِه فى سفينةٍ إلى تونسَ حيثُ طلبَ من أميرِ دولةِ الأغالبةِ زيادةِ الله بن إبراهيمَ بنِ الأغلبِ أنْ ينصُرَه علَى خصومِه فى الجَزيرةِ ويصيرُ ملكُ صقليَّةَ مقابلَ ذلكَ.

أقلعَ الأسطولُ الإسلاميُّ مِن مدينةِ سوسةَ فى شهرِ ربيعٍ الأول ٢١٢هـ. بقيادةِ القاضى أسدِ بنِ الفراتِ، وكانَ سبعينَ سفينةً، نزلَ فى مازرَ، ثم أبحرَ إلَى سرقوسةَ فحاصرَها، وخفَّ أسطولٌ بيزنطيٌّ لنجدتِها، وكادت الحملةُ تفشلُ، لولاَ أسطولٌ أندلسىٌّ ساقَه اللهُ ـ سبحانَه وتعالَى ـ من الأندلسِ إلى صقليةَ، ثمَّ وصلتْ مراكبُ كثيرةٌ مِن إفريقيةَ مَددًا للمسلمينَ، فبلغَ عددُ سفنِ المسلمينَ ثلاثمائةِ سفينةٍ، ونزلُوا إلَى

الجزيرةِ، وانهزمَ الرومُ، وسارَ المسلمونَ فِى الجزيرةِ يفتحُونَها بلدًا بلدًا وحصنًا حصنًا حتَّى فتحُوا بلرمَ عامَ ٢١٦هـ.

ومضَت الجيوشُ الإسلاميةُ تجاهدُ فى سبيلِ الله حتَّى فتحتْ معظَمَ المدنِ الصقلية.

وكـانَ لفـتحِ صـقليةَ نـتائجُ، يـأتى فـى مقدمـتها أنْ تحكُّمَ القوَى الإسلاميةَ فى شرقِ وغـربِ الـبحرِ المتوسـطِ، وتأمينُ الساحلِ الإفريقىِّ فلاَ يتعرضُ للإغارة، ولكنْ كانَ أهـمُّ النـتائجِ هوَ انتشارَ الإسلامِ بينَ كثيرٍ من أهلِ صقليةَ، فارتفعَت المآذنُ فى سمائها زمـنًا طَويـلاً، وأصبحَ فِيها عابدونَ مسلمونَ يسجدونَ لله عزَّ وجلَّ، ويُقيمونَ شعائرَ الإسلامِ.

٢٩- أقريطش (كريت)

تسـمِّيهَا المصادرُ العربيةُ أقريطشَ، إنَّها جزيرةُ كريتَ، تقعُ فِى البحرِ المتوسطِ جنوبَ بحرِ إيجَه، فِـى الجـنوبِ الغـربىِّ مِـن تركيًا والجنوبِ الشرقىِّ من اليونان، وهىَ ذاتُ خيرات وفيرةٍ وموقعٍ حربىٍّ خطيرٍ، وقَد دخلَها الإسلامُ علَى يدِ البحارةِ الأندلسيِّينَ عامَ ٢١٢هـ.

وهـؤلاء الأندلسيُّونَ مِن الربضيِّينَ، أهلِ الربضِ القبلىِّ من قُرْطُبَةَ، وكانُوا قَد ثارُوا علَى أمِيرِ الأندلُسِ الحَكَمِ بنِ هشامِ الأموىِّ فنفاهُمْ خارجَ البلادِ، بعضُهم ذهبَ إلَى فاسٍ بالمغربِ، وبعضُهم ذهبَ إلَى الإسكندرية فى أربعِ سفنٍ رسَتْ بهِمْ فى منطقةِ الرملِ وكانتْ خارجَ نطاقِ المدينةِ آنذَاكَ، ثـمَّ تدخَّلُوا فـى الصِّـراعات الجاريةِ بالإسكندرية مِمَّا حَدَا بالخليفةِ المأمونِ إلَى إرسالِ قائده عبدِ الله بنِ طاهرِ بنِ الحُسَينِ إلَيهم، وأمرَهم بالإبحارِ عَن الإسكندريةِ.

كـانُوا ملاَّحِينَ ماهـرينَ، وكـانَ قـائدُهم هـوَ أبَا حفصٍ عمرَ بنَ شُعَيبٍ البلوطىَّ من إحدَى القُرَى المجاورةِ لقُرطبةَ.

اختارَ أبُو حفصٍ جزيرةَ كريتَ مَوطنًا لقومه، وكانتْ مِن أخصبِ أراضِى البيزنطيِّينَ، وكانَ أبُو حفصٍ وأصحابُه قَد ذهبُوا إلَيها أكثرَ من مرة.

أبحرَ الأندلسيونَ مِن الإسكندرية فى أوائلِ عامِ ٢١٢هـ. فاتجهُوا شَمالاً إلى جزيرةِ كريتَ، فنزلُوا فى خليجِ سودَا، وفتحُوا حصنًا واحدًا فأقامُوا به تحصينات منيعةً، ثمَّ حفرُوا خَندَقًا حولَ الحصنِ، ثمَّ خرجُوا يَفتحونَ مدنَ الجزيرةِ وحصونَها حتَّى لَم يعُدْ فِى الجزيرةِ غيرُ أهلِها وطردُوا الرومَ منها، بعدَ أن افتتحُوا ٢٩ مدينةً فيها.

ودعَا المسـلمونَ أهـلَ كريـتَ إلى الإسلامِ وتزَّوجُوا نساءَهم، فنشأَ جيلٌ من المولَّدينَ المسـلمينَ مـن أمَّهـاتٍ كريتـيَّاتٍ وآباءَ مسلمينَ، وانتشرَ الإسلامُ فِي أرجاءِ الجزيرةِ، وثبتَتْ أقدامُ العربِ فيهَا.

وأعلـنَ الأندلسـيونَ ولاءَهـم للدولـةِ العباسـيةِ، فصـارتْ كريـتُ تابعةً لولايةِ مصرَ حَسْـبَ التقسـيمِ الإداريِّ. وكـانُوا يسـتغلُّونَ الأخشـابَ الموجـودةَ بالجزيرةِ فى صنعِ السفنِ.

وحـاولَ الإمـبراطورُ البـيزنطيُّ ميشـيلُ اسـتردادَ كريتَ من أيدى العربِ، لكنَّهُ فَشِلَ لقـوةِ العربِ من ناحيةٍ، ولأنَّ أهلَ أقريطشَ عاونُوا المسلمينَ علَى البقاءِ، وخصوصًا حيـنَما انتشـرَ الإسـلامُ بيـنهم، فقَـد سـارُوا بيـنَهم بالعدلِ والخلقِ الحسنِ، ممَّا حبَّبَ الأهاليَ فِي الإسلامِ.

٣٠- جزر البليار

جـزرُ البليارِ ثلاثٌ، هىَ مَيُورْقَةُ ومَنُورْقَةُ ويابسةٌ، وتقعُ شرقىَّ مدينة بلنسيةَ فِى البحرِ المتوسطِ شرقَ الأندلسِ.

أولُ مَـن غزاهَا عبدُ الله بنُ موسَى بنِ نُصَيْرٍ عامَ ٨٩هـ. ثمَّ غزاهَا عبدُ الرحمنِ الأوسطُ عـامَ ٢٣٤هـ. بسببِ نقضِ أهلِها العهدَ واعتدائهم علَى سفنِ المسلمينَ التى تمرُّ بهمْ، ثمَّ كانَ فتحُها عامَ ٢٩٠هـ. علَى يدِ عصامٍ الخولانىِّ الذى قلَّدَه الأميرُ عبدُ الله ولايتَها لمـدن عشرَ سنوات، فبنَى فيهَا المساجدَ والفنادقَ والحماماتِ، وأحسنَ معاملةَ أهلها، فدخلُوا فى دينِ الله أفواجًا.

وحيـنَما تُوُفِّـىَ عصـامٌ الخولانـىُّ طالـبَ أهـلَ جزرِ البليارِ بأنْ يكونَ ولدُهُ عبدُ الله هوَ الوالىَ الذى يحكمُهُم، فأقرَّه الأميرُ حاكمًا علَى الجزرِ الثلاثِ.

ولكـنَّ عـبدَ الله زَهـدَ فـى الولاية بعدَ فترة، وانقطعَ للعبادة، فتوالَى الولاةُ علَى جزرِ البلـيارِ وامتازُوا بالسيرةِ الحسنةِ، فتمسَّكَ الأهالى بالإسلامِ، وعاشُوا فِى نورِ هدايته، وفِى رحابِ خيرِه الدائمِ.

٣١- الحبشة

تقعُ الحبشةُ فى شرقِ إفريقيَا، تَحُدُّهَا السودانُ من الشمالِ والغربِ، ويحدُّها من الجنوبِ كينيَا وجزءٌ منَ الصومالِ، ويحدُّهَا من الشرقِ بقيةُ الصومالِ والبحرُ الأحمرُ.

عرفَت الحبشةُ الإسلامَ فى سنةِ خمسٍ للهجرةِ. وكانتْ مكةُ قَد ضاقَتْ علَى المسلمينَ، وأوذِيَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ فأمرَ مَن لا يَقْدرونَ علَى تحمُّلِ الأذَى بالهجرةِ إلَى الحبشةِ لأنَّ بها ملكًا لا يُظلَمُ عندَه أحدٌ.

هاجرَ المسلمونَ علَى دُفعَتَين بينَهما بضعةُ أشهرٍ، تسمَّى الدفعةُ الأولَى بهجرةِ الحبشةِ الأولَى، بينَما تسمَّى الأخرَى هجرةَ الحبشةِ الثانيةَ، وكانَ أولُ المهاجرينَ عثمانَ بنَ عفَّانَ - رضىَ اللهُ عَنه - وزوجتَه رُقَيَّةَ بنتَ رسولِ الله ﷺ، وكانَ قائدُ الهجرةِ الأولَى عثمانَ بنَ مَظْعُونٍ، وقائدُ الثانيةِ جعفرَ بنَ أبِى طالبٍ، ومجموعُهم ٨٣ رجلاً و١٨ امرأةً علَى أرجحِ الأقوالِ.

سارَ المهاجرونَ مَا بينَ ماشٍ وراكبٍ حتَّى وصلُوا إلى ساحلِ البحرِ الأحمرِ، فاستأجَرُوا سفينةً بنصفِ دينارٍ حملَتْهُم إلى الحبشةِ.

اختارَ المسلمونَ مكانًا طيِّبَ الهواءِ، قريبًا من الماءِ، حوالَيْه أرضٌ خضراءُ تَصلُحُ للزراعةِ، وبجوارِها موضعٌ فسيحٌ يَصلُحُ للرعيِ، وضَرَبُوا خيامَهم.

قررتْ قريشٌ إرسالَ مَن يأتى بالمسلمينَ من الحبشةِ فبعثَتْ عمارةَ بنَ الوليدِ وعمرَو بنَ العاصِ الذى صحبَ زوجتَه فى رحلتِه، وكانَ عمرٌو مَعروفًا فى بلاطِ النجاشيِّ ملكِ الحبشةِ لعملِه بالتجارةِ فى بلدانٍ مختلفةٍ.

حملَ عمارةُ وعمرٌو هدايَا كثيرةً من الجلودِ والثيابِ والإدَامِ وغيرِه، وحينَ وصلاَ إلَى الحبشةِ ذهبَا إلَى أرْبَجْدةَ كبيرِ البطارقةِ وراعِى الكَنيسةِ فأعطيَاهُ الهدايَا وأعطيَا البطارقةَ

الذيـنَ يستشـيرُهم النجاشـيُّ فـي شـئون الدولـة، حـتَّى يؤيِّـدُوا رأيَهُما بشأن تسليمِ المسـلمِيَن للذهـاب بهم إلى أهلهم. وبعدَ ذلكَ طلبَا مقابلةَ النجاشيِّ فقدمَا إلَيه الهدايَا ففـرحَ بهـا، لكـنَّه أَبَـى تسـليمَ قومٍ ارتَحَلُوا من بلادِهم كَى يجيئُوا ليكونُوا فى جوارِه وحمَايَته، وطلبَهم كَى يستمعَ منهُم.

تحـدَّثَ جعفـرُ بـنُ أبـى طالـب إلى النجاشـيِّ فأخـبرَه بحالهم، وكيفَ أنَّهُم آمنُوا بالله ورسوله ﷺ وأرادَ قومُهم أنْ يعيدُوهُم إلى الكفر، فهربُوا إلَيه بدينهم، وذكرَ لَه مَا يأمرُ به الإسلامُ ومَا ينهَى عَنه، وحينذاكَ طلبَ منه النجاشيُّ أنْ يُسمعَه شيئًا من القرآن.

ورمَـى عمرُو بنُ العاصِ آخرَ سهمٍ فِى جُعْبَته فقالَ للنجاشيِّ: إنَّهم يقولونَ فى عيسَى المسيحِ قَولاً عَظيمًا.

سـألَ النجاشـيُّ جعفـرَ بـنَ أبـى طالـب عمَّـا يقولُه الإسلامُ فى عيسَى ابن مريمَ عليه السلام فأجـابَ جعفـرٌ قـائلاً: يقـولُ إنَّ عيسَـى عليه السلام هـُو عبدُ الله ورسولُه، ورُوحُهُ وكلمتُه ألقاهَـا إلى مريَمَ العَذراء البَتُول. فمالَ النجاشيُّ فالتقطَ عُودًا رَفيعًا منَ الأَرض وقالَ: لا يعـدُو ما نقولُه عَن عيسَى ابنِ مَريمَ عمَّا قلتَه أكثرَ من هَذا العُوَيْد. وقرأَ علَيه جعفرٌ جُـزْءاً مـن سـورة مـريمَ، فقالَ النجاشيُّ وهوَ يبكى: إنَّ هذَا الكلامَ يَخرُجُ منَ المشْكَاة التى جاءَ بها موسَى بنَ عمرانَ، وخرجَ منهَا عيسَى.

وأعطَـى المسـلمينَ الأمـانَ وأعلـنَ حمايـتَه لَهُـم وأكرمَهم، وأعادَ هدايَا عمرٍو وعمارةَ إلَيهما.

أسلَم النجاشيُّ.

قالَ لَه البطريقُ أربجةُ: آمَنْتَ به دونَ أنْ تراهُ؟!

فقـالَ النجاشـيُّ: قَـد سألتُ مَن لا يؤمنُونَ به من قريشٍ عَن نسب الرسول، فقالُوا: هُـوَ فيـنَا ذُو نسبٍ، وهكذَا الأنبياءُ يرسلُهمُ اللهُ ويصطفيهِم من صَفوةِ خلقه. وسألتُ

عَـن حالـه أيطلـبُ مُلكًا؟ فقالُوا: لاَ . وهكذَا الأنبياءُ فى دعوتهم إلى الله خالصةً، لاَ يـبغُونَ مـن ورائها جاهًا ولا سُلطانًا . وسألتُ عَن صدقه، فقالُوا: صادقٌ. . وهكذَا الأنبـياءُ يشـتهرونَ بالصـدق ويتسـمونَ بـالإخلاص. والله إنَّه لرسولُ الله حقًا، وهُو الـذى بشَّـرَ بـه عيسَى فى الإنجيلِ، وستنتشرُ دعوتُه حتَّى تعمَّ الآفاقَ، فخذُوا علَى يد هذَا الرجلِ الأمينِ.

يقـولُ الإمامُ أبُو القاسمِ الخثعمىُّ السهيلىُّ فى كتابه الرُّوْض الأنُف: أمَّا النجاشىُّ فهُو اسمٌ لكلِّ ملك يلى الحبشةَ، كمَا أنَّ كسرَى اسمٌ لمَنْ ملكَ الفرْسَ، وخاقانُ اسمٌ لملك الترك كائنًا مَن كانَ، وبطليموسُ اسمٌ لمَن ملكَ اليونانَ، وقيصرُ اسمٌ لمَنْ ملكَ الرومَ، أمَّـا النجاشـىُّ الـذى هاجـرَ المسـلمونَ فـى عهده وأسلمَ فاسمُه: أصْحَمَةُ بن أبْجَرَ، وأضخمةُ بلُغة الحبشة. . ومعناهَا: عطيَّةٌ.

أدَّى إسـلامُ النجاشـىِّ إلى إسـلامِ كـثيرٍ من أهلِ الحبشة، وجاءَت الأخبارُ سنةَ ٧هـ. بـرفعة شـأن الإسـلام واسـتقراره، فعادَ المهاجرونَ منَ الحبشة إلَى المدينة المنورة، وقَد طلـبَ مـنهم النجاشـىُّ أضـخمةُ أنْ يُبلغُوا رسول الله ﷺ بمَا فعلَه من أجلهم، ويُبلغُوه بإسْلامه، وبعثَ لَه هدايَا، وبعثَ ابنُ أخيه معَ المهاجرينَ ليكونَ خادمًا للنبىِّ ﷺ كمَا بعثَ معَهم بعضَ رجاله.

وقَـد ثبـتَ فـى الصـحيحين من حديث أبى هريرةَ وجابر ـ رضىَ اللهُ عنهُما ـ أنَّه حينَ مـاتَ النجاشـىُّ قـالَ رسـولُ الله ﷺ: مـاتَ الـيومَ رجلٌ صالحٌ، فقُومُوا فصلُّوا علَى أخيكم أضخمةَ.

وتـتابعَ علَـى مـرِّ السـنين إسـلامُ القـبائلِ الحبشـية، فأسـلمَتْ قبيلةُ الحباب، وقبائلُ تـيماريام، وهبـته، وتاكلـيه، وأسـلمتْ قبائلُ الدتاكلِ، وكذلكَ أسلمَ معظمُ أهالى قبيلةِ المنساعِ بعدَ ذلكَ.

وتنتشرُ فى الحبشة الطرقُ الصوفيةُ من قادرية وأحمدية وختمية وشاذلية، وكانَ بناءُ المسجدِ الكبيرِ بجوارِ الكَنيسة دليلاً علَى تآخى المسلمينَ والمسيحيينَ فى الحبشة، تلكَ البلادِ التى لَم يذهبْ إلَيها جندىٌّ مسلمٌ واحدٌ، وإنَّمَا دخلَها الإسلامُ وعرَفَه أهلُها بالدعوة السلمية وحدَها.

ومن أشهرِ المنشآت هناكَ المعهدُ الدينىُّ الذى أنشأه الحاجُّ أحمدُ عبد الرحمنِ هلال المصرىُّ، وكانَ دخولُ الإسلامِ ذَا أثرٍ عميق فى سلوكِ أهلِ الحبشة ومعاملاتهم، ولَم يزلْ أهلُها يزورونَ قبرَ النجاشىِّ أصْحمةَ، مترحِّمينَ علَى أول ملك مسلمٍ شهدتْه الحبشةُ التى رأتْ شمسَ الإسلامِ وهىَ تشرقُ فى البلاد.

تـاريخٌ طويـلٌ وحضارةٌ عظيمةٌ . . تلكَ هيَ بلادُ اليمنِ ، وحدثَ أن احتلتْهَا الحبشةُ ، كـانَ الأحباشُ أقوياءَ واليمنيُّونَ ضُعفاءَ ، التفَّ أهلُ اليمنِ حولَ الأميرِ الفارسِ سيفِ ابنِ ذي يَزَنَ ، ورأى سيفٌ أنَّه لَن يتمكَّنَ من تحريرِ بلادِه إلاَّ إذَا استعانَ بقوةٍ خارجيةٍ ، ذهـبَ إلى قيصـرِ الرومِ فرفضَ مساعدتَه ، فمضَى إلَى كسرَى الفرسِ الذي وافقَ علَى مساعدتَه بعدَ محاولاتٍ مضنيةٍ .

جـاءَ الفـرسُ وعاونُوا أهلَ اليمنِ حتَّى طردُوا الأحباشَ من أرضِهم ، وصارَ سيفُ بنُ ذي يـزنَ ملـكَ الـيمنِ . وقَـد ذهبَ وفدٌ من قريشٍ لتهنئته كانَ علَى رأسه عبدُ المُطَّلبِ جدُّ النبيِّ ﷺ .

قُـتلَ سـيفٌ بعدَ ذلكَ وتشتَّتَ شملُ اليمنِ ، فصارتْ دُوَيْلاَتٍ صغيرةً ، لكلٍّ مقاطعةٍ حـاكمٌ . فأمـرَ كسرَى ملكُ الفرسِ بتعيينِ وَهْرزَ حاكمًا علَى بلادِ اليمنِ ، يتبعُه ملوكُ وأمراءُ المقاطعاتِ اليمنيةِ .

وبعـدَ وهـرزَ حكـمَ أولادُه وأحفـادُه ، حـتَّى آلَ المُلْـكُ إلَـى باذانَ الذي عاصرَ ظهورَ الإسلامِ .

جـاءَ الفـرسُ إلى الـيمنِ بقـوةِ جيوشـهم ، لكـنَّهم جـاءُوا أيضًا بانحرافاتِ مدينتهم ، فامـتلأت الأرضُ بـالانحلالِ الخلقـيِّ والفسـادِ . وعـانَى أهـلُ الـيمنِ كثيراً من وجودِ الفـرسِ في بلادِهم ، خاصةً بعدَ مَقْتَلِ سيفِ بنِ ذي يَزَنَ . وراحَ اليمنيُّونَ يتطلعونَ إلَى بارقةِ أملٍ تضيءُ الطريقَ إلى التحرُّرِ .

كـانَ رسولُ اللهِ ﷺ قَد بعثَ رسالةً إلى كسرَى معَ شجاعِ بنِ وهبٍ . . جاءَ فيهَا : بسمِ اللهِ الـرحمنِ الرحـيمِ ، من محمدِ بنِ عبدِ اللهِ ورسولِه ، إلَى كسرَى عظيمِ فارسٍ ، سلامٌ

علَى مَن اتَّبعَ الهُدَى، وآمنَ بالله ورسوله، وشهدَ أنَّه لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لاَ شريكَ لَه وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه. وأدعوكَ بدعاء الله، فإنِّي أنَا رسولُ الله إلَى الناس كافَّةً، لأنذرَ مَن كانَ حَيًا، ويَحقَّ القولُ علَى الكافرينَ، فإنْ تُسْلِم تَسْلَمْ، وإنْ أبيتَ فإنْ إثْمَ المجوس عليكَ.

غضبَ كسرَى من بداية الرسالة؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ بدأَ بنفسه وباسمه قبلَ ذكر اسم كسرَى، ثمَّ زادَ غضبُه حيَن استمعَ إلَى فَحْوَى الرسالة وقالَ: أنَا.. يكتُبُ إلَيَّ بمثل هذَا عبدٌ من عبيدى؟!

ثمَّ مزَّقَ الرسالةَ. وكانَ تمزيقُها إيذانًا بتمزيق مملكته.

وبعثَ كسرَى برويزُ بنُ هُرمُزَ بن كسرَى أنوشرْوانَ إلَى باذانَ عاملَه علَى بلاد اليمن يأمرُه بإرسال رجلَين قويَّين من عنده كيْ يأتياه بمحمد ﷺ.

كلَّفَ باذانُ بهذه المهمة كُلاً من أباذَوَيْه الوزيرَ الكاتبَ الحاسبَ، وخَرْخَرَةَ الفارسيَّ.. فارتَحلا إلَى الحجاز، فلمَّا قابَلا رسولَ الله ﷺ قالَ أباذَوَيْه: لا بُدَّ أن نصحبَكَ إلى ربِّى (يعنى كسرَى).

فقَالَ رسولُ الله ﷺ: إنَّ ربِّى قَد قتلَ الليلةَ ربَّك. وأبلغَه أنَّ ولدَ كسرَى قَد قتلَه فى تلكَ الليلة التى وصلاَ فيها، وكانَتْ ليلةَ الثلاثاء لعَشْرِ ليالٍ مضَتْ من شهر جُمَادَى الآخرة.

سألاَ: هَل نخبرُ مَولانَا باذانَ بهذَا عنك؟

قالَ ﷺ: نَعَمْ. أخبراهُ ذاكَ عَنِّى، وقولاَ لَه إنَّ دينى وسُلطانى سيبلُغُ ما بلغَ كسرَى، وينتهى إلى الخُفِّ والحافر، وقُولا لَه إنْ أسلمتَ أعطيتُكَ مَا تحتَ يديْكَ، وملَّكتُكَ علَى قومكَ من الأبناء.

والأبناءُ هُم الذينَ من آباءَ فُرسٍ وأمهاتٍ يمنيات.

قـالَ باذانُ لوزيره أباذويْه : إنْ كانَ الأمرُ كمَا قالَ محمدٌ، وقـُتلَ كسرَى فِى اليومِ الذى وصلتُمَا إلَيه فيه، وكانَ شيرَوَيْهُ بنُ كسرَى هُو قاتلَه، يكونُ محمدٌ نَبيًا مرسَلاً.

وجـاءَ وفـدٌ من فارسَ يخبرُ بمَا كانَ، وما قالَه رسولُ الله ﷺ، فانتظرَ باذانُ حتَّى رحلَ الوفدُ الفارسىُّ ثمَّ أعلنَ إسلامَه، ففتحَ الطريقَ لانتشارِ الإسلامِ.

ذهبَـتْ وفـودُ القبائلِ إلَى الحجازِ لإعلانِ إسلامها وذهبَ وفدُ صنعاءَ برئاسة الحارث ابـن كـلال، وحـينَ عـادُوا بعـثَ معَهم رسولُ الله ﷺ بفيروزَ الدَّيلَمىِّ كَى يُبَصِّرَ أهلَ حمْـيَر بديـنِ الإسـلامِ، فصـارَ بإمكانِ أهلِ صنعاءَ أنْ يؤدُّوا عباداتهم كمَا أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ.

وانتشـرَ الإسـلامُ بـينَ أهـلِ صـنعاءَ، وامـتدَّ مـنها إلَـى مَـا جاوَرَها من بلادٍ بالحكمةِ والموعظة الحسنة.

٣٣- عدن

تقـعُ عدنُ فى الجنوبِ الغربىِّ من شبه الجزيرة العربية، سُميتْ باسمِ عَدَنَ بن سنَان بن نُفَيْشَانَ بن إبراهيمَ عليه السلام إذْ كانَ أولَ مَن نزلَها، يفصلُها جبلٌ عَن شبه الجزيرة العربيةِ ـ يحـيطُ بهـا، فحفـرَ أهلُها نفَقًا فى الجبلِ ثبتُوا جوانبَه بدعائمِ الحديد، فصارَ لَهُم بذلكَ طريقٌ إلى البَرِّ، وكانَ أقربُ بئرِ ماء إلى عدنَ علَى بعد مسيرة يومٍ.

كانـتْ عـدنُ أقـدمَ أسـواق العربِ، وكانتْ تختلفُ عَن بقيةِ المدن العربية، فهىَ ميناءُ يجتمعُ التجارُ فيهَا من أرجاء العالمِ، ويسكنُها كثيرٌ من أهالى البلدان المختلفة.

كانَ باذانُ أميرَ صنعاءَ وملكَ بلادِ اليمنِ كلِّها، وكانَ أميرُ عدنَ يتبعُه، بعثَ باذانُ إلَى أمـيرِ عـدنَ يُخبرُه أنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ قَد هداهُ إلَى الإسلامِ، ويدعُوهُ للدخولِ فِى دينِ اللهِ ـ سبحانَه وتعالَى ـ آملاً أنْ يشرَحَ اللهُ صدرَه للإسلامِ.

وأسلمَ أميرُ عدنَ، ووصلَ علىُّ بنُ أبى طالب ـ رضىَ الله عَنه ـ إلَى صنعاءَ قاضيًا عَلَى بلاد اليمنِ، وجاءَ الصحابىُّ الجليلُ مُعاذُ بنُ جبلٍ ـ رضىَ اللّه عَنه ـ إلىَ اليمنِ، يدورُ فى أرجائها، يعلِّمُ الناسَ قراءةَ القرآن الكريمِ حسبَ مَا أمرَه به رسولُ الله ﷺ.

ووصلَ مُعاذُ بنُ جَبَلٍ إلى عدنَ، فالتفَّ حولَه مَن أسلمَ من أهلها، ومن زائريهَا الذينَ جاءُوا بسفنهم للتجارة. فاستمعُوا إلَيه، وتعرَّفَ دينَ الله عددٌ كبيرٌ من البحارة والتجارِ القادمينَ منَ الشرقِ ومنَ الغرب.

كانَ فِى عدنَ صنمٌ كبيرٌ، وعددٌ آخرُ من الأصنامِ أصغرُ منه، فلمَّا وصلَ معاذُ بنُ جبلٍ إلَى عدنَ أمرَ بتحطيمِ الأصنامِ، ثمَّ بنَى مَسجدًا كانَ أولَ مسجدٍ يُبنَى فيهَا.

كانتْ عدنُ مدينةً تجاريةً كبرَى، انتشرَ فيهَا الربَا، كمَا انتشرَ الزِّنَا خاصةً فى الأكواخِ القريبةِ منَ الميناء، وغرقَ أهلُها فى الخمرِ والمَيْسر، فلمَّا دخلَها الإسلامُ حرَّمَ كلَّ ذلكَ، فتبدلَّتْ أحوالُ الناسِ وعاداتُهم. . والتزمُوا بتعاليمِ الإسلامِ وأحكامه، فسارُوا فى طريقِ الصلاحِ. . وزادَ الخيرُ فِى أرجاءِ عدنَ معَ ارتفاعِ صوتِ الأذانِ من مسجدِ معاذِ بنِ جبلٍ.

٣٤- عمان

تقعُ عُمَانُ فى الجزء الجنوبىِّ الشرقىِّ من شبهِ الجزيرةِ العربيةِ، يُطِلُّ قسمٌ منهَا علَى خليجِ عُمَانَ، وقسمٌ علَى بحرِ العربِ فى الجنوبِ.

دخلَ الإسلامُ بلادَ عُمَانَ مُبكراً فى عهدِ رسولِ الله ﷺ.

كانتْ قبائلُ اليمنِ قد هاجرتْ منها إلى الشمالِ حينَ تصدَّعَ سَدُّ مأربٍ وجاءَ سَيْلُ العَرِمِ. ومن هذه القبائلِ الأزْدُ الذينَ ارتحلُوا إلَى عُمَانَ تحتَ قيادةِ زعيمِهِم مالكِ بنِ فهُو صاحبُ البيتِ المشهورِ:

أعلِّمُه الرِّمايـــةَ كلَّ يومٍ ... فلمَّا اشتَدَّ ساعدُه رمانى

وغلبَ الأزدُ علَى عُمَانَ فصارُوا أصحابَها وأهلَها. وكانتْ بدايةُ معرفتهم بالإسلامِ بدايةً غريبةً، بطلُها رجلٌ من قريةِ سمائلَ اسمُه مازنُ بنُ غَضُوبَةَ بن سُبَيْعَةَ من بَنِى طيِّئٍ، كانَ هُو وأصحابُه يضعونَ أصنامَهم فى غرفِ خارجَ القريةِ، ونقلَ مازنٌ صنمَه الذى أسمَاه نَاجراً إلَى غرفةٍ بناهَا لَه فى صحنِ دارٍ، وذبحَ شاةً قُرباناً لصنمِه، فسمعَ كأنَّ صوتًا عَميقًا صادراً من الصنمِ يقولُ:

يا مَازن اسْمَع.. تُسَرّ
ظَهَرَ خيرٌ.. وبَطَنَ شَرّ
بُعِثَ نبىٌّ من مُضَر
بدينِ الله الأكبرْ
فَدَعْ نُحْيتًا من حَجَر
تَسْلَمْ من حَرِّ سَقَرْ

فـزِعَ مـازنُ بـنُ غَضُـوبةَ فـزعًا شـديدًا، وتحاشَـى الاقـتـرابَ من صنمه أيامًا عدةً، ثمَّ تشجَّعَ . . وذبحَ شاةً أخرَى فسمعَ الصوتَ نفسَه يقولُ لَه :

يا مَازن اقْبل . . أَقْبلْ
تَسْمَعْ مَا لا تَجْهَلْ
هذَا نبيٌّ مُرْسَلْ
آمنْ به كي تَعْدل
عن حرِّ نارٍ تُشْعَلْ
وقُودُها الناسُ وجَنْدَلْ

وجـاءَ إلى سمـائلَ فـى تلـكَ الأيـامِ رجلٌ من ثقيفَ، فسألَه مازنٌ إنْ كانَ قَد ظهرَ فى بلادهـم جديـدٌ، فقـالَ الـثقفىُّ: ظهرَ رجلٌ اسمُه محمدُ بنُ عبد الله بن عبد المطَّلب بن هاشـم بـن عـبد مَـناف فى مكةَ، يقولُ لمَنْ جاءَه: أجيبُوا داعىَ الله، فلستُ بمستكبرٍ ولا جـبارٍ ولا محـتال، أدعوكُـم إلى الله، وتركْ عبادة الأصنامِ، وأبشِّرُكُم بجَنَّة عرضُها السـمواتُ والأرضُ، وأستنقذُكُم مـن نـارٍ تـلَظَّى، لا يُطفَـأُ لهيـبُها، ولا يَنعَمُ مَن سكنَها.

حيـنذَاكَ حمـلَ مـازنٌ فأسَـه، وهـوَى بهَـا علَـى صنمه فحطَّمَه، وشدَّ الرِّحالَ إلى بلاد الحجاز، فكانَ أولَ عُمانىٍّ يَفدُ علَى رسول الله ﷺ.

كـانَ مـازنُ بـنُ غضُـوبةَ محـبًا لبلاده ـ بلاد عُمَانَ ـ حُبًا يفوقُ الوصفَ، وأرادَ أنْ يأتىَ قومَه بالخير الذى يُصلحُ أحوالَهم فى الدنيَا والآخرة.

أسـلمَ مـازنٌ بـيَن يـدَىْ رسول الله ﷺ، وسألَه أنْ يدعوَ لأهلِ عُمَانَ، فقالَ ﷺ: اللّهُمَّ اهْدهـمْ وثَبِّـتْهُمْ. قـالَ مـازنٌ: . زِدْنى يَا رسولَ الله، فقالَ ﷺ: اللهُمَّ ارزُقْهُمْ العَفَافَ والكَفَافَ والرِّضَا بما قدرتَ لَهم. قَالَ مازنٌ: يا رسولَ الله . . إنَّ البحرَ ينضحُ بجانبنا

فـادعُ اللهَ فـى ميرَتـنا وخُفِّنَا وظَلَفنا. فقالَ ﷺ: اللَّهُمَّ وسِّعْ علَيهمْ فى ميرَتهم، وأكثِرْ خيرَهُـم مِـن بحـرِهم. قـالَ مازنٌ: زِدْنى، فقالَ صلواتُ الله وسلامُه علَيه: اللَّهُمَّ لاَ تسلِّطْ علَيهم عَدُوًا من غيرهم.

وعـادَ مـازنُ بنُ غضُوبةَ إلَى قرية سمائلَ فى عُمَانَ، فدعَا زوجتَه وأقاربَه إلَى الإسلامِ فأسلمُوا.

كـانَ يحكُـمُ عُمَـانَ فـى ذلـكَ الوقت جَيْفَرٌ وعَبْدٌ ابنا الجَلَنْدَىِّ وقَد أملَى رسولُ الله ﷺ كتابَـيْن علَـى أبَىِّ بن كعب ـ رضىَ اللهُ عَنه ـ وأوفدَ بهمَا عمرَو بنَ العاص إلى عُمَانَ.

جـاءَ فـى الكـتاب الأول: مِـنْ محمـد رسول الله، إلَى أهلِ عُمَانَ، أمَّا بعدُ. فأقرُّوا بشـهادَة ألاَّ إلـهَ إلاَّ اللهُ، وأنِّـى محمـدٌ رسـولُ اللهِ، وأقـيمُوا الصـلاةَ، وأدُّوا الـزكاةَ، واعمُرُوا المساجدَ، وإلاَّ غزوتُكُم.

وجـاءَ فـى الكـتاب الـثانى: من محمد رسول الله، إلَى جيفر وعبد ابنَى الجَلَنْدَىِّ، أمَّا بعدُ، فإنِّى أدعوكُم بدعايَة الإسلام، أَسلمَا تَسلمَا، فإنِّى رسولُ الله إلَى الناس كافَّةً، لأنـذرَ مَـن كانَ حَيًا، ويَحَقَّ القولُ علَى الكافرينَ، فإنْ أسلمتُمَا ولَّيْتكُمَا، وإنْ أبيتُما فإنَّ مُلككُما زائلٌ عنكُما، وخيْلى تَطَأَ ساحتكُما، وتظهرْ نبوَّتى علَى مُلككما.

استحضـرَ جـيفرُ بـنُ الجلـندىِّ جماعـةً مـن حكماء الأزد، وبعثُوا إلَى كعب بن برشةَ العـودىِّ، فسـألُوه عَن أمرِ النبىِّ ﷺ، فقالَ: إنَّه نبىٌّ، وقَد عرفْتُ صفتَه، وإنَّه سيظهَرُ علَى العرب والعَجَم.

وأسـلَمَ كعـبٌ وعـبدٌ وجيفرٌ، وبعثُوا إلَى وجوه الناس ورؤسائهم فبايَعُوهم للنبىِّ ﷺ ودخلُـوا فـى ديـنه، وألـزمَهم تسـليمَ الصدقة، وكلفُوا عمرَو بنَ العاص باستلامها.

واستقبلَ عربُ عُمَانَ الإسلامَ بالقَبول الحسن، ومَا من عربىٍّ فى طُول البلاد وعَرْضها إلاَّ أسلمَ مُختاراً طائعًا راضيًا بالله ربًا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً.

٣٥- جزر المالديف

تقعُ جزرُ المالديف في المحيط الهنديِّ، جنوبَ غربيِّ جزيرة سريلانكا، بينهما مَا يقربُ من ٤١٧ ميلاً. وجزرُ المالديف عبارةٌ عَن أرخبيل، والأرخبيلُ مجموعةٌ من الجزرِ المتقاربة، ويتكوَّنُ أرخبيلُ المالديف من عدد كبيرٍ من الجزائر الصغيرة يصلُ إلَى ١٢٧١ جزيرة، منها ٢١٥ جزيرة آهلة بالسكان، وبقيةُ الجزائر خاليةٌ لا يسكنُها أحدٌ. وتلكَ الجزرُ تخلُو منَ السكانِ لعدة أسباب، فهيَ صغيرةٌ جدًا تتعرضُ لطُغيان البحرِ خاصةً في مواسمِ العواصف، وأراضيها صخريةٌ لا تُنبتُ شيئًا، وتفتقرُ إلى الماء العذب، ويضافُ إلى كلِّ ذلكَ مَا انتشرَ بينَ الأهالي من خرافات مرعبة تحدثُ في تلكَ الجزر.

عددُ سكان المالديف نحو مليون نسمة يتكلمونَ لغةً اسمُها الدِّيْفَهِيَّةُ تكتبُ من اليمين إلى اليسار. وأهلُها جميعُهم مسلمونَ.

ومنْ عجائبِ الأقدار أنْ تقعَ أحداثٌ غريبةٌ، تسوقُ شيخًا فقيهًا من أقصَى بلاد المغربِ حتَّى يصلَ إلى جزر المالديف، فيكونَ سَبَبًا في إسلامِ أمة المالديف بأكملها.

وتبدأ الحكايةُ حينَ علمَتْ ريَّةُ زوجةُ الشيخِ حافظ بن أبي البركات البربَريِّ المغربيِّ أنَّ أبَاهَا موسَى بنَ عبد الكريم ـ الذي ذهبَ للحجِّ ـ محبوسٌ في مصرَ، أبلغَها بذلكَ أحدُ القادميَن من هناكَ، فصرختْ ريةُ، وطلبَتْ من زوجها أنْ يسافرَا إلى مصرَ لعلَّهُما يستطيعان إنقاذَ أبيها وفكَّ حبسه.

ويخرُجُ الشيخُ حافظٌ وزوجتُه، فيرتحلان إلى مصرَ علَى ظهرِ إحدَى السفن، وحينَ يصلان إلى الإسكندرية يعلَمان سببَ حبسِ موسَى بن عبد الكريم فقَد ماتَ الحافظُ لدينِ الله سنةَ ٥٤٤هـ. وبموته اندلعَت الفتنُ بينَ فرقِ الجيشِ الأرمنية والسودانية

والتركـية وعمَّـت الفوضَـى، وبويـعَ الظافرُ بنُ الحافظ، وكانَ عمرُه ١٧ سنةً، وكانَ الوزيـرُ الـذى تولَّى تدبيرَ المملكة هُوَ الأميرَ نَجْمَ الدين بنَ مَصَال المغربىَّ، ولمْ يرضَ ابـن سـلاَّر والـى الإسكندرية والبحيرة عَن تولِّى نجمِ الدين الوزارةَ، الذى أقامَ وزيراً لمدة شهرين اثنَين.

كـانَ موسَـى بـنُ عـبد الكـريم مُقـيمًا بالإسـكندرية خلالَ هذه الأحداث، فوشَى به أحدُهـم، وقـالَ لابـن سـلاَّر إنَّ موسَى المغربىَّ من أعوانِ الوزيرِ نجمِ الدين بن مصال المغربىِّ، لذلكَ قـُبضَ علَيه وأودِعَ فى السجن.

لكـنَّ الشيخَ حافظَ بنَ أبى البركات وزوجتَه ريةَ فوجئَا بأنَّ أباهَا قَد هربَ من السجن مـنذُ شـهرَين. وعلمَـا أنَّ موسَى بنَ عبد الكريم زارَ الشيخَ عبدَ الرحمن الدمياطىَّ بعدَ هروبه، فارتحلاَ إلى دمياطَ، وهناكَ أخبرَهما الدمياطىُّ أنَّ موسَى بنَ عبدِ الكريم أبلغَه أنَّه سيرتحلُ إلى الشيخ عبدِ الرحمن بن أحمدَ الحلبىِّ المقيم فى دمشقَ.

واصـلَ الشـيخُ حافظٌ وزوجتُه الرحلةَ فذهبَا إلى دمشقَ وحينَ قابَلا الشيخَ عبدَ الرحمن الحلبىَّ أبلغَهُما أنَّ موسَى جاءَه بالفعل، لكنَّه خشىَ أنْ يسلمَه حكامُ دمشقَ إلَى حكام مصـرَ فقـررَ الذهـابَ إلى بغـدادَ؛ لأنَّ حكامَها لنْ يسلمُوهُ لمصرَ، وأعلمَهم أنَّه أعطاهُ خطـابَ توصـيةٍ لصـديقه أبى علىٍّ الحسنِ بن صالحِ البغدادىِّ، شيخِ مدرسةِ الحديث هناكَ.

قـالَ لهُمـا البَغدادىُّ إنَّ الشـيخَ موسَـى بـنَ عـبد الكـريم المغربىَّ قَد ارتحلَ إلى البلاد الحجازيـة ليقـيمَ فى مكَّةَ المُكرَّمَة والمدينة المنوَّرة. وعلمَ الشيخُ حافظٌ أنَّ أولَى القوافلِ الذاهـبةِ إلى مكـةَ المكرمة ستبدأَ رحلتَها من بغدادَ بعدَ ثلاثة أسابيعَ ولَم يكُنْ أمامَه غيرُ الانتظار.

كـانَ الشـَّمَّاخيُّ أحـدَ زعمـاء القـبائلِ فـى عـدنَ وواحداً من أكبرِ التجار، وبينَما هُو يطـوفُ بالكعـبةِ المشـرفة رأى مجموعةً من الرجال تعدُو، ودفعَه أحدُهم فكادَ يسقطُه أرضًـا، سألَ رجالَه الذينَ حولَه عَن الأمرِ، فأخبرُوه أنَّ هؤلاء بعضُ الجنود المصريينَ جـاءُوا للعُمـرةِ ولمحُـوا رجـلاً مطلوبًـا فـى مصـرَ، حينَ رآهُم جرَى فأسرعُوا وراءَه للإمســاكِ بـه، غضبَ الشماخيُّ وقالَ: مَن كانَ في بيت الله فهُوَ آمنٌ، اذهبُوا فائتُونى بذلـكَ الـرجلِ فهُـوَ فـى حمايَـتى. وجـاءُوا لَه بالرجلِ، وأعلنَ أنَّه فى جواره وحمايته وعـرَفَ المصـريونَ مكانـتَه، فـتوقَّفُوا عَـن مطـاردةِ الهاربِ، لكنَّهم انتظرُوا أنْ تسنَحَ الفرصةُ للقبضِ علَيه.

لمَ يكـنْ ذلـكَ الـرجلُ الهاربُ غيرَ الشيخِ موسَى بن عبد الكريمِ المغربىِّ. وحينَ عزمَ الشـماخيُّ علَـى العـودة إلى عـدنَ اصطحبَ موسَى معَه حمايةً لَه ممَّنْ يبغُونَ إعادتَه إلَى السجنِ، خاصةً أنَّه وجدَه عالمًا جَليلاً.

وصـلَ الشـيخُ حـافظُ بـنُ أبـى البركات وزوجتُه ريَّةُ إلى مكةَ المكرمة، وظنَّا أنَّها آخرُ المَطاف، لكنَّهما حينَ سألاَ عَن موسَى المغربىِّ عَلما ما حدثَ لَه، وقيلَ لهُمَا إنَّه ارتحلَ إلى عَدَنَ معَ التاجرِ الشماخىّ.

وصـلَ حافظٌ وريةُ إلى عدنَ وسألاَ عَن الشماخىِّ، فقيلَ لَهما إنَّ أخبارَه عندَ رجلٍ فى الميـناء اسمُـه يَحـيَى السَّـهْلىُّ، سألاَهُ عَن الشماخىِّ، فقالَ لَهُما: مَتَى تريدان رؤيتَه؟ قـالاَ: فـى أسـرعِ وقـت ممكـن. فقالَ: إذَنْ أدركَا تلكَ السفينةَ التى ستُبْحرُ الآنَ كَى تُقـابلاه.. أسـرعَ حـافظٌ وريـةُ إلى السفينة، وحينَ سألاَ عَن الشماخىِّ نَهرَهُمَا الرُّبَّانُ لانشغاله ببَدْء الإبحار، وأبحرَت السفينةُ فسألاَ أحدَ الملاَّحينَ، فأجابَهما بأنَّ الشماخىَّ لـيسَ علَـى ظهرِ هذه السفينة، صرخَ حافظٌ وظنَّ أنَّ يحيَى قَد خدعَه، فأبلغَه الملاَّحُ أنَّ يحـيَى لَـمْ يَخْدَعْـهُ؛ فالشماخىُّ قَد أبحرَ إلى بلادِ الهندِ علَى ظهرِ سفينة منذُ ثلاثة أيامٍ،

وهَـذه السـفينةُ سوفَ تُدركُ سفينةَ الشماخىِّ هُناكَ، وبذلكَ يمكنُهُما مقابلةُ الشماخىِّ فى أقربِ وقت ممكن كمَا طلبَا. سألاَ الملاحَ عَن الشَّيْخِ موسَى المغربىِّ، فأكدَ لَهما أنَّه معَـه، فالشـماخىُّ لا يفارقُـه. . حيـنذاكَ اسـتراحَ الشـيخُ حـافظُ بـنُ أبـى الـبركات واسـتراحَتْ ريـةُ، وتحمَّـلاَ الإبحارَ إلى بلادِ الهِنْدِ وهُمَا يَأملان أنْ يُقابلا الشيخَ موسَى بمجرَّدِ وصولهما.

فـى ذلـكَ الوقـت كانتْ تجرى أحداثٌ أخرَى. وافقَ سلطانُ المالديف علَى عملِ مائة تمـثال لـبوذَا الـذى يعـبُدونَه، بـناءً عـلى اقـتراحِ وزيـره صولُو، علَى أنْ يتمَّ تكليفُ كاسـينجَ صـانعِ التماثـيلِ بعملهـا. سـوفَ يصـيرُ كاسـينجُ ثريًا، ومقابلَ ذلكَ طلبَ صـولُو أن يـزوِّجَه أخـتَه تـيمَا، ووافقَ كاسينجُ بالطبعِ، لكنَّ تيمَا لمْ توافقْ، فالوزيرُ يمتلكُ ستينَ زوجةً، وتيمَا متزوجةٌ من كوهارَ الذى تحبُّه ولا تريدُ غيرَه زوجًا لَها.

لمْ تجـدْ تـيمَا وكوهـارُ أمامَهمـا مـن مُنقذ غيرَ الفرار، فأبحرَا ليلاً منْ جزيرة مالى إلَى الشـمال الشـرقىِّ حـتَّى وصَـلاَ إلَى سـواحلِ الهـندِ، فـنزلاَ هـناكَ، واستقرَّا فِى أحدِ البيُوتِ.

أطلـقَ الوزيـرُ صـولُو الحراسَ للبحث عنهُما فى كلِّ جزر المالديف، لكنَّهم لَم يقعُوا لهُما علَى أثر، فأمرَهُم الوزيرُ بالإبحار إلى الهند للبحث عَنهُما.

علمَ كوهارُ بوصول سفينة الشماخىِّ من عدنَ، فدعاهُ إلى الغداء فى داره، كَى يطلبَ مـنهُ بعـدَ ذلـكَ أنْ يَصحبَهُ هُو وتيمَا إلى بلاده، وبذلكَ يصيران بَعيدَين عَنْ مُتَنَاوَل يَد الوزير صولُو.

وصـلت السفينةُ التى تُقلُّ الشيخَ حافظًا وريةَ، سألَ حافظٌ عَن الشماخىِّ، فقيلَ لَه إنَّه مدعـوٌّ إلَى الغداء فى دارِ رجلٍ اسمُه كوهارُ، فطلبَ أنْ يدلَّه أحدُهم علَى تلكَ الدار، وذهـبَ هُوَ وريةُ، وفوجِئَ الشيخُ موسَى بهِما، وارتمَتْ ريةُ علَى صدرِ أبيها وأخذَتْ تبكِى من شدة الفرحِ.

وخـرجَ الشـماخيُّ لقضـاء حاجـة خارجَ الدار. وفجأةً هجمَ علَى الدارِ جنودُ الوزيرِ صـولُو، فقبضُـوا علَـى مَـن فيهَا، وسارُوا بِهِم إلَى سفينتِهم، وأبحرُوا بِهم إلى جزيرةِ مالِى عاصمةِ جُزُرِ المالْديف.

وأثـناءَ الـرحلة مـن الهـند إلَـى المـالديف كـانَ الإجهادُ قَد أخذَ مِن الشيخِ موسَى كلَّ مَأخَذ، فأسلمَ الرُّوحَ حينَ اقتربُوا من جزيرةِ مالى.

بمجـرد وصـولهم علـمَ السـلطانُ أنَّ علَـى السفينة رجُلاً متوَفًّى، وعلَيها رجلٌ عربىٌّ وزوجتُه، بالإضافة إلى تيمَا وزوجها كوهارَ، فطلبَ إحضارَهم إلَيه.

أسـرعَ الوزيـرُ إلى قصـرِ السـلطانِ حـينَ عـلمَ بذلكَ، ولكنَّه وصلَ بعدَ أنْ كانتْ تيمَا وكوهارُ قَد قصَّا علَيه قصةَ هروبِهما من الوزير صولُو.

أبلـغَ السـلطانُ وزيـرَه صـولُو أنَّ كوهـارَ وزوجتَه تيمَا فى حمايته، وأنَّ الشيخَ حافظًا وزوجتَه فى حمايته أيضًا، ولمْ يَشأْ توبيخَه أمامَهم علَى ما فعلَ.

وحيَن قصَّ الشيخُ حافظٌ قصتَه علَى مسامعِ الحاضرينَ قالَ لَه السلطانُ: " كأنَّ كلَّ مَا جرَى لكَ يا حافظُ كانَ من أجلِ أنْ تجيءَ إلينَا".

قالَ الشيخُ حافظٌ: اللهُ أعلمُ.

سألَه السلطانُ: ومَن اللهُ؟

قـالَ: اللهُ الواحـدُ الأَحـدُ الخـالقُ.. الـذى خلـقَ الكونَ والخلقَ جميعَهم.. اللهُ الحىُّ القَيُّومُ.. إلهُ العالَمينَ.

ودارَ حـوارٌ علَـى مـدَى عـدة أيـام، تحـدَّثَ الشيخُ حافظٌ إلَى السلطان عَن الإسلام، وأسـلمَ السـلطانُ، ودعـَا شـعبَه إلى الإسـلامِ، وبـنَى الشـيخُ حافظُ بنُ أبى البركات مسـجدًا فـى جَزيـرة مـالى، وراحَ يدعُـو رجالَ المالديف إلَى الإسلامِ ويعلِّمُهم سُبُلَ العبادة، وراحَتْ ريةُ تُعلِّمُ النساءَ، واعتادَا الحياةَ فِى جزرِ المالديف منذُ أنْ وصَلا إلَيها عامَ ٥٤٨هـ.

أسـلمَ أهـلُ جـزُر المالديف جميعُهم، وانتشرَتْ في جزائرهم المساجدُ والمدارسُ ودُورُ العـلمِ، ومرَّتْ أحداثٌ كثيرةٌ علَى تلكَ البلاد، أغارَ عليهَا البرتغاليُّونَ سنة ٩٦١هـ. فظَـلَّ أهلُهَـا يقـاومُونَ المحتلِّينَ حتَّى نالُوا استقلالَهم بعدَ ٢٠سنةً، وأغارَ عليهَا أيضًا الملـباريُّونَ سـنةَ ١١٦٦هــ. فاحـتلُّوهَا ٧ سـنوات، ثمَّ صارَتْ من دُوَلِ الكُمنْولْث، لكـنَّها نالـتْ اسـتقلالَها عـامَ ١٩٦٥م علَـى يدِ السلطانِ حسنِ عزِّ الدينِ. . ولَم تَزَلْ شمسُ الإسلامِ مشرقةً دائمًا في جُزُرِ المالديف.

٣٦- ملقا

استيقظَ الأميرُ باراميسورُ ذاتَ يومٍ وقد قرَّرَ أمرًا مُهمًّا، استدعَى مُهَندسًا، وطلبَ منهُ أنْ يخطِّطَ مدينةً تُبْنَى علَى شاطئِ جزيرةِ الملايُو، وتُطلُّ علَى الخليجِ الذى يفصلُ بينَ جزيرةِ الملايُو وجزيرةِ سُومَطْرَةَ، وهمَا تقعانِ فى الجنوبِ الشرقىِّ لقارَّةِ آسيَا.

أطلقَ الأميرُ علَى مدينتِه اسمَ (مَلَقَا) وأرادَ لَها أنْ تكونَ مَيناءً تجاريًا ينافسُ ميناءَ فاساىَ الواقعَ علَى الساحلِ الشمالىِّ الشرقىِّ لجزيرةِ سومطرةَ.

اهتمَّ الأميرُ باراميسورُ بمدينةِ مَلَقَا، فأصبحتْ ميناءً تجاريًا مُهمًّا، وازدهرتْ يومًا بعدَ يومٍ حتَّى صارتْ أهمَّ مركزٍ تجارىٍّ بالمنطقةِ، وكانَ للأميرِ باراميسورَ ابنٌ اسمُه الأميرُ إسكندرُ، كانَ فى العاشرةِ من عمرِه وشعرَ بسعادةٍ غامرةٍ حينَ علمَ أنَّ أباهُ سيصحبُه فى رحلةٍ بحريةٍ علَى سواحلِ جزيرةِ الملايُو.

وعلَى بُعدِ آلافِ الكيلُومتراتِ شعرتِ الأميرةُ سلمَى بسعادةٍ غامرةٍ أيضًا، حينَ علمتْ أنَّ أباهَا سوفَ يصحبُها فى رحلةٍ بحريةٍ. كانتْ تقيمُ فى بلادِ عُمانَ بشرقِ شبهِ الجزيرةِ العربيةِ، وكانتْ والدتُها من بناتِ الأسرةِ الحاكمةِ، وكانَ والدُها عبدُ اللهِ العمانىُّ من كبارِ التجارِ. قرَّرَ عبدُ اللهِ أنْ يصحبَ ابنتَه الأميرةَ سلمَى فى رحلتِه التجاريةِ إلى بلادِ الصينِ بعدَ وفاةِ والدتِها.

كانتِ الأقدارُ تحملُ خيرًا كثيرًا لكلٍّ من إسكندرَ وسلمَى، ولَم يخطرْ ببالِ أحدٍ مَا سيحدُثُ فى البلادِ البعيدةِ حينَ أبحرتِ السفينةُ بتجارِ عُمانَ فى سنةِ ألفٍ وثلاثمائةٍ وتسعينَ للميلادِ.

كانتِ الرحلةُ طويلةً جدًا من خليجِ عُمانَ إلَى المحيطِ الهندىِّ، ثمَّ سواحلِ الهندِ الغربيةِ، فالجنوبيةِ، ثمَّ اتجهتْ شَمالاً مَعَ سواحلِها الشرقيةِ، ثمَّ مضَتِ السفينةُ شَرقًا إلى بُورْمَا، ثمَّ أبحرتْ مسافةً طويلةً جهةَ الجنوبِ، فلمَّا وصلتْ إلى جزيرةِ سومطرةَ

دفعتْ بها الريحُ مسافات ومسافات، ولَم يتمكَّن الربَّانُ من التحكُّم فيها، فتحطَّمَتْ علَى بعض الصخور وألقَى البحارةُ قواربَ النجاة من السفينة، وقفزَ الجميعُ إلى الماء، منهُم مَن تشبَّثَ بلَوح خشبىٍّ من ألواح السفينة ومنهُم مَن أدركَ مكانًا فى القوارب، وكانَ عبدُ الله العمانىُّ يحملُ ابنتَه سلمَى بذراعه، حتَّى ركبَا أحدَ القوارب، ونَجَا معظمُ ركَّابِ السفينة، ووصلُوا إلى الشاطئ سالمينَ حينَ أسرعَ بعضُ سكَّان فاساىَ بإنقاذهم.

صلَّى الجميعُ لله - عزَّ وجلَّ - حَمدًا وشكرًا علَى فضله؛ إذْ نجَّاهُمْ منَ الغرق، ورآهُم أهلُ فاساىَ وهُم يصلُّونَ، فتعجَّبُوا وتساءَلُوا، وحينذاكَ بدَأ التاجرُ عبدُ الله العُمانىُّ يحدثُهم عَن الإسلام.

تعاطفَ أهلُ فاساىَ معَ التجار المسلمينَ، فأعطَوْهُمْ قُروضًا كَى يُتاجرُوا بها، ثمَّ يسدِّدُوهَا علَى أقساط، ووفَّرُوا لَهم مساكنَ يدفعونَ إيجارَها من أرباحِ تجارتهم، وأعجبُوا بأخلاق العرب.

مرَّت الأيامُ ونجحتْ تجارةُ المسلمينَ، وبعدَ عشرة أعوام صارتْ لهُم أموالُهم التى يتاجرُونَ بها، ودكاكينُهم التى يملكونَها وكذلكَ مساكنُهم، ونتيجةً لحُسنِ أخلاقهم دخلَ بعضُ أهالى فاساىَ الإسلامَ.

تُوُفِّىَ الأميرُ باراميسورُ، ووَلِىَ الحكمَ ولدُهُ إسكندرُ الذى صارَ مَلكًا للبلاد. وذهبتْ إلَيه الوُفودُ للتهنئة، وكانَ التاجرُ عبدُ الله لا يترُكُ ابنتَه وحدَها، لذلكَ اصطحبَها معَه إلَى مَلَقَا ضمْنَ مَنَ ذهبُوا كَىْ يُهنِّئُوا الملكَ الجديدَ.

وقفَ المهنِّئُونَ فى ساحة القصر، وخرجَ الملكُ إسكندرُ إلى الشُّرفة ليشكرَهُم، وحينذاكَ رأَى سَلمَى. لفَتَ انتباهَهُ جمالُها، ولفتَ انتباهَه حياؤُها؛ فهىَ لَم ترفعْ إلَيه عينَيهَا، وأرادَ أنْ تكونَ زوجةً له، فهمسَ لأحدِ المقرَّبينَ إلَيه بأنْ يأتيَه بمعلوماتٍ عَن تلكَ الفتاة.

جاءَ رجلٌ - ذاتَ يومٍ - إلى فاسايَ، وطلبَ منَ التاجر عبد الله أنْ يذهبَ بابنته لمقابلة الملك إسكندرَ في قصره بمدينة مَلَقَا. تعجَّبَ عبدُ الله من الطلب، لكنَّه اصطحبَ سلمَى، وذهبَ إلى الملك.

أحسنَ إسكندرُ استقبالَهما، وسألَهُما عَن أحوالهما، واستفسرَ عبدَ الله عَن سبب مجيئهما، فأخبرَه الملكُ أنَّه يرغبُ في أنْ تكونَ سلمَى زوجةً له.

قالَ التاجرُ عبدُ الله العمانيُّ: مثلُكَ لا يُرَدُّ له طلبٌ أيُّهَا الملكُ إسكندرُ.. ولكنْ قاطَعَهُ الملكُ بسرعة: ولكنْ ماذَا؟

قالَ عبدُ الله: نحنُ قومٌ مسلمونَ أيُّهَا الملكُ، ودينُنَا يُحَرِّمُ زواجَ المسلمة من غيرِ المسلمِ، وأنتَ لستَ مُسلمًا.

علَّقَ الملكُ قائلاً: أنَا لا أعرفُ شيئًا عَن دينكُم.

قالَ عبدُ الله: إذَا شئْتَ حدَّثْتُكَ.. لقَد كانَ الناسُ في ضلال، يعبدونَ الأصنامَ مثلكُم، ويعيشونَ حياتَهم بلا ضوابطَ، فبعثَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - رسولَه الكريمَ ﷺ ليهديَ الناسَ إلى سَواء السبيل، ويُخْرِجَهُم من الظلمات إلى النور، ويعلِّمَهم مَا فيه صلاحُهم في الدُّنيَا والآخرة، فأدَّى رسالةَ ربِّه، وتركَ فينَا القرآنَ الكريمَ الذي هُوَ كلامُ الله عزَّ وجلَّ.

سألَ إسكندرُ: وإلَى أيِّ شيء يدعُو دينُكم؟

أجابَ عبدُ الله: يدعُو دينُ الإسلامِ إلَى عبادة الله الواحد الأحد، والإيمان بما أنزلَه علَى رسوله الكريمِ ﷺ، ويدعُو إلَى الأمر بالمعروف واتباعه، ويدعُو إلى النَّهْي عَن المنكَر واجتنابه.

ظلَّ إسكندرُ يسألُ وعبدُ الله العُمانيُّ يجيبُ، وفي نهايةِ الجلسة قالَ إسكندرُ: أشهَدُ ألاَّ إلَهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله.

حينذاكَ أطلَّتْ شمسُ الإسلامِ بنورِها الفيَّاضِ علَى مملكة مَلَقَا ، وكرَّرَ إسكندرُ طلبَ الزواجِ بسَلمَى ، فأبلَغَه عبدُ الله بموافَقته ، لكنَّ سلمَى قالتْ لَه : لا زواجَ أيُّها الملكُ إلاَّ إذَا دفعتَ مَهْرى .

تعجَّبَ عبدُ الله من كلامِ ابنته .

بينَما ضَحكَ الملكُ إسكندرُ وقالَ لَها : أعطيكَ نصفَ مملكة مَلَقَا إذَا شئت يا سَلمَى .

فقالتْ لَه : ليسَ هذَا مَا أرغَبُ فيه أيُّهَا الملكُ ، إنَّمَا مَهرى أنْ تدعُوَ شعبَك ورعيَّتَكَ إلى اعتناقِ الإسلامِ ، وتُساعدُ أبِى فِى أنْ يوضِّحَ للناسِ فضلَ الإسلامِ ، ليُدرِكُوا أنَّ فيه صلاحَهم فى الدنيَا والآخرة .

قالَ الملكُ : بَل آمُرُهُم جميعَهم بالدخولِ فِى الإسلامِ ؛ فأنَا قَد اقتنعْتُ به ، وأراهُ الدينَ الحقَّ .

حينذَاكَ قالَ عبدُ الله : لاَ أيُّهَا الملكُ إسكندرُ ، لاَ إكراهَ فى الدين ، إنَّما نوضِّحُ لَهُم فضلَ ديننا وتعاليمَه بالحُسْنَى والدعوةِ الطيبةِ ، فمَن هداهُ اللهُ - عزَّ وجلَّ - إلَى الإسلامِ فقَد اهتدَى .

أسلَم الملكُ إسكندرُ بنُ باراميسورَ سنةَ ألف وأربعمائة للميلاد ، ودعَا شعبَه للإسلامِ ، ودارَ عبدُ الله العمانىُّ يُبَيِّنُ للناسِ فضلَ الدينِ الحنيفِ ، ويعلمُ الناسَ دينَهم .

وتبدلَّتْ أحوالُ الناسِ وتغيَّرَتْ عاداتُهم وسلوكُهم ، حطَّمُوا أصنامَهم بأيديهم ، وتطهَّرُوا ، وأقامُوا الصلاةَ ، وآتَوُا الزكاةَ ، وصامُوا شهرَ رمضانَ . كانَ الرجلُ منهُمْ يتزوَّجُ بنساءٍ كثيرات ، وكانَتْ لَدَيْهم عاداتٌ اجتماعيةٌ سيئةٌ ، فلمَّا انتشرَ الإسلامُ بينَهُم تحسَّنَ سلوكُهم ، واستمسكُوا بتعاليمِ الإسلامِ .

توسَّعَتْ مملكةُ مَلَقَا ، وضمَّتْ ولايات أخرَى إلَيها ، فانتشرَ الإسلامُ انتشاراً واسعًا ، وأدَّى ذلكَ إلى انتشاره خارجَ مملكة مَلَقَا أيضًا عَن طريق التجار ، فاعتنقَه أهَالى جُزُر آسيَا الجنوبية ، وتوافَدَ كثيرٌ من الدُّعاة المسلمينَ إلَى مَلَقَا فصارَتْ مركزًا لنشر الإسلامِ ، وتوالَى علَيها الملوكُ المسلمونَ بَدْءاً من إسكندرَ ، ثمَّ محمد ، فإبراهيمَ ، فقاسمٍ ، ثمَّ مُظَفَّرٍ ، ثم منصورٍ ، ثم علاءِ الدينِ رعاية ، ثم محمودٍ .

وكانَ رئيسُ الوزراءِ تون بيراق ذَا دَورٍ مهمٍّ ؛ إذْ جعلَ مِن تشريعاتِ الإسلامِ القانونَ الرئيسَ للبلاد .

عانَى أهلُ مَلَقَا من الاستعمار البرتغالىِّ بعدَ ذلكَ ، لكنَّهم نالُوا حريتَهم مرةً أخرَى ، ولمْ تَزَلِ المساجدُ شامخةً فى مَلَقَا ، تعلُو من مآذنها دعوةُ الحقِّ ، ويستمسكُ أهلُها بتعاليمِ الدينِ الحنيفِ ؛ فإنَّ مَلَقَا شهدَتْ شمسَ الإسلامِ وهىَ تشرقُ فى البلاد .

٣٧- الملايو

أشـرقتْ شمـسُ الإسلامِ علَى شبه جزيرة الملايُو دونَ سيوفٍ، ودونَ جيوشٍ، ودونَ وفـود، إنَّمـا هُـو رجـلٌ واحـدٌ فـتحَ الـنافذةَ للشمسِ المضيئة، فاعتنقَت الإسلامَ أمةٌ بـأكملِها لينتقلَ أهلُها من الجاهلية والوحشية والشرِّ إلَى الإيمان والرُّقىِّ والخير.

تقَـعُ شبهُ جزيرة الملايُو فى جنوب شرقىِّ آسيَا، وتتصلُ بالهند الصينية شَمالاً، ويحيطُ بهَـا غَـربًا وشَـرقًا خلـيجُ البنغال، وأرضُها جبليةٌ صخريةٌ، وتكادُ تنفصلُ عَن القارة الآسيوية، ولا يربطُها بها إلا برزخٌ عندَ خطِّ ١٠ شمالَ خطِّ الاستواء.

وتشـتملُ تلكَ المنطقةُ علَى جبالٍ شاهقة ومجموعات من الأشجار الكثيفة قسَّمَتْ شبهَ جزيـرة الملايُـو إلى ممـالكَ كـثيرةٍ فـى قديمِ الزمان، لكنَّ ذلكَ لَم يمنعْ من انتظامها فى إمـبراطورية عظمَـى هـىَ إمـبراطوريةُ سـرى ويجايـا Sri wijaya الـتى ضـمَّت الملايُو وأندونيسـيَا وغيرَهما، ثمَّ تلتْها إمبراطوريةُ ماجَا بَيْت Maja Pahit التى ضمَّتْ الملايُو وجَـاوَه والفلـبِّين وسنغافُوره وجزائرَ الملوكِ وبورنيُو وغيرَها. والملايُو الآنَ هىَ القسمُ الغربىُّ من دولة ماليزْيَا.

ويـتكوَّنُ سـكانُ شـبه جزيـرة الملايُـو مـن ثلاثـة عناصـرَ أساسية، الملايَوىّ والصينىّ والهـندىِّ. وكـانَ أهلُ الملايُو يعتنقُونَ عبادات بدائيةً مثلَ عبادة قُوَى الطبيعة من رياحٍ وأمطار ورعد وبرق وغيرها، ثم انتقلُوا فى عباداتهم إلَى البوذية والهندُوكيَّة، وكانتْ فـى الـبوذية خلافاتٌ كثيرةٌ، بينَما فرضت الهندوكيةُ عادات وتقاليدَ الهنود علَى أهلِ الفلبين، ومن هُنَا لَم تكنْ لدَى أهلِ الملايُو حماسةٌ للتمسُّك بهذَين الدينين، لذلكَ كانَ كـثيرٌ منهُم يعبدُ الأصنامَ. وكانَتْ ولايةُ قويدةَ فى الشمالِ رأسَ بلاد الملايُو وحاكمُها المسمَّى الرَّاجَة هوَ حاكمَ البلاد.

خـرجَ الشـيخُ عـبدُ الله اليمنيُّ العربيُّ من عدنَ علَى ظهرِ إحدَى السفنِ كَى يتاجرَ فى بـلادِ الصـينِ، ولكـنْ حينَ وصلَت السفينةُ قربَ سواحلِ الملايُو جنحتْ نتيجةً للريحِ الشـديدة فاصـطدمَتْ بصـخور وغرقـتْ، وشـاءَت الأقدارُ أنْ يتعلقَ الشيخُ عبدُ الله العربىُّ بأَحدِ الألواحِ الخشبيةِ حتَّى يصلَ مُجْهَدًا إلى شاطئِ شبه جزيرة الملايُو.

تعـرَّفَ الشـيخُ عبدُ الله علَى الراجة حاكمِ بلاد الملايُو وحينَ حدثَّه عَن الإسلامِ قالَ له الراجةُ: "إنْ كانَ حقًا مَا تقولُ أرجُو أنْ تعلِّمَنا هذَا الدينَ الجديدَ وتهدينَا بنوره". لَم يتوقَّعِ الشيخُ عبدُ الله العربىُّ أنْ يكونَ الأمرُ بهذَا اليُسرِ، لذلكَ شعرَ بسعادة بالغة حينَ سمعَ كلماتِ الراجَة.

ويصـفُ سـير تومـاس أرنولـد هـذَا الموقـفَ فى كتابه (الدَّعْوة إلَى الإسلام) فيقولُ: "فـرحَ الشـيخُ عـبدُ الله فـرحًا عَظـيمًا لذلـكَ، وتهلَّـلَ وجهُـه، واحتضَنَ الراجةَ بينَ ذراعَيْه، ومضَى يشرحُ لَه تعاليمَ الإسلامِ".

وشـرحَ اللهُ - عـزَّ وجـلَّ - صـدرَ الـراجَة للإسـلامِ، فأسـلمَ بـينَ يدى الشيخ عبد الله العربىِّ، ثمَّ قامَ إلى الأصنامِ التى بالقصر يدفعُها بيدَيْه فيحطمُها، ويهوى بالفأس علَى الأصـنامِ المصـنوعة مـن الذهـب والفضـة، وجـاءَتْ نسـاءُ القصـرِ فرأَيْنَ هذَا المنظرَ وتعجَّبْنَ منه، فأخذَ الشيخُ عبدُ الله يحدثُّهنَّ عَن الإسلامِ.

أسـهَمَتْ شخصـيةُ الـراجَة فـى نشـر الدينِ الإسـلامىِّ؛ فقد كانَ مُطيعًا لأوامرِ الدين ملتزمًا بتطبيقها، فكانَ مَثَلاً طَيِّبًا لأمَّة بأكملها تَبعَتْ خُطَاهُ.

أسـلمَ شـعبُ ولايـة قويـدة فـى شمـال الملايُو، وأمرَ الراجةُ ببناء المساجد، وأمرَ بأنْ يلْحَقَ بكـلِّ مسـجد ٤٤ شخصًـا علَـى الأقلِّ من السكان يقيمونَ فيه ويعكُفُونَ علَى العبادة، ومضَى الشيخُ عبدُ الله العربىُّ يبشِّرُ بالإسلامِ، وجاءَ إلَيه الناسُ من كلِّ مكانٍ كىْ يَعتنقُوا الدينَ الجديدَ ويتعلَّمُوا شعائرَه علَى يديْه.

وتبدَّلَت العاداتُ الاجتماعيةُ التى كانَ يتبعُها سكانُ الملايُو، فعلمُوا أنَّ القتلَ حرامٌ، وأنَّ الرجلَ لا يتزوجُ أكثرَ من أربعِ نساء، وأنَّ معاشرةَ النساء والفتيات دونَ زواجٍ حرامٌ. وتعلَّمُوا التطهُّرَ ورَأَوْا فى الدينِ الإسلامىِّ تنظيمًا مُحكمًا لحياتِهم، يجعلُهم يعيشونَ حياةً كريمةً.

كانَ ذلكَ فى القرنِ الأولِ للهجرة.

ولمْ يكنِ الشيخُ عبدُ الله اليمنىُّ العربىُّ وحدَه الذى وصلَ إلَى شبه جزيرة الملايُو فى ذلكَ الزمان، فقَد نقلت السفنُ غيرَه من مسلمِى العرب، ممَّنْ وهبُوا أنفسَهم للدعوةِ الإسلاميةِ، فنزلُوا فى أجزاءَ أخرَى من شبه الجزيرة يدْعُونَ أهلَها إلى الإسلامِ.

وانتشرَ الإسلامُ، وكَثُرَت المساجدُ ودُورُ العلمِ، وظلَّ أهلُ الملايُو متمسكِّينَ بدينِ الله، يسعَونَ إلى الاستزادة من العلومِ الدينية، وخيُر دليلٍ علَى ذلكَ جامعةُ ماليزيَا الإسلاميةُ التى تُعَدُّ من أكبرِ الجامعاتِ الإسلاميةِ فِى العالَمِ التى تُعنَى بدراسة علومِ الدينِ.

٣٨- جاوة

تقعُ جاوةُ فى جنوبِ شرقِ آسيَا، وهىَ ثانيةُ كبرَى الجزرِ فى دولةِ إندونيسيَا التى تتكوَّنُ من ٧٩٠٠ جزيرة . كبرَى تلكَ الجزرِ سومطرةُ، تَليها جزيرةُ جاوةُ.

وجاوةُ أغنَى جزرِ إندونيسيَا وأكثرُها سُكانًا، تكسُوهَا الخُضرةُ، وتكثُرُ فيهَا الطيورُ ذاتُ الألوانِ البديعة، فيها مدنٌ شهيرةٌ، أهمُّها مدينةُ جاكَرْتَا عاصمةُ إندونيسيَا، وباندُونْجُ التى عُقدَ فيها مؤتمرُ دُوَلِ عدمِ الانحياز، ومدينةُ جوكُ جاكرتَا وهىَ العاصمةُ الثقافيةُ للبلادِ، وفى وسطِ جاوةَ توجَدُ مدينةُ صولُو، وهىَ مستقَرُّ العربِ منذُ زمنٍ بعيدٍ فى تلكَ البلاد.

تحدَّثَ رامايانا المؤرِّخُ الهندىُّ عامَ ١٥٠م. عَن جاوةَ فقالَ: "انظُرْ جَيدًا إلى جاوةَ التى فيهَا سبعةُ ملوكٍ، فهىَ جَزيرةُ الذهبِ والفضةِ". هذه العبَارةُ جعلتِ الهنودَ يهاجرونَ إلى جاوةَ فى وقتٍ مبكرٍ.

وقد فكَّرَ الخليفةَ معاويةَ بنَ أبى سُفيانَ فى غزوِها، وكانتْ تحكمُها آنذَاكَ ملكةٌ اسمُها سيما. وبعثَ معاويةُ رجلاً إلى جاوةَ ليعرفَ أخبارَها وإمكانيةَ غزوِها، فعادَ يقولُ لَه: "أنصَحُكَ بصرفِ النظرِ عَن غزوِها يا أميرَ المؤمنينَ؛ فإنَّ بينَك وبينَ جاوةَ أهوالَ البحارِ والأسفارِ الطوالِ، إنَّ بينَكَ وبينَها أممًا وممالكَ كثيرةً، والأجدَى أنْ تكونَ جيوشُك حولَك".

وصرفَ معاويةُ النظرَ عَن غزوِها، آملاً أن يُقَيِّضَ اللهُ لَها مَن ينشرُ الإسلامَ فيها.

وكانَ فى دمَشْقَ آنذاكَ رجلٌ اسمُه عبدُ الله، أحبَّ أنْ يذهبَ إلى جاوةَ كَى يدعُوَ أهلَها إلى دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

أبحرَ عبدُ الله علَى ظهرِ إحدَى السفنِ التجاريةِ من عُمانَ إلى اليمن، ثمَّ من اليمنِ إلَى الهند، ثمَّ من الهندِ إلى جاوةَ، وذهبَ إلَى مدينةِ صولُو حيثُ يقيمُ العربُ، لكنَّهم لَم يكونُوا قَد سمعُوا شيئًا عَن الإسلامِ.

دعاهُم عبدُ الله إلَى دينِ الله فأسلمُوا وهَداهُم اللهُ، ثمَّ أشرقَ نورُ الهدايةِ علَى قلبِ سامُو، وإلى مدينةِ صولُو، وبدَأ الناسُ يدخلونَ فى الإسلامِ سرًا، وبعضُهم أحجمَ خوفًا من بَطشِ أميرِ جاوةَ، وكانَ العربُ الذينَ أسلمُوا قَد علَّمهم الشيخُ عبدُ الله حتَّى صارُوا دعاةً جميعُهم.

ذهبَ سامُو إلى الأميرِ ومهَّدَ لَه بالحديثِ عَن الإسلامِ وبعضِ ما يدعُو إليه، فطلبَ الأميرُ مقابلةَ الشيخِ عبد الله، فلمَّا استمعَ إليه هداه اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى الإيمان.

أعلنَ الأميرُ إسلامَه، فأعلنَ الألوفُ إسلامَهم، وأحبَّ كلُّ فردٍ من رعيَّته أن يتعرَّفَ هذَا الدينَ الجديدَ. واهتمَّ الناسُ بملاقاةِ الدعاةِ الذينَ انتشرُوا فى جزيرةِ جاوةَ يدعونَ أهلَها إلى دينِ الله.

وانتشرَ الإسلامُ بينَ أهلِ جزيرةِ جاوةَ، وانتشرت المساجدُ فى أرجائها، وفُتحَت المعاهدُ التى يُشعُّ منها نورُ العلمِ حيثُ يتمُّ تدريسُ علومِ الدينِ فيها، وظلَّتْ صولُو فى وسطِ الجزيرةِ مَركزًا للإشعاعِ الإسلاميِّ، بعدَ أن دخلَها الإسلامُ فى القرنِ الأولِ الهجريِّ، وشهدَتْ شمسُ الإسلامِ وهيَ تشرقُ فى البلادِ.

٣٩- بلاد سَرَوَاك

تـتكوّنُ مالـيزيَا مـن جُـزئَين، الغـربىُّ مـنهمَا شبهُ جزيرة الملايُو، والشرقىُّ عبارةٌ عَن ولايـتَين فـى جزيـرة بورنـيُو هُمَا سَرَوَاك وصبَاح، وتوجَدُ جزيرةٌ صغيرةٌ تتبعُ ماليزيَا أيضًـا اسمُهـا أنامـباسُ، تقـعُ بينَ شبه جزيرةِ الملايُو وجَزيرة بورنيُو جهةَ الشمالِ من بورنيُو.

مساحةُ سَرَوَاك ٤٨ ألفَ ميلٍ مربعٍ، وعاصمتُها كوشنجُ، وبها جبلُ موروِدُ، وهُوَ من أعلَى جبالِ العالَمِ؛ إذْ يصلُ ارتفاعُه إلى ٨٠٠٠ قدمٍ.

بـدأتْ ـ فـى جزيـرةِ أنامـباسَ ـ الأحـداثُ الـتى سـتؤدِّى إلى انتشارِ الإسلامِ فى بلادِ سَرَوَاكَ.

أبحـرَ الشـيخُ أحمـدُ وزوجتُه عُلا من مَلَقَا بشبه جزيرة الملايُو إلى جزيرة أنامباسَ ليدعوَ أهلَهـا الوثَنـيِّينَ إلى الإسـلام عامَ ١٤٣٠م. ولكنْ هبَّ مَن استثارَ الناسَ ضدَّه وكادُوا يقـتلونَه لَولا أنَّ أحدَهم أنقذَه، وصحبَه معَه إلى عمِّه فى بلاد سَرَوَاكَ بعدَ أيامٍ قلائلَ. ونصـحَه بعـدمِ دعـوةِ الناسِ هناكَ قبلَ أنْ يعرفُوهُ ويتعاملُوا معَه، وإلاَّ حدثَ لَه مثلَما حدثَ فى أنامباسَ.

اتخذَ الشيخُ أحمدُ دكَّانًا فى السوق، وطبقَ تعاليمَ الإسلامِ، فقنعَ بالربحِ القليلِ، وامتازَ بالأمانة والصدق والعطف علَى الفقراء، فراجَتْ تجارتُه وأحبَّهُ أهلُ سَرَوَاكَ.

بـدَأ الشـيخُ أحمـدُ يحـدِّثُ أهـلَ السوق عَن الدينِ الإسلامىِّ، وذكرَ لَهم أنَّ هذَا الدينَ يقولُ إنَّ فى مال الغنىِّ نصيبًا للفقراء والمحتاجينَ يتمثَّلُ فى الزكاة وفى الصَّدَقة، ومالَ الـناسُ إلى ذلـكَ الديـنِ؛ إذْ كـانُوا جميعُهم فقراءَ ما عَدَا طبقةَ الحكامِ والكَهَنَة. وقالَ الشيخُ أحمدُ إنَّه لا كاهنَ بينَ الإنسانِ وبينَ خالقه.

حاولَ كاهنُ سَرَوَاكَ استعداءَ الأميرِ على الشيخ أحمدَ، ودارَ جدالٌ بينَ الكاهنِ والشيخِ أحمدَ فى وُجودِ أميرِ سَرَوَاكَ، انتهَى بإسلامِ الأميرِ وخروجِ الكاهنِ غاضبًا.

بعثَ الأميرُ فى اليَوم التالى لاستدعاء الكاهنِ، لكنَّه كانَ قَد حملَ مَا فى المعبَد من أموالٍ ونفائسَ وتُحَف وجواهرَ واختَفَى، بحثَ الحراسُ عَنه فى سَرَوَاك كلِّها فلَم يجدُوا لهُ أثرًا. كانَ قَد ارتحلَ إلى بلاد صباحَ التى تجاورُ بلادَ سَرَوَاكَ من ناحية الشرق، وحيَن وصلَ إلَيها كانَ كاهنُها قَد ماتَ قبلَ يومَين، ففرحَ به أميرُ صباحَ وعيَّنَه كاهنًا للبلاد.

وفى سَرَوَاكَ كانَ الناسُ يدخلونَ فى دين الله أفواجًا بعدَ أفواجٍ، وطلبَ الشيخُ أحمدُ من الأميرِ رغبتَه فى بناء مسجد، فحشَدَ الأميرُ جميعَ البنَّائينَ الموجودينَ فى سَرَوَاكَ وأمرَهم بسرعة بناءِ المسجد حسبَ المُواصفات التى ذكرَها الشيخُ أحمدُ.

وتخيَّرَ أحمدُ مجموعةً من أهلِ سَرَوَاكَ يصلحونَ للتأهيلِ كَى يكونُوا دعاةً فى المستقبلِ، فبذلَ معَهم جُهدًا عَظيمًا، حتَّى تمَّتْ إجازتَهم، وانتشرُوا فى أرجاء سَرَوَاكَ عبرَ مدنها وقُراهَا يدعونَ الناسَ للإسلامِ، ويبصرُّونَهُم بتعاليمِ دينهم.

ذاتَ يوم قُتلَ أميرُ سَرَوَاكَ، فأمسكُوا قاتلَه، وعلمُوا أنَّه من بلاد سَرَوَاكَ، وأنَّ الكاهنَ أرسلَهُ لقتلِ الأميرِ، وأرسلَ زميلاً لَه لقتلِ الشيخِ أحمدَ، فقبضُوا علَى المجرمَيْن.

وانتشرَ الإسلامُ فى بلاد سَرَوَاكَ، تلكَ البلاد التى كانتْ جُزءاً من سلطنة بُرُونَاىَ العُظمَى، ثمَّ وُضعتْ تحتَ الحمايةِ البريطانية، ثمَّ تخلَّصت من تلكَ الحماية حينَ انضمَّتْ إلَى اتحاد ماليزيَا الفيدرالىِّ، وهىَ بلادٌ يتمسَّكُ أهلُها بتعاليمِ الدينِ الحنيف، وينشِّئُونَ أولادَهم تنشئةً إسلاميةً صحيحةً.. فإنَّ سَرَوَاكَ شهدتْ شمسَ الإسلامِ وهىَ تشرقُ فى البلادِ.

٤٠- بلاد صباح

تقعُ بـلادُ صَـبَاحَ شـرقَ بـلاد سـرواكَ، وكانـتْ هىَ أيضًا أحدَ أقاليمِ سلطنة بروناىَ العظمَى التى كانتْ تحكمُ كلَّ جزيرة بورنيُو فى جنوب شرق آسيَا.

وحـيَن انتشـرَ تلامـيذُ الشيخ أحمدَ فى سرواكَ أسلمَ معظمُ أهلِ القرَى، ومَن لَم يُسلمْ كانَ يخرُجُ منها مُتَّجهًا شرقًا، حتَّى تجمعُوا فى قريةٍ على حدود بلاد صبَاحَ.

كـانَ الأمـيرُ الجديـدُ عنـيفًا، فأمـرَ بقـتالهم، وبعثَ فى جمع جنوده، وقادَهم إلى تلكَ القرية، لكنَّه وجدَهم قَد دخلُوا بلادَ صبَاحَ.

مضَـى الشـيخُ أحمـدُ إلى أمـيرِ صَبَاحَ فـى كوتاكيـنَا بـالُو عاصـمة البلاد، وحدثَّه عَن الإسـلام، وشـرحَ اللهُ ـ عـزَّ وجـلَّ ـ صدرَ الأمير للإسلام، وعلمَ الكاهنُ بما جرَى، وعلـمَ أنَّ الحاضـرينَ فـى مجلس الأمـيرِ قَـد أسلمُوا أيضًا. فحملَ مَا لَديه من أموالٍ وجواهـرَ فـى جـوالٍ، وسـارَ مـعَ خادمـه حتَّى وصلَ إلى بلدة كوداتَ المُطلة علَى بحر الصـين الجـنوبىِّ، الواقعـة فـى أقصَى الشمال الشرقىِّ من بلاد صبَاحٍ، حيثُ أقلَّتهُما سفينةٌ إلى جزيرة أنامباسَ، فهىَ الجزيرةُ التى رفضَ أميرُها الدخولَ فى الإسلام.

كـانَ أمـيرُ سرواكَ يحشدُ جنودَه علَى حدود بلاد صبَاحَ، فبعثَ إلَيه الشيخُ أحمدَ يعلْمُهُ بإسلامِ الأمير وحاشيته، ويطلبُ منهُ عدمَ غزو بلاد صبَاحَ.

ودعَـا أمـيرُ صَبَاحَ قومَـه إلى ديـن الله، وبـذلَ الشـيخُ أحمـدُ جهدًا عظيمًا حتى انتشرَ الإسـلامُ فـى أرجـاء الـبلاد، ارتحـلَ فى الصَّحارى والجبال والسهولِ والوديان يدعُو لدين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومعَه معاونُوهُ وتلاميذُه الذينَ وهبُوا أنفسَهم للدعوة الإسلامية، فانتشرَ الإسلامُ فى دولة صبَاحَ.

٤١- جزيرة أنامباس

قـرَّرَ الشـيخُ أحمدُ العودةَ إلى جزيرة أنامباسَ لدعوة أهلها مرةً أخرَى للإسلام، خاصةً أنّـه علمَ أنَّ الأميرَ قد ماتَ، وصارَ يحكمُها ملكٌ عاقلٌ عادلٌ. وكانتْ له رؤيةٌ سياسيةٌ تختلفُ عـن رؤيـة الأمـير السـابق، لذلـكَ بـدَّلَ العاملينَ فى البلاط، وجاءَ بمعاونينَ يتوافَقُ تفكيرُهم معَ رؤيته السياسية.

بعـثَ سـفراءَه إلى الـبلاد المجـاورة، وبعـثَ وزيـرَه إلى مَلَقَـا فعـادَ يخـبرُه عَن أخلاق المسـلمينَ، وكـيفَ يصـطفُّونَ جمـيعُهم فـى مسـجدهم أثـناءَ الصـلاة، ويتركُ التجارُ دكاكيـنَهُم مفـتوحةً دونَ حراسـة فَـلا يسـرقُها أحدٌ؛ فهُم يتحلَّوْنَ بالأمانة والصِّدق. وأحبَّ الملكُ أنْ يعرفَ أكثرَ عَن الإسلام.

وصـلَ الكـاهنُ فـى ذلـكَ الوقـت إلى أنامـباسَ فأكرمَه الملكُ ووفَّرَ له حياةً كريمةً. ثمَّ وصلَ الشيخُ أحمدُ إلى مجلسِ الملك، ففرحَ الملكُ به وسألَه عَن الإسلامِ فشرحَ اللهُ ـ جلَّ وعَلا ـ صدرَه للإسلام.

حيـنذاكَ حمـلَ الكـاهنُ أموالَه، وقرَّرَ الإسراعَ بالابتعاد عَن أنامباسَ، فأسرعَ إلى أول سـفينة مـبحرة، وبعـدَ إبحارهـا علمَ أنَّها متجهةٌ إلى كوشنجَ عاصمة سرواكَ. وهناكَ قبضَ علَيه هُوَ وخادمَه.

لَحـقَ تلامـيذُ الشـيخِ أحمـدُ به فى أنامباسَ، ففرَّقَهم فى أنحاء الجزيرة يُبَصِّرُونَ الناسَ بالإسـلامِ وتعالـيمه، وبـنَى مسـجدًا بهَـا، وحـينَ فرغَ من بنائه بنَى مَعهدًا مُجاورًا له لتدريس العلوم الشرعية.

أسـلمَ أهـلُ أنامـباسَ، وحسـنَ إسـلامُهُم، وواظَـبُوا علَى الصلاة والزكاة والصوم، واجـتَهَدُوا فـى تعلُّـم كـلِّ مَـا يخصُّ الدينَ من علومٍ شرعية؛ فقَدْ أشرقتْ فى بلادهم شمسُ الإسلامِ.

٤٢- بلاد الصين

تحتلُّ الصينُ مساحةً كبيرةً من شرق قارة آسيَا، وهيَ كبرَى الدول فى عدد السكان؛ إذْ يزيدُ عددُ سكانها علَى مليار نسمة. ويوجَدُ بها الآنَ عددٌ كبيرٌ جداً منَ المساجد والزوايَا يُعَدُّ بالألُوف.

اتصلَ العربُ ببلاد الصين بواسطة طريقين، أحدُهُما بحرىٌّ يبدأ من سيرافَ بخليج عُمانَ ويمرُّ بسواحلِ الهند وسيلانَ والملايُو حتَّى يصلَ إلَى موانئِ الصين الجنوبية، وأشهرُها مدينةُ كانتونَ، وهيَ بوابةُ الصين البحريةُ، والمركزُ التجاريُّ الشهيرُ، وفيهَا أقامَ عددٌ كبيرٌ منَ المسلمينَ، وأقامُوا بهَا مسجداً اسمُه ذكرَى النبىِّ.

والطريقُ الثانى برىٌّ يبدأ من سواحلِ الشام فيمرُّ بالعراق وإيرانَ، ثمَّ يتجهُ فى أحد اتجاهين: الأولُ عَبْرَ تُرْكستانَ مَاراً بسمرقندَ، ويسمَّى طريقَ الحرير، والثانى عَبْرَ كشميرَ فِى باكستانَ ويسمَّى طريقَ التوابلِ.

تعرَّفَ الصينيُّونَ بصورة واسعة علَى الإسلامِ حينَ غزاهُم قتيبةُ بنُ مسلمٍ فِى أواخرِ القرن الأول الهجرى، ووقفَ بجيوشه علَى حدودهم، فبعثَ لَه إمبراطورُ الصين يطلبُ إرسالَ وفد للتحدُّث إلَيه، فبعثَ قتيبةُ ١٢ رجلاً برئاسة هُبَيْرَةَ بن المُشَمْرَج الكلابىِّ الذى كانَ قائداً مغْوَاراً، فَصيحًا بَليغًا، متوقدَ العقلِ.

دخلَ الوفدُ العربىُّ إلى مجلس الإمبراطور ثلاثةَ أيام متتالية فى اليوم الأول ارتدَوْا ثياباً بيضاءَ نظيفةً وتعطَّرُوا، وذهبُوا إلَى المجلسِ حيثُ جلسُوا قَليلاً ثمَّ قامُوا فانصرَفُوا، سألَ الإمبراطورُ مُعاونيه: ماذَا رأيتُم؟.. قالُوا: إنَّهُم مثلُ النساء شَمَمْنَا عطورَهُم حينَ جاءُوا. وفى اليومِ الثانى ارتدَى وفدُ العرب عباءات مزركشةً فاخرةً، ودخلُوا فجلسُوا قَليلاً، ثمَّ قامُوا فانصرفُوا دونَ أن يتكلَّمُوا، وفِى اليومِ الثالث جاءُوا يرتدُونَ

لباسَ الحربِ من دروعٍ وغيرِها، وقد حملُوا أسلحتَهم، وجاءَت الخيولُ تركضُ بهم مثلَ الريحِ حتَّى وصلُوا إلى بدايةِ المجلسِ، فزعقُوا ففزِعَ مَن بالمجلسِ، وعادُوا يركضُونَ بخيولِهم مبتعدينَ.

استدعَى الإمبراطورُ رئيسَهم هُبيرةَ واستفسرَ منهُ، فقالَ: أمَّا ثيابُنا في اليومِ الأولِ فهُوَ حالُنا إذَا أتَيْنا أهلَنَا فيجدونَ ريحًا طيِّبًا وهيئتُنا جميلةٌ، وزيُّنا في اليومِ الثاني هُو ما نَكونُ علَيه إذَا أتيْنَا أمراءَنا، فنكونُ في ثيابٍ فاخرةٍ موشَّاةٍ وعمائمَ، أمَّا حالُنا في اليومِ الثالثِ فهُوَ مَا نكونُ عليه إذَا هجْنَا للحربِ والقتالِ فنكونُ علَى ما رَأيتُمونَا.

قالَ الإمبراطورُ: إنَّ جيشِي قويٌّ وجيشكُم ضعيفٌ فعودُوا إلى بلادكم.

فقالَ هبيرةُ: كيفَ يكونُ ضَعيفًا مَن كانَ أولُ جيوشِه عندكَ وآخرُهَا عندَ منابتِ الزيتونِ في بلادِ الشامِ؟

سألَ الإمبراطورُ: فماذَا يَبغي أميرُكم؟

أجابَ هبيرةُ: لقَدْ أقسمَ الأميرُ قتيبةُ ألاَّ يعودَ إلاَّ حينَ تدفعُ الجزيةَ، ويطَأ ترابَ بلادكم، ويستعبدُ أولادَكَ.

كانَ الإمبراطورُ حكيمًا.. لَم يشَأ الدخولَ في حربٍ معَ المسلمينَ حتَّى يمكنَه الحفاظُ على سرِّ الحريرِ الذي يمثلُ القوةَ الاقتصاديةَ العظمَى لبلادِ الصينِ، وتحايَلَ كَي يبرَّ قتيبةُ ابنُ مسلمٍ بقسَمه، فبعثَ لَه الجزيةَ، وبعثَ صفحتَين كبيرتَين من الذهبِ ملأَهُما بترابِ الصينِ حتَّى يطَأه قتيبةُ بقدَمَيْه، ثمَّ طلبَ منهُ خاتَمَه كَي يختمَ أولادَه بهِم دَليلاً علَى أنَّهُم عبيدٌ لقتيبةَ.

انتشرتْ أخبارُ مَا حدثَ، وتساءَلَ الناسُ عَنِ الإسلامِ الذي أعطَى العربَ هَذه القوةَ، وكانَ في الصينِ أعدادٌ من التجارِ المسلمينَ يدعونَ إلى الإسلامِ سرًا، فلمَّا حدثَ ذلكَ أخذُوا يحدثونَ أهلَ الصينِ عنِ الإسلامِ فاعتنقَه عددٌ منهُم.

ثـمَّ زادَ عـددُ المسـلمينَ مـن أهـلِ الصـينِ معَ مُرورِ الزمنِ، ولقَّنَ الصينيونَ أنصارَهم مـبادئَ الإسـلامِ، وبعـدَ ذلكَ بدأوا في إنشاءِ المساجدِ الصغيرة والزوايَا، إلَى أنْ أنشأَ لاتشـوما أولَ معهـدٍ إسـلاميٍّ بأحدِ مساجدِ الصينِ، ثمَّ ظهرَ رجلٌ اشتُهرَ باسمِ (هاي بايـا) أيْ وليّ الله. أطلقَ الصينيونَ علَيه هذَا الاسمَ، وقَد أخذَ تَصريحًا منَ الإمبراطورِ بإنشاءِ مدرسةٍ فِي المسجدِ، وقامَ بدورٍ مهمٍّ فِي نشرِ تعاليمِ الإسلامِ وتعليمِ العباداتِ.

جـاءَ بعـدَه خوتـاي شـي، وقـد أطلقَ علَيه الصينيُّونَ اسمَ (خوتاي شي) أي الأستاذَ الأكـبرَ، كمَـا أطلقُـوا علَـيْه لقبَ (خوبو جاو) أي الضوءَ الشاملَ. وقَد أدَّى فريضةَ الحجِّ، ثمَّ عادَ إلى الصينِ فتوسَّعَ فِي إنشاءِ المدارسِ في الجوامعِ، فأدَّى ذلكَ إلى انتشارِ العلـومِ الدينية من تفسيرٍ وفقه وحديثٍ وغيرِها، وقَد وافقَ الإمبراطورُ علَى ذلكَ؛ إذْ كانـتْ دولـةُ منجَ قَد قامتْ فِي الصينِ، وهيَ دولةٌ امتازتْ بالتسامُحِ الدينيِّ، وقامتْ بخدمـاتٍ جلـيلةٍ للإسـلامِ والمسـلمينَ، ويكفي أنْ نعلمَ أنَّه كانتْ تقيمُ ٣٠ ألفَ أسرةٍ مسـلمةٍ فِـي مدينـةِ كنجـنفو فـي أواخرِ القرنِ ١٥ الميلاديِّ، وكانُوا يقيمونَ شعائرَهُم الدينيةَ بمنتهَى الحرية.

كـانَ المغـولُ يحـتلونَ الصينَ، وثارَ عليهم الصينيونَ وأسَّسُوا دولةَ منجَ عامَ ١٣٦٨م. وتوالَى الحكامُ حتَّى آلَ الحكمُ إلَى الإمبراطورِ هنج وو.

يقـولُ سـير توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام "بعثَ الشاهُ رخ بهادر، ملكُ بـلادِ خُراسـانَ، رسالتَين إلى إمبراطورِ الصينِ هنج وو، وكانتْ هاتان الرسالتان سَببًا فِي اعتناقِ إمبراطورِ الصينِ للإسلامِ، حسبَ قولِ التاجرِ المسلمِ المؤرخ سيد على أكبر (الباكسـتاني) الـذي قضَـى فـترةً مِـن الـزمنِ فِـي بكـينَ فِي نهايةِ القرنِ الخامسَ عشرَ الميلاديِّ".

كانَتْ إحدَى الرسالتين باللغة العربية، والأخرَى باللغة الفارسية، وكانَ نصُّ الرسالة العربية كالآتى: "لا إلهَ إلاَّ اللهُ محمدٌ رسولُ الله، قالَ رسولُ الله عليه السلامُ: لا يزالُ من أمَّتى أمةٌ قائمةٌ بأمر الله، لا يُنصَرُ مَن خذلَهم، ولا يُطاعُ مَن خالفَهُم، حتَّى يأتىَ أمرُ الله، وهُمْ علَى ذلكَ. ولَمَّا أرادَ اللهُ ـ تعالَى ـ أنْ يخلقَ آدمَ وذريَّتَه قالَ: (كنتُ كَنزًا خفيًا فأَحببتُ أنْ أعرَفَ، فخلَقْتُ الخلْقَ لأُعرَف). فإنَّ حكمتَه ـ جلَّتْ قدرتُه وعلَتْ كلمتُه ـ من خلق نوع الإنسان إيثارُ العرفان، وإعلاءُ أعلام الهُدَى والإيمان. اللهُ تعالَى هوَ الذى أرسلَ رسولَه بالْهدَى ودينَ الحقِّ ليظهرَه علَى الدين كلِّه ولَو كرِهَ المشركونَ. ليعلِّمَ الشرائعَ والأحكامَ، وسَنَنَ الحلال والحرام، وأعطَاهُ القرآنَ المجيدَ معجزةً ليفحمَ به المنكرينَ. وقَد وفَّقَنا اللهُ تعالَى ـ بسوابق لُطفه ولواحق فضله ـ أنْ نسعَى فى إقامة قوانين الشريعة الطاهرة. ولأنَّ بقاءَ الدنيَا وسلطتَها بإعانة الحقِّ والصواب، وإماطة أذَى الشرك والكفر عَن وجه الأرض لتحقيق الخير والثواب، فالمرجوُّ والمأمولُ من جَنابكم وأركان دولتكم أنْ توافقُونَا فى الأمور المذكورة، وتُشاركُونَا فى تشييد قواعد الشريعة المعمورة".

وكانَت الدعوةُ إلَى دين الإسلامِ أكثرَ صراحةً فى الرسالة التى بعثَ بهَا رخ بهادر باللغة الفارسية إلَى الإمبراطور هانج وو؛ إذْ جاءَ فيهَا: "... والآنَ وقَد انتقلَتْ إلَى يدى ـ بلطف الله وفضله ـ مسالكُ خراسانَ ومَا وراءَ النهر والعراق وغيرها، فإنَّ حكمَ البلاد فى كافَّة أرجاء المملكة ـ بموجب الشريعة النبوية المطهرة ـ أمرٌ بالمعروف ونهىٌ عَن المنكَر، وقَد صارَ يَقينًا ومُحَقَقًا أنَّ الخَلاصَ والنجاةَ فى يوم القيامة والسلطان والدولة فى الدنيَا سببُها إيمانُ الفرد وإسلامُه، وعنايةُ الله تعالَى، ومن الواجب أنْ نعاملَ رعيتَنَا بعدل وإنصاف. إنِّى لأَرجُو ـ بفضل الله وكرمه ـ أنْ تعملُوا أنتُم أيضًا بشريعة محمد رسولِ الله عليه السلامُ، وأنْ تقوُّوا الإسلامَ، فتنالُوا بَدلاً من سلطان الدنيَا: سلطانَ الدنيَا والآخرة".

تـرجمَ الرسـالةَ العربـيةَ للإمـبراطورِ صـينىٌّ مسلمٌ اسمُه شى يانج، فاستفسرَ منه عَن الإسـلامِ، ثـمَّ طلـبَ المـزيدَ فجـاءَه بالـتاجرِ سيد على أكبر الذى حدَّثه حَديثًا طَويلاً مستفيضًا عَن الإسلامِ.

وأسلمَ الإمبراطورُ هنج وو.

وانتشرَ الإسلامُ بالطبعِ بينَ أعداد كبيرة من أهلِ الصين، ومعَ ذلكَ ظلَّ معظمُ الأهالى علَى الديانةِ الكونفوشية نسبةً إلى الوزيرِ القديمِ كونفوشيوسَ.

ظلَّـتْ أعـدادُ المسـلمينَ فـى زيـادة لمدة أربعة قرون، ثم جاءَ تحذيرُ فاسيليفَ الكاتب الروسـىِّ فـى كتابه (الإسلامُ فى الصِّين) عامَ ١٨٦٧م. حيثُ قالَ: "إنَّ الإسلامَ مهيَّأ لأنْ يصـبحَ الدينَ القومىَّ للإمبراطوريةِ الصينيةِ، وهذا سيقلبُ الأوضاعَ السياسيةَ فى العالمِ الشرقىِّ رأسًا علَى عَقب".

وهبَّـت القُـوَى العالمـيةُ لحصارِ الإسلامِ فى الصينِ، وكانت الدولُ العربيةُ والإسلاميةُ آنذاكَ مشغولةً بأوضاعها، مما أعاقَ انتشارَ الإسلامِ هناكَ. ولكنَّ هذا لَم يمنعْ قيامَ كثيرِ مـنَ المعـاهد الدينـية الإسـلامية فـى الصـين، وصـارَ فـى بكـينَ وحدَها أكثرُ من ٧٠ مسجدًا، وفى شَنغهاىَ أكثرُ من ٣٠ مَسجدًا، وظهرَ علماءُ أجلاَّءُ أمثالُ: عبد الرحمن وان هـاو زان، ومـا كانج حو، وعمر باى، وجيهان، وماجو.. وغيرهم. ولَم يزَل الإسـلامُ بخـيرٍ فـى الصينِ.. تلكَ البلادِ التى شهدتْ شمسَ الإسلامِ وهىَ تشرقُ فى البلادِ.

٤٣- منغوليا

تقـعُ مَنغوليَا فِى شرقِ العالَمِ، تَحُدُّهَا بلادُ الصينِ من الجنوبِ، وروسيَا من الشمالِ، ومَنشوريَا من الشرقِ، وستكيانجُ من الغربِ.

لَـمْ يخطرْ ببالِ أحدٍ أن يصلَ إلى تلكَ البلادِ البعيدة، لكنَّ اللهَ - سبحانَه وتعالَى - يسبِّبُ الأسبابَ.

وقـعَ وباءٌ فِى الماشيةِ الموجودةِ فِى منغوليَا سنةَ ١٣٨٠م. أدَّى إلى نفوقِ جميعِ المَواشِى، ممَّـا سـبَّبَ مشـكلةً عويصـةً هـدَّدَتْ حـياةَ الأهـالِى بالدمارِ، إذْ إنَّ تلكَ البلادَ شديدةُ الـبرودةِ، ويعـتمدُ أهلُهـا علَـى الدهـونِ بدرجـةٍ كبيرةٍ، وحينَ نَفَقَتِ المواشِى لَم يعُدْ لَدَيْهِم مصدرٌ يحصُلونَ منه علَى الدهونِ.

وصـلَتْ أخـبارُ ذلكَ الأمرِ إلَى البلدانِ المجاورةِ، وكانَ فِى الصينِ شابٌّ طَموحٌ درسَ الفقـهَ وعَشـقَ التجارةَ اسمُه أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ الميقاتىُّ، والدُه عبدُ اللهِ كانَ مؤذِّنَ الجامعِ فِى بكينَ.

قرَّرَ أحمدُ شراءَ كميةٍ كبيرةٍ من الزيتِ والارتحالَ بها إلَى مَنغُولْيَا لبَيعِها هناكَ؛ إذ يُمكنُ لأهلِها أنْ يستخدمُوا الزيتَ بدَلاً من الدهونِ.

نـبَّهَ علَـيه والـدُه بضـرورةِ الحـذَرِ فـى الـتعامُلِ مـعَ أهلِ مَنغُولْيَا؛ لأنَّ حياتَهم الدينيةَ وعاداتِهم الاجتماعيةَ مختلفةٌ تمامَ الاختلافِ عَن المسلمينَ.

أمَّـا حـياتُهم الدينـيةُ فكانَ يُهَيْمنُ علَيها الشامانُ، أى الكاهنَ، وكانَ يُوهِمُ الناسَ أنَّه يَـرُوحُ فـى غيبوبةٍ، وأنَّه فِى غيبوبَتِه المصطَنعةِ تلكَ يطردُ الأرواحَ الشريرةَ المُقيمةَ تحتَ الأرضِ، وأنَّـه يسـتنزلُ الـبركاتِ مـن ثلاثةِ أشياءَ: روحِ الأرضِ الطيبةِ، ورُوحِ الماءِ الخـيرةِ، وأرواحِ الأسـلافِ الـتى تَطـوفُ فـى الجنةِ. وأهلُ منغُولْيَا كانُوا يعبدونَ إلهًا

واحدًا، تخضعُ لحكمه ١٧ طبقةً عُليَا آهلةً بالسكان الصالحينَ، وكانَ ينتشرُ بينَهم إيمانٌ قـوىٌّ بقوة القضاء والقدر تتمثلُ فى العالم والزمان، وتنضحُ قوةُ القضاء والقدر هذه بالجسـد وبشهوة الانتقام من الإنسان، وتعودُ عباداتُهم ومُعتقداتُهُم إلى أصول تركية، إذْ كانتْ منغوليَا تابعةً لدولة الترك منذُ زمنٍ سحيق.

أمَّا عـاداتُهم الاجتماعـيةُ فكانـتْ فـى غايـة السوء، يتعاشَرُ رجلٌ وامرأةٌ حتَّى تلدَ، ويكـبرَ ولدُها حتَّى يتعلمَ السيرَ والكلامَ وقضاءَ حوائجه بنفسه، وحينذاكَ تتركُه المرأةُ وتذهـبُ إلى رجـلٍ آخرَ تعيشُ معَه عدةَ سنوات، ثمَّ تنتقلُ إلى ثالث. . وهكذَا طوالَ عمـرِها. أمَّـا المولـودونَ إنْ كانُوا أبناءَ ذُكورًا فيساعدُونَ أباهُم فى عمله، وإذَا كانت المولودةُ أنثَى يربِّيهَا والدُها حتى تكبرَ، فإذَا صارتْ فتاةً تخرجُ لتبحثَ لَها عَن رجلٍ.

اسـتاءَ أحمـدُ بـنُ عبد الله الميقاتىُّ استياءً شَديدًا بسبب ما سمعَه عَن أهالى مَنغوليا. . وتساءلَ: ألَمْ يبصِّرْهُم أحدٌ بسوء مَا يفعلونَ؟. . ألَم يحدِّثْهُمْ أحدٌ عَن تعاليمِ الإسلامِ التى تصلحُ أحوالَهم وتحافظُ علَى كرامة الإنسانِ ذكَرًا كانَ أو أنثَى؟

أبلغَـه والدُه أنَّه لَمْ يذهبْ مسلمٌ من قبلُ إلى منغوليَا، أمَّا تجارُها فقليلٌ منهُم مَنْ جاءُوا إلى الصـينِ ربَّمـا سمعُـوا القلـيلَ عَـن الإسـلامِ. فقـرَّرَ أحمـدُ أنْ يعـرِّفَ أهلَ منغوليَا بالإسلام.

هكـذَا تـبدلَ الهـدفُ الأسـاسُ مـن سفرِ أحمدَ إلَى منغوليَا، ومضَى إلَى مدينة جامينَ لودى، وهىَ إحدَى المدن الكُبرَى فى منغُوليَا.

لاقَـى أحمـدُ بـنُ المـيقاتىِّ كـثيرًا من العَنَاء، ودخلَ فى صراعات حادة بينَ الكاهنِ من جهـة، وبـينَ مَـن يرفضـونَ تقيـيدَ حريَّاتهم بالأخلاق الحميدة من جهة أخرَى، وفى نفـسِ الوقـت كانَ الأميرُ يخشَى من تأثيرِ أحمدَ فى الناسِ وأنْ يَنتزعَ منهُ الحكمَ، لذلكَ أمرَه أن يدعوَ الناسَ للإسلامِ وهوَ فى قصره حتَّى يراقبَه.

ونجحَ أحمدُ بالرغمِ من ذلكَ فى نشرِ الدعوةِ إلى الإسلامِ، فهدَى اللهُ - عزَّ وجلَّ - معظَمَ أهـالى مدينةِ جامين لودى، وكانت المرحلةُ التاليةُ صعبةً للغايةِ؛ إذْ كانَ علَى الأهالى أنْ ينـتقلُوا مـن عاداتٍ قديمةٍ تتسمُ بالإباحيةِ إلَى عاداتٍ اجتماعيةٍ جديدةٍ فيهَا ضوابطُ لإصـلاحِ أحـوالِ الـناسِ، ولكـنْ شيـئًا فشـيئًا تحـولَ مجـتمعُ جامين لودى إلى مجتمعٍ إسلامىٍّ.

وذاعَـتْ أخـبارُ الإسـلامِ، وعُرِفَـتْ بعضُ تعاليمه فى جَنَبَاتِ منغوليَا، وسعَى الناسُ إلَـى الدخـولِ فـى ديـنِ اللهِ - عـزَّ وجـلَّ - وانتشـرَ الإسـلامُ بـينَ أعدادٍ كبيرةٍ من أهلِ منغُوليَا. وعرفُوا طريقَ الأخلاقِ الكريمةِ والحفاظِ علَى الأعراضِ.

ومرتْ علَى منغوليَا مراحلُ تاليةٌ، حُوربَ فيهَا الإسلامُ فى تلكَ البلادِ، ودخلَتْ إلَيها ديانـاتٌ أخـرَى نتيجةً لتغيُّراتٍ سياسيةٍ. ويعيشُ الآنَ فى منغُوليَا مَا يقربُ من مليونِ مسلمٍ، يتمسكُونَ بتعاليمِ دينِهِم الحنيفِ.

٤٤- بلاد القوقاز

تقعُ بلادُ القوقاز في الجزءِ الجنوبيِّ الغربيِّ من روسيَا بينَ البحرِ الأسودِ وبحرِ قزوينَ، ويطلُّ جنوبُها الغربيُّ علَى تركيًّا بينَما يطلُّ جنوبُها الشرقيُّ علَى إيرانَ.

دخلَ الإسلامُ بلادَ القوقازِ بواسطةِ رجلٍ من مدينة تبريزَ الإيرانية في أواخرِ القرنِ الرابعِ الهجريِّ.

كانَ إسماعيلُ بنُ عبدِ الكريمِ التبريزيُّ واحدًا من أعوانِ بَني سامانَ ملوك بلاد خراسانَ، فلمَّا انتهَى مُلْكُهم بعثَ السلطانُ محمودُ بن سُبُكْتكينَ فرقةً من جيشه إلَى تبريزَ، مهمَّتُها القبضُ علَى مَن كانَ يُوالي ملوكَ السامانيِّينَ. وكانَ علَى إسماعيلَ التبريزيِّ أنْ يهربَ إلى حيثُ لا يُدركُه جنودُ السلطان.

حملَ إسماعيلُ مَا يملكُهُ من أموالٍ وجواهرَ، وأسرعَ بالفرارِ حتَّى وصلَ إلى جبالِ القوقازِ، فعبرَها وسارَ حتَّى وصلَ إلى نهرِ كورَا الذي تحيطُ به حقولٌ خضراءُ بديعةٌ.

فمضَى إسماعيلُ إلى يوليوفيسكي زعيمِ القبائلِ التي تعملُ بالزراعة حولَ النهرِ.

وقصَّ علَيه حكايتَه، فرحَّبَ به في بلاده، وأمرَه أنْ يطلُبَ مَا يشاءُ. فقالَ لَه: أطلبُ ثلاثةَ أشياءَ.. رضاكَ، والإقامةَ في أمنٍ وأمانٍ وسلامةٍ في بلادكَ، وأنْ تسمحَ لي بأداء عبادَتي في حريَّة.

سألَ الزعيمُ عَن عبادته وعَن دينه، ومن هُنَا كانت البدايةُ، أخذَ إسماعيلُ التبريزيُّ يحدثُ يوليوفيسكي عَن الدينِ الإسلاميِّ وما يدعُو إلَيه.

لَم يستجبْ يوليوفيسكي، لكنَّ نائبَه فيدورَ القوقازيَّ شرحَ اللهُ - تعالَى - صدرَه للإسلام، فأعلنَ إسلامَه أمامَ إسماعيلَ، لكنَّه أخفاهُ عَن أهله، إذْ كانَ المجتمعُ القوقازيُّ كلُّه علَى الكفرِ، وانتظرَ حتَّى يحينَ الوقتُ المناسبُ.

وماتَ الزعيمُ يوليوفيسكي، وصارَ فيدورُ زعيمَ قبائلِ القوقازِ التى حولَ النهرِ، فدعَا قومَه إلى الإسلامِ. . فأسلَمُوا.

جديـرٌ بالذكـرِ أنَّ بـلادًا كـثيرةً كـانَ يدخلُهـا الإسلامُ، وبعدَ إسلامِ أهلها كانَ الدعاةُ يعـانُونَ كـثيرًا كَـى يجعلُوهُم يطبِّقُوا أحدَ تعاليمِ الإسلامِ التى يستثقلُ أهلُ تلكَ البلادِ الالـتزامَ بهـا، ومـنها القوقـازُ الـتى استثقلَ أهلُها التطهُّرَ نتيجةً لشدةِ البرودةِ فى تلكَ الأصـقاعِ وكـثرةِ الجلـيدِ بهـا، فلَـم يكنِ الإنسانُ منهُم يغتسلُ إلاَّ كلَّ عامٍ أو عامَين، وعـانَى إسماعـيلُ التبريزىُّ طويلاً حتَّى جعلَهم يلتزمُونَ بالاغتسالِ من أجلِ التطهُّرِ، بَـل عـانَى أيضًـا حـتَّى أقنعَهم بحتميةِ الوضوءِ قبلَ كلِّ صلاةٍ إلاَّ إذَا ظلَّ الواحدُ منهُم علَى وضوئه.

عـلمَ ملـكُ اسـتراخانَ ـ شمـالَ القوقـازِ ـ بإسـلامِ القبائلِ القوقازيةِ، فبعثَ إلى ملكِ الفولجَـا كَـى يمدَّه بجيوشٍ من عنده، وهجمَ عُتَاةُ الشمالِ، لكنَّ أهلَ القوقازِ استبسلُوا فى الدفاعِ عَن دينهم. . ونصرَهم اللهُ عزَّ وجلَّ.

خطـبَ فـيدورُ بعـدَ الحـربِ فـى قومـه فقـالَ: يا أهلَ القوقازِ، لقَد نصركُم اللهُ علَى أعدائـه وأعدائكـم، فكونُـوا علَى استعدادٍ دائمٍ للدفاعِ عَن دينكم، فإنَّهم سيكرِّرُونَ محاولاتِهم، وربَّما تستمرُّ إلى آخرِ الزمانِ.

وقَد صدقَ فيدورُ فيمَا قالَ، فلَم تزَل الحربُ بينَ الروسِ والمسلمينَ فى الشيشانِ، التى هـىَ جـزءٌ مـن بـلادِ القوقـازِ. . لكنَّ أهلَها أقوياءُ بدينهم، مستمسكُونَ بإسلامهم، يدافعُـونَ عَـنهُ إلى آخـرِ قطـرةٍ مـن دمـائِهم، محـافظِينَ علَـى وجـودِ الإسلامِ فى بلادِ القوقازِ.

٤٥- البوسنة والهرسك

ولِيَ حكمَ الدولة العثمانية محمدٌ الثاني الفاتحُ بنُ مراد الثاني عامَ ١٤٥١م. وقد سُمِّيَ محمدًا الفاتحَ لكثرة فتوحاته؛ فهُوَ فاتحُ القسطنطينية، وبلاد الصرب وشبه جزيرة المورة وبلاد ألبانيَا، وامتدَّتْ فتوحاتُه إلَى حدود البندقية.

عرَفَت البوسنةُ الإسلامَ فِي القرن ١٣م. علَى يد بعضِ الرحَّالة والتجارة.

وكانَت البوسنةُ والهرسك Bosnia and Herzegovina ضمنَ بلاد صربْيَا، لكنَّ أهلَها كانُوا مختلفينَ عَن أهالي بقية البلاد، فقَد رحَّبُوا بالعثمانيِّينَ، ودخلُوا في دين الله أفواجًا، فقَد أحبُّوا أنَّ يعتنقُوا الدينَ الإسلاميَّ؛ لأنَّهم رأوْا أنَّه الدينُ الحقُّ، خاصةً أنَّه كانَ منهُم مسلمونَ.

وتوجَدُ وثيقةٌ في كنيسة الهرسك الأرثوذكسية مؤرَّخةٌ عامَ ١٥٠٥م، جاءَ فيهَا: "إنَّ كثيرًا من الناسِ اعتنقُوا الدينَ الإسلاميَّ بدون أيِّ إكراه".

وقدْ مرت البوسنةُ والهرسكُ بمراحلَ متعددة، كانتْ جُزءاً من الإمبراطورية الرومانية، ثم سكنَها الصربُ فِي القرن السابعِ الميلاديِّ، ثمَّ نالت البوسنةُ استقلالَها في أواخر القرن العاشر الميلاديِّ، ثمَّ خضعتْ لحُكمِ المَجَر (هنغاريا) فِي منتصف القرن الثانيَ عشرَ الميلاديِّ.

وصلت البوسنةُ بعدَ ذلكَ إلَى قمة مجدها، وسيطرتْ علَى بعضِ الأراضِي المحيطة بها وأهمُّها الهرسكُ فِي القرنِ ١٤م. ثمَّ وقعتْ صراعاتٌ مريرةٌ بينَ السكان نشأتْ عَن الخلافات الدينية بينَ الكاثوليك الرومان، والأرثوذكس، والمسلمينَ، فأدَّى ذلكَ إلَى ضعف البلاد.

وجاءَ السلطانُ العثمانيُّ محمدٌ الفاتحُ، ففرحَ به مسلمُو البوسنةِ والهرسك، وتوالَى دخولُ أهالِي البلاد فِي الإسلامِ.

وبعدَ ذلكَ تمَّ ضمُّ البوسنة والهرسك إلَى الإمبراطورية النمساوية المجرية (إمبراطورية الهايسبورج) عامَ ١٩٠٨م. ثمَّ انهارت الإمبراطوريةُ النمساويةُ المجريةُ معَ نهاية الحرب العالمية الأولَى، فأصبحت البوسنةُ والهرسك جُزءاً من مملكة الصِّرب والكُرْوَات والسلُوفينيِّينَ التى عُرِفَتْ باسمِ يوغوسلافيَا منذُ عامَ ١٩٢٩. ثم احتلَّتْها ألمانيَا عامَ ١٩٤١م. وسميتْ كُرواتيَا العُظْمى، فقامَ قتالٌ عنيفٌ بينَ مسلمِى البوسنة والهرسك وجيشِ الحكومة الفاشيَّة، ثمَّ تمَّ تحريرُ البوسنة والهرسك علَى يد الشيوعيِّينَ بقيادة المارشال تيتُو. وتمَّ إعلانُ دولة الاتحاد اليوغوسلافىِّ الاشتراكىِّ الذى ضمَّ ٦ جمهوريات، منها البوسنةُ والهرسكُ. وحدثَتْ انتفاضةٌ إسلاميةٌ عامَ ١٩٨٠م.

ثمَّ ثارت انتفاضاتٌ وصراعاتٌ عرْقيةٌ بينَ المسلمينَ والصِّرب سنةَ ١٩٩٠ وهزمَ الشيوعيُّونَ فى الانتخابات، وكوَّنَت الأحزابَ الصربيةَ والكرواتيةَ والإسلاميةَ ائتلافًا اختارَ الزعيمُ الوطنىُّ المسلمُ عزَّت بيجُوفيتش رئيسًا للجمهورية.

واندلعَتْ حربٌ أهليةٌ بينَ الصِّرب والكروات، فأعلنَتْ جمهوريةُ البوسنة والهرسك استقلالَها عَن يوغوسلافيَا عامَ ١٩٩١م.

وأجرىَ استفتاءٌ عامَ ١٩٩٢م. قاطعَه الصربُ وكانتْ نتيجتُه الموافقةَ علَى الاستقلال، فأعلنَ الرئيسُ عزتْ بيجوفيتش استقلالَ البوسنة والهرسك للمرة الثانية، وفى هذه المرة اعترفَتْ بها الولاياتُ المتحدةُ الأمريكيةُ والاتحادُ الأوروبىُّ ودولٌ أخرَى كثيرةٌ، وصارت البوسنةُ والهرسكُ عُضْوًا فى الأمَم المتحدة.

قامَ الصربُ بإعلانِ الحرب علَى البوسنة والهرسك وحاصرُوا سَرايِيفُو عاصمةَ البوسنة، وقامُوا بعمليات قتلٍ جماعيةٍ فظيعةٍ لمسلمِى البوسنة والهرسك.

وتدخَّلَت القواتُ الدوليةُ ودارتْ مباحثاتٌ ومفاوضاتٌ ومَا بينَ اشتعالِ الحربِ وخمودِها، إلَى أنِ انتهَى الأمرُ بما يُشبهُ الحكومةَ الائتلافيةَ.

ويمتازُ مسلمُو البوسنة والهرسك بشدة تمسكهم بتعاليمِ الإسلامِ بالرغمِ من معيشتهم فى أوربَّا، بَل هُم أَشدُّ تمسُّكًا بها من كثيرٍ من أهالى الدول الإسلاميةِ فى الشرقِ العربىِّ، وقَد دافعُوا عَن دينهم واستُشهدَ منهُم أعدادٌ ضخمةٌ فى سبيلِ الدفاعِ عَن وجودِهم الإسلامىِّ ممَّا يجعلُ لُهم احترامًا زائدًا فِى قلوبِ كلِّ المسلمينَ.

٤٦- ألبانيا

تقعُ ألبانيَا فِي جنوبِ غربِ أوربَّا، يُطِلُّ غربُها وجنوبُها علَى البحرِ الأدرياتيِّ، ويطلُّ شمالُها ومعظمُ شرقِها علَى يوغوسلافيَا، ويطلُّ القسمُ الباقِي من شرقِها علَى اليونانِ.

فتحَها السلطانُ العثمانيُّ محمدٌ الفاتحُ ١٤٦٤م. وقاومَه الألبانُ مقاومةً شديدةً بقيادةِ جورجَ كستريوتَ بنِ حَنَّا كستريوتَ. ولكنَّ جورجَ لَم يلبثْ أن اعتنقَ الإسلامَ، وصارَ من قوادِ الجيشِ العثمانيِّ، وسُمِّيَ إسكندرَ بك.

واعتنقَتْ أعدادٌ هائلةٌ منَ الألبانِ الدينَ الإسلاميَّ، فصارَ نصفُ السكانِ من المسلمينَ، وصارتْ لهمْ مدارسُ يتعلَّمُونَ فيهَا أصولَ الدينِ، أشهرُها مدرسةُ تيرَانَا التِي يتخرَّجُ فيهَا الفقهاءُ والأئمةُ والمؤذِّنُونَ والوعاظُ والمدرسونَ كمَا يوجَدُ مسجدٌ كبيرٌ شهيرٌ فِي تيرانَا.

يبدأ تاريخُ الإسلام فى إنجلترا فى عام ١٨٨٠م. حينَ اعتنقَ الإسلامَ أحدُ عظماء الإنجليز وسفيرُ إنجلترا فى تركيَّا اللوردُ استانلى أوف الدرلى، وقد سمَّى نفسَهُ عبدالرحمن. ثمَّ أسلمَ مستر كويليام عامَ ١٨٨٦م. وكانَ من أعيان مدينة ليفربولَ، وكانَ فصيحًا بليغًا قويَّ الحُجَّة. تأثَّر السلطانُ العثمانيُّ عبدُ الحميد تأثرًا عظيمًا لإسلامه، فاستدعاه إلى تركيَّا، ومنحَه لقبَ بك، وعيَّنه شيخًا للإسلام فى إنجلترا وقد سمَّى نفسَه عبدَ الله.

عادَ شيخُ الإسلام عبدَ الله بك كويليام إلى ليفربولَ ليجعلَ جُزءاً من داره مسجداً، وراحَ يدعُو الناسَ للإسلام، ويستقبلُ محبِّى الثقافة الإسلامية، ثمَّ أصدرَ جريدتين، نشرَ فيهما آراءَه، وقد لعبَتْ هاتان الجريدتان دَورًا فعَّالاً فى نشر الإسلام فى شمال إنجلترا. وأعقبَ ذلكَ إشهارُ جمعيَة إسلامية ظلَّتْ تؤدِّى دورَها فى نشر الدين الإسلامىِّ لمدة ١٧ عامًا. ووفدَ إلى إنجلترا من الهند شودراى فاتح محمد سيال وخوجه كمال الدينَ، فراحَا يدعُوَانِ للإسلام بجهد كبيرٍ، فأسلمَ على أيديهما كثيرٌ منَ الإنجليز منهُم اللوردُ هيدلى.

وتأسَّسَتْ جمعياتٌ إسلاميةٌ كثيرةٌ تهدفُ إلى إنشاء المساجدِ والمدارسِ لتعليمِ أبناء المسلمينَ، وإيواء الغُرباء، وإلقاء المحاضرات.

ويوجَدُ فى مدينة مانشستر مركزٌ إسلاميٌّ مُنحَ رئيسُه حقَّ عقْد الزواج للمسلمينَ، وفى المركز مسجدٌ وقاعةٌ للمحاضَرات، وقاعةٌ للاجتماعات والحفلات، وقد أنشئَ هذا المركزُ فى البداية لرعاية الطلبة المسلمينَ الذينَ يدرسونَ فى جامعة مانشسترَ.

وتوجَدُ جاليةٌ عربيةٌ كبيرةٌ فى مدينة كارديفَ، وفيها مسجدٌ اسمُه مسجدُ نور الإسلام، وتوجَدُ جمعياتٌ إسلاميةٌ منتشرةٌ فى أرجاء إنجلترا، ومساجدُ تقامُ فيهَا الصلواتُ، حيثُ تشرقُ شمسُ الإسلام فى قلوب المؤمنينَ الذينَ يقيمونَ فى بلاد الإنجليز.

تقعُ المجرُ فِى شرقِ أوربًّا، تحيطُ بها تشيكوسلوفَاكْيَا شَمالاً، والنِّمسا ويوغوسلافيَا غَربًا، ويُوغُوسلافيا ورومانيَا جَنوبًا، وروسيَا شَرقًا.

وتسمَّى المجرُ هنغاريَا، وكانَ العربُ يُطلقُونَ علَيهم أمةَ الهنكَر قاصدينَ بذلكَ الشعوبَ الهنغاريةَ والسُّلافيَّةَ، وكانُوا يسمُّونَهم الصقالبةَ والباشقارديةَ.

وكانُوا يزورُونَ البلادَ العربيةَ للتعمُّقِ فِى دراسة العلومِ الدينية منذُ العصورِ الإسلامية الأولَى. وقَد ذكرَهُم ياقوتُ الحمويُّ - ت: ٦٢٦هـ - فِى معجمِ البلدان فِى تفسيره باشقارد.. فقالَ: "وجدتُ بمدينة حَلَبَ مجموعةً من الباشقارديَّة، شُقْرَ الشعورِ والوجوه جدًا، يتفقَّهونَ علَى مذهب أبِى حنيفةَ رضىَ اللهُ عَنه، فسألت رجلاً منهم استعقلْتُه عَن بلادهم وحالهم، فقالَ: أمَّا بلادُنا فمن وراء القسطنطينية فِى مملكة أمة من الإفرنْج يقالُ لَها (الهُنْكَر) ونحنُ مسلمونَ، ولسانُنا لسانُ الإفرنجِ وزيُّنا زيُّهم... فسألتُه عَن سبب إسلامهم معَ كونهم فِى وسط بلاد الكفر.. فقالَ: سمعتُ جماعةً من أسلافنا يتحدَّثُونَ أنَّه قدمَ إلَى بلادنا منذُ دهرٍ طويلٍ سبعةُ نفرٍ من المسلمينَ من بلاد بلْغَارَ، وسَكنُوا بينَنا، وتلطَّفُوا فِى تعريفنا مَا نحنُ علَيه من الضلال، وأرشدُونَا إلَى الصواب من دينِ الإسلامِ، فهدانَا اللهُ والحمدُ لله، فأسلمْنَا جميعًا، وشرحَ اللهُ صدورَنَا للإيمان. ونحنُ نقدمُ إلَى هذه البلادِ ونتفقَّهُ، فإذَا رجعْنَا إلَى بلادنا أكرمَنَا أهلُها وولَّونَا أمورَ دينهم".

وقَد أسلمَ الصقالبةُ فِى وقت مبكر، وكانَ الخليفةُ العباسىُّ المقتدرُ بالله قَد أرسلَ أحمدُ ابنُ فضلانَ إلَى ملك الصقالبة - وكانَ قَد أسلمَ هُو وأهلُ بلاده - كَى يعلِّمَهُم الشرائعَ الإسلاميةَ، فسجَّلَ مَا شاهدَه فِى رحلته منذُ خروجه من بغدادَ عامَ ٣٠٩هـ. حتَّى

عودتـه إلَـيها، وذكـرَ ذلـكَ فـى كتاب لَه بعُنوانِ (رحلَة ابنِ فَضْلاَن)، وخلالَ رحلته أسلَمَ علَى يَدَيه ألوفٌ من الأوروبيِّينَ.

ثـمَّ ظهـرَ ملـوكٌ فـى جنوبِ شرقِ أوربَّا حاربُوا الإسلامَ حَربًا شَعْواءَ، ولعلَّ أكثرَهم تعصبًّا الملكُ كارل الأول روبرت (١٣١٠-١٣٤٢م) الذى أصدرَ قوانينَ ضدَّ المسلمينَ منهَا أنَّـه إذَا استضـافَ مسـلمٌ أحـدًا أو استضـافَه أحـدٌ فعـلى كلَـيْهمَا أنْ يأكُلاَ لحمَ الخـنزير، ومـنَعَ الصِّيامَ والوُضـوءَ قبلَ الصلاة، وأغرَى مَن يبلِّغُ عَن أحد المسلمينَ - المخـالفينَ لمَـا أمرَ به - بتمليكه جُزءاً من أموالِ المسلم الذى أبلغَ عَنْهُ، ولَنا أنْ نتصوَّرَ مَـا أدَّى إلَـيه ذلـكَ من اضطهاد، كمَا كانَ ذلكَ الملكُ - لعنَه اللهُ - يعاقبُ مَن يمتنعُ عَن أكـلِ لحـمِ الخـنزير. فـلمَّا هلكَ ملكُ هنغاريَا الظالُم تمكَّنَ المسلمونَ من التحرُّر قَليلاً ممَّا وقعَ عليهم من ظلمٍ وإجحاف. ولكنَّ الفترةَ التى حكمَها أدَّتْ إلى هجرة كثيرٍ من المسـلمينَ إلى الـبلدانِ المجـاورة. فانتشـرُوا فـى سـلُوفينيَا وألبانيَا والبوسنة والهرسك وغيرها.

٤٩- جزيرة لامو

ظلَّتْ جزيرةُ لامُو مركزَ إشعاعٍ للدينِ الإسلاميِّ فى جنوبِ شرقِ إفريقيَا أكثرَ من ألفِ عامٍ.

ولامُو جزيرةٌ فى شرقِ كينيَا، تبعُدُ عَن نَيروبى بمقدارِ ٦٢٥ كيلُومترًا، وتشملُ لامُو ثلاثَ مدنٍ رئيسة، هىَ مَتَنْدُونُ وكَتَبْغَانُ فى غربِها وشيلاَ فى جنوبِها.

يرجعُ الفضلُ فى نشرِ الإسلامِ فى لامُو إلَى أهلِ عُمانَ الذينَ هاجرُوا إليها تحتَ زعامةِ سليمانَ وسعيد ابنى الجلَنْدَى ملكِ عُمانَ فى عهدِ الخليفةِ عبدِ الملكِ بن مروانَ فى القرنِ الأولِ للهجرةِ النبويةِ المشرَّفةِ.

رأى الحجاجُ بنُ يوسفَ الثقفىُّ أنَّ سليمانَ وسعيدًا ابنَىْ عبَّاد بن عَبْد بن الجلَنْدَى لاَ يَدينان بالولاءِ لبنى أميَّةَ، لاَ هُمَا ولاَ قومُهما من قبائلِ الأزدِ التى تقطنُ عُمانَ، لذلكَ استأذنَ الحجاجُ فى إرسالِ جيشٍ يستولِى علَى تلكَ البلادِ، ووافقَ الخليفةُ عبدُ الملكِ ابن مَروانَ الأمویُّ.

بعثَ الحجاجُ جيشَه خمسَ مرَّاتٍ وفى كلِّ مرة ينتصرُ العُمانيُّونَ، ويَغنَمُونَ كثيرًا من الغنائمِ، وكانَ القاسمُ بنُ شَعْوَةَ يقودُ آخرَ الجيوشِ المهزومة، وقُتِلَ أثناءَ الحربِ، حينذَاكَ استدعَى الحجاجُ مَجَّاعَةَ بنَ شَعْوَةَ، أخَا القاسمِ، وطلبَ منهُ أنْ يندبَ الناسَ للقتالِ وللثأرِ لمقتلِ القاسمِ وبخاصة قبائلُ نَزار. فحشدَ مجَّاعةُ أربعينَ ألفًا، قادَ أربعينَ ألفًا فى ٣٠٠ سفينة، وبعثَ ٢٠ ألفًا عَن طريقِ البرِّ، وكانَ جيشُ عُمانَ لا يتعدَّى ستةَ آلافِ جندىٍّ، ثمَّ زادت الأزمةُ حينَ وصلَ المددُ إلى جيوشِ الخلافةِ، وكانتْ قُوَى العُمانيِّينَ قد استنزفَتْ من طُولِ القتالِ. فقرَّرَ الأميرانِ سعيدٌ وسليمانَ وقْفَ القتالِ ومُغادرةَ البلادِ.

خرجَ الأميران وعائلاتُهما وأعوانُهما المقرَّبونَ واتَّجَه الجميعُ إلى شرق إفريقيَا، وهناكَ قضيَا بقيَّةَ عُمْرَيْهمَا.

أبحرَتْ سفينةٌ مِن ساحلِ عُمانَ، ورسَتْ علَى جزيرة لامُو جنوب شرق إفريقيَا، وقررَ سعيدٌ الاستقرارَ فِى لامُو، بينَما ارتحلَ سليمانُ إلى جزيرة مُمْبَاسًا، ولَمَّا لَم يسترِحْ بها انتقلَ إلى زنْجبَارَ.

صحبَ كلَّ أمير عددٌ مِنَ الأعوانِ، وكانَ الفقيهُ سيفٌ العُمانىُّ ضِمنَ أصحابِ الأميرِ سعيد فاستقرَّ معَه فى لامُو.

فُوجِئَ المسلمونَ بأنَّ الأهالىَ لا يستُرونَ غيرَ النِّصف السُّفْلىِّ من أجسادهم فقطْ، كانَ الحَرُّ هُو السببَ الذى جعلَهم لا يستُرُونَ صدورَهم، لذلكَ كانَ يجبُ أنْ يكونَ هناكَ وازعٌ أكبرُ يجعلُهم يسترونَها، ولَم يكُنْ ذلكَ الوازعُ غيرَ الإسلامِ.

لكنَّ الأمرَ لَم يكنْ يَسيرًا.

وقفَ فى وجه الدعوة الإسلامية بعضُ رجال الجزيرة الذينَ لا يتصوَّرونَ حياتَهم دونَ عبادة الأصنامِ الخشبية التى يصنعونَها. ومن ناحية أخرَى كانتْ هناكَ أمورٌ وفَّرَت الكثيرَ مِن جُهْدِ المسلمِينَ، منها المعرفةُ السابقةُ للأهالى بالإسلام؛ فهُم قريبونَ مِن الحبشة التى عرفَتِ الإسلامَ منذُ العام الخامسِ للهجرة، وهُم يستقبلونَ تُجَّارًا مسلمينَ مِنَ اليمن وغيرها، يضافُ إلى هذَا أنَّ (مكُّو) زعيمَ جزيرة لامُو قَد مالَ إلى الإسلام حينَ حدثَّه الأميرُ سعيدٌ عمَّا فى الدين الحنيف من صَلاحٍ للناسِ فى الدنيَا والآخرة.

وقامَ الفقيهُ سيفٌ بدور مشهود فى دَعوة أهلِ الجزيرة إلى الإسلامِ، كمَا قامت النساءُ المسلماتُ بدور فى غاية الأهمية فى دعوة نساء لامُو.

انتشرَ الإسلامُ شيئًا فشيئًا بينَ أهالى الجزيرة، فلمَّا أسلمَ معظَمُ الأهالى أعلنَ الزعيمُ مكو إسلامَه، فأسلمَ بقيتُهُم. وبنَى الفقيهُ سيفٌ مسجدًا فى لامُو سُمِّىَ مسجدَ سيف، تمَّ تجديدُه عدةَ مرات عبرَ العصورِ المختلفة، ولَم يزلْ مَوجودًا إلَى اليومِ.

وانتشرَ الإسلامُ من لامُو إلى مَا جاورَها من بلاد، فكانتْ مَركزًا للإشعاعِ الدينيِّ والدراساتِ الدينيةِ لأكثرَ من ألفِ عامٍ، واشتهرَتْ بكثرةِ حُفَّاظِ القرآنِ الكريمِ، ويوجَدُ في مدينةِ لامُو وحدَها اثنانِ وعشرونَ مَسجدًا أقدمُها مسجدُ سيف.

وقد شهدتْ جزيرةُ لامُو عدةَ هجراتٍ عربيةٍ إلى أرضها، وأنجبَتْ علماءَ بارزينَ درسُوا في مكةَ المكرمةِ أمثالَ الشيخِ فيصلِ بنِ عليٍّ السلاميِّ، وأبي بكرٍ شطَا، وأبي بكرٍ عبدِ الرحمنِ الحسينيِّ، وعليِّ بنِ محمدٍ الحبشيِّ.. وغيرِهم، فقَد كانتْ لامُو جزيرةً شهدتْ شمسَ الإسلامِ وهيَ تُشرقُ في البلادِ.

٥٠- زنجبار

كانتْ جزيرةُ زنْجبَارَ تتبعُ مملكةَ كينيَا، وإنْ كانتْ تقعُ فِى شمالِ شرق تنزانيَا بالمحيط الهندىِّ، فِى الساحلِ الشرقىِّ مِن النصفِ الجنوبىِّ مِن قارة إفريقيَا، بينَها وبينَ الساحلِ الإفريقىِّ حوالَى ٢٠ ميلاً.

وقدْ سمعَ أهلُ زنجبارَ عَن الدين الإسلامىِّ بواسطة التجار العرب الذينَ وصلُوا إلَى جزيرتهم، لكنَّهم لَم يعتنقُوا الدينَ الحَنيفَ إلاَّ حينَما استقرَّ بينَهم الأميرُ العُمانىُّ سليمانُ بنُ عَبَّاد بن عَبْد بن الجَلَنْدَىُّ فِى حدود عام ٧٦هـ.

وكانَ سليمانُ قَد اضطُرَّ إلى مغادرة بلاد عُمانَ معَ أخيه سعيد وعائلتاهُمَا وبعض أعوانهما، فنزلَ سعيدٌ جزيرةَ لامُو حيثُ نشرَ الإسلامَ بها، بينَما مضَى سليمانُ إلَى مدينة مُبْاَسَّا لكنَّه لَم يسترحْ بها، وجاءَه تاجرٌ عربىٌّ حدَّثَه عَن جزيرة زنجبارَ ومَا تتحلَّى به مِن ميزات، منها أنَّ بعضَ التجار المسلمينَ يستقرُّونَ بها، وهىَ جزيرةٌ مفتوحةٌ علَى العالَم تأتِى إلَيها السفنُ وتروحُ فى حركة دائمة ممَّا يجعلُ المقيمَ بها يعرفُ مَا يدورُ فِى مختلف البلدان من أحداث، بالإضافة إلَى الحركة التجارية المنتعشة بها أكثرَ من غيرها.

كانَ أهلُهَا يعتَمدُونَ علَى تجارة سنِّ الفيل (العاج)، والعسلِ والملحِ وبعضِ الأغذية، ولكنَّ النشاطَ التجارىَّ الرئيسَ فيهَا كانَ تجارةَ الرَّقيق.

ارتحلَ سليمانُ بمَنْ مَعَه إلى جزيرة زنجبارَ، كَى يخوضَ حَرْبًا شَعْوَاءَ ضدَّ تجار الرقيق فِى تلكَ الجزيرة، وكانَ سليمانُ ذَا شخصية تميلُ إلى المغامرة، بعكسِ أخيه سعيد الذى كانَ يميلُ إلى الاستقرارِ.

كانتْ زنجبارُ مَركزًا تجاريًا مُهمًا، وقامتْ عَلاقاتٌ تجاريَّةٌ بينَ المراكز الساحلية بشرق إفريقيَا والمناطق الداخلية، حيثُ تمَّ تبادُلُ المنتجات الغذائية والملح والماشية والأدوات الحديدية، وكانَ الطلبُ يتزايَدُ علَى العاجِ، وعلَى العُمَّال للعملِ فِى مزارعِ زنجبارَ، ثمَّ يُحملُ هؤلاء العمالَ إلى سفنِ الرومِ وغيرَهم عَبيدًا.

وهكَذَا قامَتْ تجارةُ العبيد الذينَ هُم أحرارٌ أصْلاً. ونظرَ سليمانُ إلى الوضعِ فِى زنجبارَ، فرَأى أنَّ تجارةَ العبيد ليسَتْ أساسَ الفساد، إنَّما هوَ مَظهرٌ من مظاهره فهُوَ جزءٌ من فساد عامٍّ مَنبعُه الأخلاقُ الخبيثةُ، إذَنْ فالأمرُ يحتاجُ إلى إصلاحٍ عامٍّ.

ولا يتحقَّقُ الصلاحُ فِى أخلاق الناسِ وسلوكهم إلاَّ بالإسلامِ، لذلكَ بدَأ سليمانُ ومَن معَه دعوةَ الأهالِى إلى دينِ الله. وكانت البدايةُ معَ المُزارعينَ والصيَّادينَ فكانَتْ استجابتُهم سريعةً، وصارَ يعتنقُ الإسلامَ عدةُ مئات كلَّ شهرٍ.

كانَ التنافسُ حادًا وعَنيفًا بينَ تجار الرقيق، وصلَ إلى قتْلِ بعضهم البعضَ أحيانًا، لكنَّهُم انتبَهُوا إلى انتشارِ الإسلامِ بسُرعةٍ مذهلة، وتوقَّعُوا أنْ يؤثرَ ذلكَ فِى تجارتهم فبدَأوا يتكاتَفونَ لمقاومته.

وصلتْ سفينةٌ رومانيةٌ فنزلَ بعضُ مَن علَيها فخطفُوا عددًا من النساء، وكانَ بينَهُنَّ مسلماتٌ، وجمعَ النَخَّاسُونَ مَن تحتَ يدهم من المزارعينَ، وأوهَمُوهُم بالعملِ فِى بلاد الرومان بأجورٍ خياليةٍ، ففرحَ معظمُهُم فقامَ من بينهم مَن نبَّهَهُم إلَى أنَّهم سوفَ يُساقُونَ إلى بلاد الرومان عَبيدًا، وحينذاكَ جاءَ سليمانُ بمَنْ معَه من جنوده العُمانيِّينَ، ومَن ضمَّهُم لصفوفه من أهلِ زنجبارَ، وسارُوا فحرَّرُوا المزارعينَ، وسارُوا بهم جَميعًا فخلَّصُوا النساءَ اللاَّئِى علَى السفينةِ، وقامَتْ ثورةٌ عنيفةٌ من الأهالِى فقتلُوا تجارَ الرقيقِ جميعَهم.

شكرَ زعماءُ الجزيرة للأمير سليمانَ ومَن معَه عملَهم الجليلَ ورفعُوا مكانتَهم بينَهم، فقالَ لهُم إنَّ رسولَ الله ﷺ يقولُ: "شرُّ الناس مَن باعَ الناسَ". وإنَّه لَمْ يفرض الرِّقَّ علَى حُرٍّ قطّ. وأخذَ يحدثُهُم عَن الإسلام فاستمعُوا له، وأسلَمَ بعضُهم، وهكذَا انتقلَ الإسلامُ إلَى طبقة الحكام، ثمَّ أخذَ ينتشرُ شيئًا فشيئًا، فلمْ يبقَ غيرُ عددٍ قليلٍ جدًا لَم يدخلُوا في دين الله عزَّ وجلَّ.

حينذاكَ ماتَ زعيمُ الجزيرة.. والتفَّ الناسُ حولَ الأمير سليمانَ بن عَبَّاد بن عَبْد بن الجَلَنْدَىِّ، ونادَوْا به أميرًا علَى زنجبارَ حاكمًا لَها، وهكذَا فقدَ سليمانُ حكمَ عُمانَ ليَلِيَ حكمَ زنجبارَ.

وكانَ الفرقُ شاسعًا.. كانتْ عُمانُ دولةً منظمةً لهَا جيشُها، ولهَا شئونُها الإداريةُ من حكمٍ وقضاءٍ وتعليمٍ وغيرها. أمَّا زنجبارُ فكانتْ عبارةً عَن أعداد منَ الناس يعيشونَ علَى جزيرة، وبدأَ سليمانُ ينظِّمُ شئونَ زنجبارَ، فحولَّها إلى دولة لَها جيشُها وشرطتُها وقضاؤُها ومدارسُها ودواوينُها وكُتَّابُها، وصارَ فيها قصرٌ للحاكم. واتَّسَعَتْ الدولةُ وضُمَّتْ إليهَا السواحلُ القريبةُ منها، وانتعشَتْ تجارتُها.

هكذَا عرفت الإسلامَ إمبراطوريةُ الزَّنْج.. أو زنجبارُ (ومَعناهَا ساحلُ الزنج)، وتكوَّنَتْ فيهَا دولةٌ إسلاميةٌ ذاتُ تاريخٍ حافلٍ، وقَد شهدتْ عدةَ هجراتٍ من شيرازَ ومن جزيرة العرب.

وبعدَ مَا يقرُبُ من ثمانية قُرون، في أوائل القرن ١٦ الميلاديِّ، احتلَّ البرتغاليُّونَ معظَمَ الساحل الإفريقيِّ بمَا فيه زنجبارُ، واستنجدَ أهلُها بأئمة عُمانَ، ودارَ صراعٌ طويلٌ انتهَى بعودة الدولة الإسلامية، فحكمتْهَا أسرةُ الحارث. ثمَّ ولِيَ حكمَ عُمان الإمامُ سعيدُ بنُ سلطانَ سنةَ ١٨٠٦م. ودامَ حكمُه نصفَ قرنٍ من الزمان، ونقلَ عاصمةَ مُلكه من مسقطَ ببلاد عُمانَ إلى زنجبارَ، فاتسعَ نشاطُ زنجبارَ السياسيُّ والاقتصاديُّ.

انقسَمَتْ دولةُ الإمامِ سعيد بنِ سلطانَ بعدَ وفاته إلى قسمين: قسمٍ آسيويٍّ فى عُمانَ، وقسمٍ إفريقيٍّ فى زنجبارَ والساحلِ، وحكَمَ زنجبارَ أبناءُ الإمامِ سعيد حتَّى سنةَ ١٩٦٤م. حيثُ قامَتْ ثورةُ أعلنَ بعدَها انضمامُ زنجبارَ إلى تَنْجَانيقَا لتتكوَّنَ منها جمهوريةُ تنزانيَا، برئاسةِ جوليوسَ تيريرى. وظلَّ تاريخُ زنجبارَ الإسلاميُّ مُضيئًا علَى مرِّ العصورِ.

٥١- بلاد الصومال

تقعُ بلادُ الصومال فِى شرق إفريقيَا، تحدُّهَا منَ الغرب إثيوبيَا وكينيَا، وتُطلُّ شَمالاً علَى خليج عدنَ، ويطلُّ شرقُها وجنوبُها علَى المحيط الهندىِّ.

عرفَت الصومالُ الإسلامَ فِى القرن ١٥ الميلادىِّ، حينَ وهبَ ٤٥ رجُلاً أنفسَهم للدعوة إلَى دينِ الله - عزَّ وجلَّ - فِى البلاد التى لا يعرفُه أهلُها.

خرجَ الشيخُ عبدُ الرحمن من حَضْرَمَوْتَ ومعَه ٤٤ من تلاميذه، وأقلَّتْهُم سفينةٌ إلَى ساحلِ إفريقيَا الشرقىِّ، فنزلُوا فِى مدينةِ بربرةَ فِى شمالِ الصومال، وهىَ تطلُّ علَى خليجِ عدنَ.

فقدَ الدعاةُ شيخَهم بمجرد وصولهم إلى بربرةَ؛ إذْ لبَّى نداءَ ربِّه، وكانَ علَيهم أنْ يختارُوا لَهم رئيسًا ينظمُ أعمالَهم وسبلَ الدعوة إلى الدينِ الإسلامىِّ فِى البلادِ التى نزلُوهَا، فاختارُوا إبراهيمَ أبَا زرباىَ؛ لأنَّه كانَ أقربَهم إلى الشيخِ عبدِ الرحمن.

نصبَ الدُّعاةُ خيامَهم فى غَربِ بربرةَ، فجاءَ زعيمُها وطلبَ منهُم نقلَ خيامهم خلفَ الجبلِ الذى هناكَ، فأطاعُوه ونقلُوا الخيامَ. وكانتْ عاداتُ أهلِ الصومال وتقاليدُهم غريبةً علَى الشيخِ إبراهيمَ أبِى زرباىَ وأصحابه، لذلكَ كانَ علَيهم أنْ يعرفُوا تلكَ التقاليد حتَّى لا يصطدمُوا بالأهالى.

وجدُوا عندَهم ثلاثةَ مساوئَ: الخمرَ، والتنجيمَ، والزِّنَا. وكانَ زعيمُ بربرةَ من حقِّه أن يعاشرَ أيةَ امرأة فى المدينة، وإذَا دخلَ الليلُ يبيتُ ليلتَه فى أىِّ بيت يقابلُه، وكانَ رجُلاً شرِّيرًا للغاية، كأنَّما تجمَّعت الشرورُ التى فى الدنيَا كلُّها وتجسَّدَتْ فيه. وكانَ مِن بينِ أهالى بربرةَ رجالٌ قليلونَ لا يعجبُهم ما يقومُ به زعيمُهم، ولَم يكُنْ باستطاعتهمْ غيرُ الهروبِ مِن وجهةٍ وإخفاءِ نسائِهم عَنه. ومِن هؤلاء كانت البدايةُ؛

إذْ بـدَأَ المسـلمونَ يحدِّثُونَهم عَن الدينِ الإسلامىِّ ويبيِّنُونَ لَهم كيفَ يُحافظُ على كرامةِ الإنسانِ ويَحمى شرفَ المرأة.

كـانَ بَـنْجَانُ يُخفـى ابنـتَه ليمَا كلَّمَا شعرَ باقترابِ الزعيمِ من داره، فلمَّا ضَيَّقَ عليهمَا الخـناقَ ذَهـبَا إلى المسلمينَ؛ كَى يَحتَميَا بهم من جبروته. وأسلمَ الرجلُ وابنتُه، وجاءَ الزعيمُ بارُو إلى حيثُ ضربَ المسلمونَ خيامَهم خلفَ الجبلِ، وجاءَ معَه أكثرُ من ألفِ رجلٍ بالرماحِ فحصرُوا المسلمينَ وبنجانَ فى جانب، وأحاطُوا بالفتاة ليمَا.

ضَـحكَ بـارُو، فجثَـتْ لـيمَا علَى رُكْبَتَيهَا ورفعَتْ يديْهَا إلى السماء، والدموعُ تسيلُ علَـى خَدَّيْهَـا وهىَ تقولُ بصوتٍ مرتفعٍ: "اللهُمَّ يا عزيزُ يا جبارُ.. أنتَ خالقُ الخلقِ وأنتَ علَى كلِّ شىءٍ قديرٌ.. احفَظْنى من شرورِ بارُو".

ضحكَ بارُو وقالَ: ماذَا تقولُ هذه الحمقاءُ؟

فأكملَـتْ لـيمَا دعاءَهـا قائلـةً: "اللهُمَّ.. يا نصيرَ الضعفاءِ والمظلومينَ، أنتَ ربِّى، فكُنْ لى، ولا تكُنْ عَلَىَّ، وانصرْنى علَى عدوِّكَ يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ".

فجـأةً صـرخَ بـارُو.. لدغَـه ثعبانٌ صغيرٌ لا يزيدُ طولُه على رُبْعِ مترٍ، ثمَّ لوَى الثعبانُ جسمَه وانطلقَ فى الهواءِ ليستقرَّ فى شقٍّ بالجبلِ.

ظهرَ الثعبانُ فجأةً، فلدغَ بارُو، ثمَّ اختفَى، وحشرجَ الزعيمُ، وعلمَ الحاضرونَ أنَّه لاَ أمـلَ فـى إنقاذه، فلا علاجَ للدغةِ هذَا الثعبانِ! قالَ أحدُ الحاضرينَ: إنَّها بركاتُ هذه الفتاة.

وقالَ آخرُ: قَد دعتْ ربَّها فأنقذَها من بارُو.

حيـنذاكَ أنـزلَ رجـالُ الصـومال رماحَهم عَن صدورِ المسلمينَ.. فهتفَ بنجانُ فيهم قـائلاً: "يـا قـومِ، يـا قـومِ، هَـا هـوَ ذَا بـارُو أمامكم، إنَّه عبرةٌ لمَنْ أرادَ أنْ يعتبرَ، فـاعلَمُوا أنَّ اللهَ هـوَ الـذى جعـلَ ذلـكَ الثعبانُ يقتلَه.. لترَوْا بأعينكُم نهايةَ زعيمكم

الشرير. أيُّهَا القَوْمُ، إنَّ هؤلاء الناسَ دينُهم هوَ الدينُ الحقُّ، وقَد أسلمْتُ أنَا وابنتى، وإنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - هوَ الذى حمَانَا. إنَّ الخيرَ جاءَ علَى أيدى هؤلاءِ المسلمينَ، فأنصتُوا لَهم واستمعُوا.. وافهَمُوا مَا سيقولُونَه لكُم".

صارَ القومُ مؤهلينَ للاستماعِ فتكلمَ إبراهيمُ أبُو زرباىَ، فحدثَهم عن اللهِ الواحد الأحد الذى لا شريكَ له، وحينَ سألُوهُ عَن أصنامهم أجابَهم قائلاً: "انظرُوا كيفَ دعتْ ليمَا ربَّها فحمَاهَا، واذهبُوا إلى أصنامكم فالطُمُوهَا علَى وجوهها، وانظرُوا هَلْ تقوَى علَى حماية أنفُسها؟! أليستْ لكُم عقولٌ تفكرُونَ بها؟!

صمتَ القومُ فأكملَ إبراهيمُ حديثَه وكلَّمَهم عَن دينِ الإسلامِ، وأسلمَ معظَمُ الأهالى، وبنَى المسلمونَ لَهُم بيوتًا فى حُضْنِ الجبلِ، ثمَّ بنَوا مسجدًا كَبيرًا فَسيحًا، وكانَ يومًا مَشْهودًا حينَ ارتفعَ الأذانُ للمرة الأولَى من مئْذَنة المسجد.

وكانَ الليلُ للدُّعاة. كانُوا يخلُونَ بأنفُسهم فِى سَفْحِ الجبلِ يقومُونَ الليلَ ويَدعونَ اللهَ عزَّ وجلَّ.

ويقولُ سير توماس أرنولد فى كتابِ الدعوة إلى الإسلامِ: "يوجَدُ بالقرب من بربرةَ جبلٌ يُسمَّى جبلَ الأولياء، وقَد أطلقَ علَيه هذَا الاسمَ تبرُّكًا بمَنْ كانُوا يخلُونَ إلَى أنفسهم فى ظلِّه للتعبُّد والتَّهَجُّد والدعوة إلى الإسلامِ".

وانتشرَ الدعاةُ من بربرةَ إلى أرجاء الصومال يدعونَ للإسلامِ. ودخلَ أهلُها فى دين الله أفواجًا، وصارت الصومالُ بلادًا مسلمةً، فانتقلَتْ من غياهبِ الضلال إلى نورِ الحقِّ واليقينِ.

٥٢- هرر

تقعُ مدينةُ هررَ فى بلاد الحبشة، وهىَ من أهمِّ المراكزِ الإسلامية التى كانَ لَها دورٌ بارزٌ فى نشرِ الإسلامِ فيمَا حولَها من مناطقَ.

دخـلَ الإسـلامُ هررَ فى أواخرِ القرن ١٥ الميلادىِّ، فقد ارتحلَ إليها إبراهيمُ أبُو زرباىَ وبعـضُ أصـحابه، ونـزلَ أولَ مَـا نـزلَ عندَ دونامًا، أميرِ هررَ، وكانَ دونَامًا جدَّ ليمًا لأمِّهـا، تلـكَ الفـتاة الـتى أنقذَهـا اللهُ - عزَّ وجلَّ - من براثنِ بارُو زعيمِ بربرةَ. بعدَها تزوَّجَها إبراهيمُ أبُو زرباىَ، وطلبَتْ منه الذهابَ إلى هررَ لهداية قومِ أمِّها.

وكـانَ وجودُ ليمَا من الأسبابِ القوية التى جعلَتْ جدَّها دونامًا يستمعُ للشيخ إبراهيمَ بقـبولٍ حسـنٍ، وتحقَّقَـتْ لَهـم السـعادةُ حـينَ أسلمَ دونامًا، وبدأَ يدعُو رؤساءَ القوم ليجلسُوا إلى إبراهيمَ يحدِّثُهم عَن الإسلامِ، ثمَّ مَن يَليهم، ثمَّ مَن يَليهم، ودخلَ معظمُ أهـلِ هـررَ فـى الإسـلامِ، وعـانَى إبراهيمُ طَويلاً حتَّى تمكَّنَ من جعْلِهم يتوَقَّفُونَ عَن تعاطِى الُخمورِ.

قـامَ صـراعٌ بعدَ ذلكَ بيَن الحبشة وهررَ، واستطاعَ السلطانُ أحمدُ بنُ إبراهيمَ أنْ يكوِّنَ سـلطنةً قويـةً فـى منطقة هررَ، دينُها الرسمىُّ هُوَ الإسلامُ، وحكَمَها أمراءُ من أسرته لأكثرَ من قرنٍ منَ الزمانِ، ثمَّ تقلَّصَت السلطنةُ فصارتْ فى مدينة هررَ وحدَها.

وآلَتْ إلَى حُكمِ مصرَ - بعدَ ذلكَ - فى عَهد الخديو إسماعيلَ، ثمَّ انضمَّتْ إلى أثيُوبيَا، ولَم تَزَلْ هَرَرَ تشغَلُ مساحةً مُضيئةً منَ التاريخِ الإسلامىِّ.

٥٣- الكونغو

تُطلُّ الكونغو علَى الكاميرونَ شَمالاً، وزائيرَ شرقًا، وأنجولاَ جَنوبًا، وتطلُّ من ناحية الغـرب علَـى المحيطِ الأطلنطىِّ. ولَم يدخلِ الإسلامُ إلى بلاد الكونغو إلاَّ فى النصف الـثانى مـنَ القـرنِ التاسـعَ عشرَ الميلادىّ، وكانَ دخولُه علَى يد تاجرٍ من زنجبارَ، هُوَ حُمَيْدىُّ بنُ محمد بن جمعةَ المرْجَبِىِّ.

وُلـدَ حُمَـيْدىٌّ عـامَ ١٨٣٢م. فـى زنجبـارَ، وكانَ والدُه من كبار التجار، كانَ لذلكَ الوالـد قافلـتان تجاريَّتَان تَعمَلان بينَ زنجبارَ والحبشة، وكَبُرَ حُمَيْدىٌّ، فدرسَ العلومَ الدينـيةَ، وحفـظَ معظـمَ القـرآن الكـريم، ودرسَ اللغـةَ العربيةَ والرياضيَّات وبعضَ الفلـك. ثـمَّ عملَ معَ والده فى التجارة فى عهد سلطان زنجبارَ العُمانىِّ مجيد بن سعيد ابن سلطانَ، وكانَ برغشُ بنُ سعيد، أخُو السلطان وولىُّ عهده صَديقًا لحُمَيْدىٍّ.

كـانَ حُمَـيْدىٌّ يُـريدُ زيـادةَ عـدد القوافل لكنَّ أبَاهُ محمدًا المرجبىَّ رفضَ ذلكَ؛ إذْ كانَ السـلطانُ يـتحرزُ مـن أىِّ شـخصٍ يـتَّخذُ جنودًا للعملِ عندَه، وكانَ لكلِّ قافلة خمسةُ حـراسٍ، فـإذَا زادَ عـددُ القوافـلِ سيَزيدُ عددُ الحراسِ، وحينذَاكَ رُبَّمَا وقفَ السلطانُ نفسَه ضدَّ تجارته.

مـاتَ السـلطانُ مجـيدٌ وولىُّ السلطنة أخُوهُ برغشُ بنُ سعيد، ثمَّ خرجَتْ بعضُ القبائلِ علَـى قافلـة المرجـبىِّ فنهبَـتْهَا وقتلتْ مَن بها من حُرَّاسٍ وغيرِهم، وتركَتْ جُثَثَهُمْ فى الطريق، تأثَّرَ محمدٌ المرجبىُّ لذلكَ تأثُّرًا حَادًا أدَّى إلى وفاته.

تحـدَّثَ حُمَـيْدىٌّ إلى السـلطان برغش كَى يسمحَ لَه بزيادة عدد الحراس إلى عشرة لكلِّ قافلة، تردَّدَ السلطانُ لكنَّ حُمَيْديًا ظلَّ يؤكِّدُ لَه ولاءَه وإخلاصَه حتَّى وافقَ.

صـارَ عـندَ حُمَـيْدىٍّ بعدَ فترة عَشْرَةُ قوافلَ، يحميهَا مائةُ حارسٍ، وقرَّرَ قيادةَ القوافلِ بنفسـه، فانـتقلَ بالسـفن مـن زنجبـارَ إلى السـاحلِ الإفـريقىِّ الذى كانَ تابعًا لسلطان زنجبارَ، وسـارَ بقوافله حتَّى خرجَ من المناطق التابعة للسلطان، وكانَ علَيه أنْ يخترقَ بـلادًا متَّسـعةً، كُـلُّ مـنطقة فيهَا تحكمُها إحدَى القبائلِ التى تأتَمرُ بأمرِ زعيمها، وهىَ مناطقُ لَم يطَأْهَا أغرابٌ من قبلُ.

دخـلَ حُمَـيْدىٌّ إلَـى مـناطقِ قـبائلِ الجُونجَا، فقابَلَ زعيمَها، وطلبَ منه أنْ يرفعَ علَمَ السـلطان بـرغشٍ علَـى كُوخـه. خَشىَ الزعيمُ أنْ يأخُذَ السلطانُ أبناءَ القبيلة فيَبيعَهُم عَبـيدًا للـروم وللعـرب، لكـنَّ حُمَـيْديًا طمأنَه، وقالَ له: "سأكتبُ وثيقةً تُعْلنُ فيها ولاءكـم للسـلطان بـرغش، وأعلـنَ فـيهَا أنَّكُـم أحـرارٌ فى بلادكم، ولَن يَمَسَّكُمْ بسُوء، ولا نُطالبُكُم بشَىء".

وكـرَّرَ حُمَيْدىٌّ الأمرَ نفسَه معَ زُعماء القبائلِ فى المناطقِ التى مرَّ بها، وهكذَا - بطريقة سـلمية تمامًـا - ضـمَّ بـلادًا تَديـنُ بالطاعـة والـولاء للسلطان برغش بن سعيد سلطانَ زنجبـارَ. ومضَى حُمَيْدىٌّ حتَّى وصلَ إلى ساحلِ بحيرة تَنْجَانيقَا التى تَفْصلُ تنزانيَا عَن زائـيرَ، لـيحملَ من تلكَ البحيرة ألواحَ الملحِ، كَى يبيعَها للسفنِ التى تجىءُ إلى زنجبارَ للتجارة.

وعـندَ بحـيرة تنجانـيقَا قابَلَ حُمَيْدىٌّ الرَّحَّالةَ الإنجليزىَّ لفنجستون الذى كانَ فى حالة إعياء شديد، فساعدَه ومنحَه الماءَ والزادَ، وكانَ ذلكَ عامَ ١٨٦٧م.

عـادَ حُمَـيْدىٌّ إلى زنجـبارَ بعـدَ أنْ جعـلَ لَـه محطات تجاريةً وأسواقًا تخصُّ بضائعَه عبرَ تنزانـيَا، وبعـدَ أنْ ضَـمَّ إلى سلطانَ برغشٍ بن السعيد كلَّ المناطقِ الواقعة بينَ الشاطئ الإفريقىِّ وبُحَيرة تنجانيقَا، ففرحَ السلطانُ بذلكَ فرَحًا عَظيمًا.

حيـنذاكَ أبلغَـه حُمَيْدِيٌّ أنَّه تركَ جنودَهُ في المحطات التجارية التي أنشأها حتَّى يَحْمُوا أسـواقَه هـناكَ، وطلـبَ منهُ مضاعفةَ عدد الجنود الذينَ كانُوا معَه حتَّى يصيرَ بمقدوره القـيامُ برحلـته التالـية إلى الشـاطئ الإفريقيِّ الغربيِّ؛ فهُوَ يأمَلُ أنْ يقطَعَ وسطَ إفريقيَا حتَّى آخر القارة من ناحية الغرب.

اهـتمَّ حُمَـيْديٌّ فـي رحلته التالية بالتحدُّث إلى أهل القبائل المختلفة عَن الإسلام، فقَدْ صـارُوا يعرفُونَه منذُ المرة الأولَى، ومضَى في مَسيرته حتَّى وصلَ إلى بلاد الكونغُو في أقصَـى غـرب إفريقـيَا. تحـدَّثَ إلى الزعـيم كاتشُو عَن آلهتهم التي لا تضرُّ ولا تَنفعُ، وطلـبَ مـنهُ أنْ يـركلَ الصـنمَ الذي يعبُدُه، ويرَى إنْ كانَ سيدافعُ عَن نفسه أو يَضُرُّهُ بشيء. فعلَ كاتشُو ذلكَ وحينَ لَمْ يَضُرَّهُ شيءٌ أعلنَ إسلامَه، وتَبعَهُ أهلُ الكونغُو.

وأقـامَ حُمَـيْديٌّ سـوقًا ضخمةً جدًا لتجارته في الكونغُو وكانَ قَد انضمَّ إلَيه عددٌ كبيرٌ مـنْ أبـناء القـبائل التي مرَّ علَيهَا، فصارَ لَدَيْه جيشٌ من العاملينَ ومن الحُرَّاس أيضًا، وبنَوا لَه بُرجًا خَشَبيًا يُتابعُ منه حركةَ السوق.

وقـابَلَ حُمَـيْديٌّ الـرحالةَ الإنجلـيزيَّ إسـتانلي الذي سألَه عَن الرحالة لفنجستونَ؛ إذْ كانَـتْ قَـد انقطعـتْ أخبارُه. وطلبَ من حُمَيْديٍّ مساعدتَه للوصول إلَيه، فاصطحبَه إلى نهر لوالابَا؛ حيثُ بعثَ معَه دَليلاً خَبيرًا للبحث عَن لفنجستونَ عامَ ١٨٧٢م.

لمْ يكُـنْ نجـاحُ حُمَـيْديٍّ فـي نشـر الإسـلام سَـهلاً، فإنَّ خطَّ الاستواء يَمُرُّ في الثُّلُث الشـماليِّ مـن بـلاد الكونغُـو ممَّـا يجعـلُ درجةَ الحرارة مرتفعةً جدًا، لهذَا كانَ الأهالي يكـتَفُونَ بسَـتْر عَوْراتهـم بـبعض الـريش، ولا يُطـيقونَ وضعَ ثياب علَى أجسامهم، لذلكَ عانَى طَويلاً حتَّى أقنعَ الرجالَ بارتداء الثياب، وكانَ الأمرُ أكثرَ صعوبةً بالنسبة للنسـاء؛ إذْ كـانَ يجبُ سترَ جسمِ المرأة كلِّه بمَا في ذلكَ ذراعاهَا، والأكثرُ صعوبةً من ذلكَ سَتْرُ شعرِ رأسها.

محـاولاتٌ ومحـاولاتٌ، تـارةً بالترغيـب، وتـارةً بالترهيـب وتبْـيَان عقـاب مَن تُعَرِّى جسـدَها أو جُـزءاً منه أوْ لا تُغَطِّى شعرَها. وأخيرًا نجحَ الحُمَيْدىُّ ومَن معَه، إنَّ إقناعَ أهـلِ الكونغُـو بالإسـلامِ لَـم يكـنْ صـعبًا، لكنَّ الصعوبةَ جاءتْ من إلزامهم بتطبيق تعاليمِ الدينِ، وكانَ فى مقدمتها سَتْرُ أجسامهم.

يقـولُ سـير تومـاس أرنولـد: "أقـامَ حُمَـيْدىٌّ المرجـبىُّ محطات تجاريةً عربيةً ومراكزَ عسـكريةً حصـينةً، فأصـبحَ بذلـكَ الحـاكمَ علَى هذَا الإقليمِ، وسُمِّىَ فاتحَ الكونغُو وأدخلَ الإسلامَ معَه إلَى تلكَ البقاعِ".

بـنَى حُمَـيْدىٌّ مسـجدًا كـبيرًا، وأقامَ بقيةَ حياته فِى الكونغُو، ولَمْ يزلْ بهَا ملايينَ من المسلمينَ مِن سكانِ الكونغُو الأصليينَ.

٥٤- النيجر

تقعُ النَّيْجَرُ فِى القسمِ الغربىِّ من إفريقيَا، تحدُّهَا تشادُ من الشرقِ، ومالى وفولتَا العُليَا من الغربِ، وليبْيَا وصحراءُ الجزائرِ من الشمالِ، ونَيْجيريَا وداهومى من الجنوبِ.

كانتْ أغـاديسُ أهـمَّ المـدن الـتجارية فى بلاد النيجر؛ إذْ كانَ يَمُرُّ بهَا طريقان كَبيران للتجارة، أحدُهُما يبدأ من مصرَ، فيَتَّجهُ غَربًا، ثمَّ جَنوبًا إلى بحيرة تشادَ، والثانى يبدأ مـن شمـال إفريقـيَا إلى بحيرة تشادَ أيضًا. وقَد جعلَ ذلكَ من أغاديسَ واحدةً من أهمِّ المدن التجارية فى العالَم.

ويُروَى أنَّ الساميِّينَ والحاميِّينَ انحَدَرُوا من الشمال ومن الشمال الشرقىِّ للسيطرة علَى القبائلِ الزنجية فى بلاد النيجر ومَا حولَها. ويُروَى أنَّ النفوذَ الحامىَّ قَد وصلَ إلى تلكَ الـبلاد منذُ عهد بعيد من مصرَ ومن بلاد النُّوبة العُليا. وبعدَ ذلكَ بزمنٍ طويلٍ توغَّلَتْ حملةٌ رومانيةٌ فِى إفريقيَا فِى العهد الرومانىِّ ووصلتْ إلى بلاد النيجر.

وتسميةُ النيجرِ مستمَدَّةٌ من الكلمة اللاتينيَّة نجْرُو Negro أى الأسودَ.

وصـلتْ إحـدَى القوافـلِ التجارية المصرية إلى أغاديسَ، فقرَّرَ أحدُ تجارها - حسنُ بنُ عـبد الله المصرىُّ - أنْ يقيمَ بالمدينة وينشرَ الإسلامَ بها. وكانَ سابُو - أحدَ زعماء قبائلِ النـيجر أيامَهـا - عَنـيفًا شَرسًا، وكانَ الشرُّ مجسَّمًا، فلمَّا تحدَّثَ التاجرُ حسنٌ إلَى أهلِ أغاديسَ عَن الإسلامِ رأوْا مَا فيه من خيرٍ، وكأنَّهم كانُوا مُتعطِّشينَ لهذَا الخيرِ منذُ زمنٍ بعـيد، فدخلُـوا فـى الإسـلامِ بسـرعة مذهلة. وبالرغم من أنَّهم كانُوا يَضربُونَ ألفَ حسابٍ للزعيمِ سابُو إلاَّ أنَّهم حينَ أسلَمُوا، وأدركُوا قدرةَ الخالقِ العزيزِ الجبار علمُوا أنَّ سـابُو لَـن يقـدرَ لَهُـم علَى شىءٍ، وشعرُوا بالقوةِ للمرة الأولَى حينَ احتَمَوْا بحِمَى الإسلامِ.

وكانَ لا بُدَّ من صدامٍ بينَ الخيرِ والشرِّ.

وتجمَّعَ أهالي أغاديسَ، واستطاعُوا مواجهةَ سابُو وأعوانه للمرةِ الأولَى، وتدخَّلَ ملكُ النيجرِ، وانتهَى الأمرُ بنَفْيِ سابُو وأعوانه، وفي ذلكَ الوقت جاءَ تجارٌ مسلمونَ مِنْ بلادِ المغربِ، فتقوَّى بهم مسلمُو النيجرِ، وسمحَ الملكُ لَهم ببناء مسجدٍ يؤدُّونَ فيه صلَوَاتهم في أغاديسَ في أوائلِ القرن ١٣ الميلاديِّ.

انتشرَ الإسلامُ بعدَ ذلكَ في بلاد النيجرِ خُطوةً خطوةً، إلَى أنْ قامَتْ إمبراطوريةُ مالي الإسلاميةُ، فضمَّت النيجرَ إلَيها، فزادَ الإسلامُ فيها، وشُيِّدَت المساجدُ الكثيرةُ الواسعةُ، وتوالَتْ دُوَلٌ إسلاميةٌ عَملَتْ علَى تثبيت أركان الإسلامِ في النيجرِ حتَّى صارت الغالبيةُ العُظمَى من السكانِ مُسلمينَ؛ فَهيَ بلادٌ شَهدَتْ شمسَ الإسلامِ وهيَ تُشْرِقُ في البلادِ.

٥٥- صنغى Songhay

عاشتْ قبائلُ الصُنْغَى Songhay علَى شاطئِ نهرِ النيجرِ فِى الجزءِ الممتدِّ من الانحناء إلى قُرْبِ المَصَبِّ، فِى أراضِى الدندى شمالَ غربىِّ نيجيريَا الحالية وشمالىَّ داهومى.
وهىَ من أطولِ الدولِ الإسلاميةِ عُمرًا فِى جنوبِ الصحراءِ الإفريقية؛ إذْ ظلَّتْ مَا يَقْرُبُ من ستِّمائة عامٍ.

كانَتْ قبائلُ صُنْغَىْ قسمَيْنِ فِى قديمِ الزمانِ، أحدُهما يعملُ بالزراعة علَى ضَفَّتَى النهرِ، والآخَرُ يعمَلُ بالصَّيْدِ. واعتادَ الصيادونَ علَى الاعتداء علَى المزارعينَ والاستيلاء علَى متاعهم. فتجمَّعَ الفَلاَّحُونَ حوالَى عام ٣٠٠م. واتَّخَذُوا لَهُم مُلوكًا؛ لعلَّهُم يستطيعُونَ صَدَّ عُدوانِ الصيادينَ، لكنَّ هؤلاء الملوكَ لَم يُحَقِّقُوا الحمايةَ الكاملةَ لرعايَاهُم.

ثمَّ بدأَ الملوكُ الحقيقيُّونَ بالملك زا اليمن (زا معناهَا الملكُ). قيلَ هُوَ من اليَمَنِ، وقيلَ كانَ قائدَ قبائلِ البربرِ التى هاجرتْ إلى أراضِى المزارعينَ، المُهمُّ أنَّ زَا اليمنِ هذَا (ويُسمِّيه البعضُ زَا الأيمن) قادَ مجموعةً، هاجمَ بها الصيادينَ وطردَهم بعيدًا إلَى الشمالَ، ففرحَ المزارعونَ به وجعلُوه مَلكًا عليهم عامَ ٧٠٠م، ثمَّ حكمَهُم من بعده زَا زكى.. ثمَّ توالَى الملوكُ حتَّى صارُوا ١٤ مَلكًا. بعدَهم حكمَهم الملكُ زا كوسوى وكانتْ عاصمتُه كوكيا، وهوَ الملكُ الخامسَ عشرَ.

جاءَ لَه بعضُ أهلِ بلده وهمْ تجارٌ من مدينة جوا. كانُوا تعامَلُوا معَ بعضِ التجارِ المسلمينَ ولمسُوا أمانتَهم وصدْقَهم، فلمَّا سألوهُم عَن سببِ ذلكَ أخبرُوهُم أنَّه دينُهم الذى يدعُوهُم إلى مكارمِ الأخلاقِ. وعادَ التجارُ المسلمُونَ لبلادهم، بعدَ أنْ أسلمَ عددٌ من تجارِ جوا.

ذهبَ تجارُ جوا إلى الملك زا كوسوى، وحدثوه عن الإسلام فهداهُ اللهُ - عزَّ وجلَّ - إلى دينه الحنيف، وأطلقَ عليه الناسُ "مسلم دَمْ" أىْ أسلمَ طَوعًا بلا إكراه، ثمَّ سُمِّى ضياءَ كوسوى، ونقلَ عاصمتَه إلى جوا، وكانَ إسلامُه عامَ ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م. وقد أدَّى إسلامُ الملك إلى إسلام عدد من قبائل صُنْغَى.

وأسلمَ أهالى دولة صُنْغَى بعدَ ذلكَ بحوالَى ٤٠ عامًا حينَ انتشرتْ أخبارُ المرابطينَ فى دولة المغرب الأقصَى وقيام دولتهم هناكَ.

وانتشرت المساجدُ، وظلَّتْ دولةُ صُنْغَى قائمةً منذُ إسلام زا كوسوى ١٠٠٩م. حتَّى سقوط ملكها أسكيا نوح قتيلاً فى معركة ضدَّ مَراكشَ عام ١٥٩٤م. وبمقتله انتهَتْ دولةُ صُنْغَى، وانقسمَتْ إلى مقاطَعات يحاربُ بعضُها بعضًا، ثمَّ انتهَى الأمرُ بتقسيمها، فصارَ كلُّ جزء منها فى دولة الآنَ، ولكنْ لَمْ يزَل الإسلامُ حَيًا فى مدنها، فالدولةُ انهارَتْ، ولكنَّ ذلكَ لَمْ يمسَّ دينَها بسوء ولله الحمدُ. ولَمْ يزل التاريخُ يشهدُ أنَّ دولةَ صُنْغَى الإسلاميةَ قد رفعتْ رايةَ الإسلام لِمَا يقربُ من ستة قرون من الزمان.

٥٦- غانا

تقعُ غانَـا فـى القسمِ الجنوبىِّ الغربىِّ من وسطِ إفريقيَا، حيثُ يحدُّهَا ساحلُ العاجِ من الغـربِ، ومِـن الشـرقِ، وفُولتَا العُليَا مِن الشمالِ، وتطلُّ علَى المحيطِ الأطلنطىِّ من الجنوبِ.

دخلَهـا الإسلامُ بواسطة التجار المسلمينَ الذينَ كانُوا يذهبونَ إلَيها من بلاد المغرب فى القـرن ١٤ المـيلادىِّ، ويقـولُ السـلارىُّ فـى كـتابه الاستقصَـا لأخـبار دول المغـرب الأقصَـى: "كانَ تجارُ المغربِ يجتمعُونَ فى سجلماسةَ حاضرةِ بَنى مدرارٍ، ثمَّ يسيرونَ فـى قوافلهـم إلى غانـةَ، وكـانُوا يقطعـونَ المسافةَ فى ثلاثة أشهُرٍ ذهابًا وشهرٍ ونصفٍ إيابًا، وكانُوا يبيعونَ مَا معَهم منَ الأمتعة والأثقال بالتبرِ".

يتَّضِـحُ أنَّهُـم كـانُوا يقطعـونَ المسـافةَ فـى الذَّهابِ فى ضعْفِ الوقت نتيجةً لمَا كانُوا يُـثْقلُونَ بـه دَوَابَّهُـم من أمتعة وأثقال وبضائعَ كثيرة، أمَّا فِى العودة فكانَ كلٌّ منهُم لاَ يحملُ أكثرَ من كيسٍ.. لكنَّه مملوءٌ ذَهَبًا.

ذهـبٌ كـثيرٌ مـن التجارِ المغاربةِ إلى غانَا، وفتحَ اللهُ ـ سبحانَه وتعالَى ـ علَى بعضهم، فـأخذَ يحدِّثُ أهلَ غانَا عَن الإسلامِ ويدعوهُم لدينِ الله. ومن هُنَا بدَأ دخولُ أهلِ غانَا الإسـلامَ وانتشـرَ بـينَ أهلهـا. ولـيسَ هذَا بمُستَغربٍ؛ إذْ أوضحَ الباحثونَ أنَّ انتشارَ الإسـلامِ كـانَ يسيرُ معَ قوافلِ التجارة المغربية، ويزدهرُ علَى طول الخطوط التجارية، وكانـتْ غانَـا فـى نهايـة تلـكَ الخطوطِ حيثُ يُقيمُ التجارُ فترةً، كانتْ كافيةً لتعريفِ الأهالِى بدينِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فأدَّى ذلكَ إلى انتشارِ الإسلامِ فى أرجاءِ غانَا.

٥٧- بنين

تقعُ بـنينُ فـى القسمِ الجنوبىِّ الغربىِّ من وسط إفريقيَا، يحدُّهَا من الشمال فُولتَا العُليا والنَّـيْجَرُ، ويحدُّهـا مـنَ الشـرقِ نَـيْجِيريَا ومـن الغـربِ توجُـو، وتطـلُّ علَـى المحيط الأطلنطىِّ من جهة الجنوب.

وكانـتْ فـيهَا قَديمًـا مملكـةُ يُوروبـا الـتى امـتدَّتْ إلى أجـزاءَ كثيرة ممَّا حولَها فى عهود ازدهارهـا، وكـانَ أهلُهـا علَـى قسـطٍ كـبيرٍ مـن المدنـية، فكـانُوا يُجيدونَ الزراعةَ، ويستعملونَ الحديدَ، ويصنعونَ أشياءَ جميلةً منَ البرونزِ. وكانَ ذلكَ يُعدُّ تقدُّمًا بالنسبة للزُّنوجِ المحيطينَ بهم.

عـرفَ أهـلُ بـنينَ الإسـلامَ للمرة الأولَى حينَ وفدَ علَيهم رجلٌ من قبائلِ الهوسَا التى كانَـتْ تعيشُ فى شمالىِّ نيجيريَا، ونزلَ بنينَ فى القرن ١٢ الميلادىِّ، واستقرَّ فى مدينة إيـف Ife عاصمةِ يوروبَا الوثنية. وأرادَ أنْ يدعُوَ الناسَ للإسلامِ، لكنَّه لَم يكنْ يُجيدُ الكـلامَ بلغـةِ الـيوروبَا، لذلـكَ كانَ يقولُ للناسِ: "تعالَوْا نعبُدُ اللهَ الذى خلقَ الجبالَ والوهـادَ، وخلـقَ كـلَّ شـىء، وخلقَنَا". ثمَّ يصلِّى وهُمْ ينظرونَ إليه، ويقرأَ علَيهم سُوَرًا منَ القرآنِ الكريمِ لعلَّهم يهتَدُونَ.

ولَـم يستجبْ لَه الأهالى، وبعدَ عدةِ أشهرٍ تُوُفِّىَ، فوجدُوا المصحفَ معلَّقًا فى حائطِ داره، فقدَّسُوهُ علَى أنَّه وَثَنٌ.

وبعـدَ ستة قرونٍ جاءتْهُم قبائلُ الفولانيِّينَ المسلمةُ، فاكتسحُوا بلادَهم، وانتشرَ بينَهم الإسلامُ، فأسلمَ معظمُ أهالى بنينَ.

٥٨- تشاد

تشَادُ الآنَ تحدُّهـا ليبـيَا مـن الشـمال، والنـيجرُ ونـيجيريَا والكـاميرونُ مـن الغرب، وجمهوريةُ إفريقيَا الوُسطَى من الجنوب، والسودانُ من الشرق.

وكانَتْ تشادُ قديمًا جُزءاً من إمبراطورية كانمَ التى امتدَّتْ من بُحَيْرَة تشادَ غربًا إلى نهر النـيلِ شَـرقًا، قامتْ دولةُ كانمَ حوالَى عامَ ٨٠٠م. وكانتْ تُسَيْطِرُ علَى طرق التجارة المتجهة شمـالاً إلى فـزَّانَ والـبحرِ المتوسـطِ، وشَـرقًا إلى حَوْضِ وادى النيلِ، وكانتْ عاصمتُها جيمى شرقَ بحيرة تشادَ.

شـهدَت الـبلادُ هجـرات مـن دارفـورَ، كمَـا هاجرَ إلَيها بعضُ العرب الذينَ ينتمُونَ للأسـرة الأمويـة، هـربًا من اضطهاد العباسيينَ. ونجحَ بعضُ أبناء الأسرة الأموية فى إخـراجِ بـلاد كـانمَ من جهلِ الوثنية إلى نور الإسلامِ، وتحوَّلَت البلادُ إلى بلاد إسلامية حينَ أعلنَ الملكُ إسلامَه، وكانَ اسمُه هوميه جيلمه، فلمَّا أسلمَ أسمَى نفسَه محمدَ بنَ جبلِ بن عبد الله، وكانَ ملكُ كانَم يتَّخذُ لقبَ (ماو) الذى ظلَّ مستعمَلاً، كمَا اتخذت الأسرةُ المالكةُ لنفسها لقبَ (السيفية) نسبةً إلى سيف بن ذى يَزَنَ اليمنىِّ؛ إذ قالُوا إنَّهُم من سُلالته، وكانَ إسلامُ ملك كانمَ عامَ ١٠٩٠م.

وكانـتْ هـناكَ نتائجُ عظمَى لتحوُّل دولة كانمَ إلَى الإسلامِ؛ إذْ عرفَت الكتابةَ، فصارَ بالإمكان قيامُ دولة منظمة، كمَا رفعَ مستوَى الشعب الكانمىِّ إنسانيًا وأخلاقيًا وفكريًا وحضـاريًا، وظلَّـت الدولـةُ حـتَّى القـرنِ التاسعَ عشرَ، فقَد حكمَها ملوكُها فترةً ثمَّ عادُوا إلَيها.

لكـنَّ المهمَّ أنَّ الإسلامَ انتشرَ بينَ شعوبِ تلكَ المنطقةِ، واستمرَّ منذُ أنْ أشرقَتْ شمسُ الإسلامِ علَيها حتَّى اليومِ.

٥٩- السودان

تقعُ السودانُ في شرقِ قارّةِ إفريقيَا، تحدُّهَا من الشمال مصرُ ومن الشرق جزءٌ من البحرِ الأحمرِ وإثيوبيَا، ومِنَ الغربِ تشادُ وإفريقيَا الوُسطَى، ومن الجنوبِ زائيرُ وأوغندَا وكينيَا.

وكانتْ بلادُ السودانِ قديمًا تتكوَّنُ من عدد من الممالك هيَ: مقرةُ، علوةُ، البجةُ، كردفانُ، دارفورُ. وقَدْ هاجرَ للسودانِ أعدادٌ منَ العربِ وأعدادٌ من مسلمِي كانمَ وبرنُو من غربِها، ودخلَ الإسلامُ إلى بعضِ أهالِي السودانِ عَنْ طريق تلكَ الهجراتِ، لكنَّ الأعدادَ التِي أسلمتْ كانتْ محدودةً.

ثم نادَى أهلُ دارفورَ بأنْ يكونَ سليمانُ بنُ أحمدَ سُلطانًا عليْهم، وكانَ أبوهُ أحدَ المهاجرينَ منْ تُونُسَ، فبدأتِ الدولةُ الإسلاميةُ في دارفورَ بغربِ السودانِ عامَ ١٤٤٥م.

ثمَّ قامتْ مملكةُ الفونجَ الإسلاميةُ الكبرَى في السودانِ عامَ ١٥٠٥م. أسَّسَها عمارةُ دُونْقسَ منْ قبيلته التِي كانتْ تقيمُ فِي جبالِ الفونجَ فسمِّيتْ باسمِها، وقيلَ إنَّ أصولَهم ترجعُ للأمويِّينَ.

التفَّتْ جماعاتٌ منْ قبيلةِ الفونجِ حولَ عمارةَ، وحضرَ عبدُ الله بنُ جماعٍ من قبيلةِ القواسمةِ الجهنيةِ، واتفقَ الجميعُ علَى قتالِ الغنجِ ملوك سوبه، فانتصرَ جيشَا عمارةَ وعبدِ الله، ثمَّ زحفَا إلى الشمالِ إلَى مَا قبلِ حدودِ مصرَ بقليلٍ عندَ الشلالِ الثالثِ، وجعلَ عمارةَ كلَّ الأراضِي الواقعةِ بينَ النيلين إلى حدودِ الحبشةِ والأراضِي الشرقيةِ تابعةً لَه. وبنَى مدينةَ سنارَ لتكونَ عاصمةً له، أمَّا عبدُ الله بنُ جماعٍ فاتخذَ مدينةَ فرى عاصمةً لمشيختهِ، وحكمَ السودانَ الشماليَّ من رأسِ الجزيرةِ إلَى قربِ حدودِ مصرَ،

وكانَ حُكمُه لهذه المنطقة بصفته وكيلاً لعمارةَ دونقسَ، ويعدُّ قيامُ دولة القونج البداية الرسميةَ للسيطرة العربية والإسلامية علَى بلاد السودان؛ إذْ قامتْ دولةٌ إسلاميةٌ فشملتْ أراضيَ مملكة علوةَ كلَّهَا، ومعظمَ أراضي مقرةَ، وأرضَ مملكة البجة بينَ النيلِ والبحرِ الأحمرِ، ثمَّ ضُمتْ كردفانُ بعدَ ذلكَ إلى الدولة.

تطوَّرَتْ عَلاقاتُ السودان بغيرها من البلاد بعدَ أنْ صارتْ تضمُّ أجزاءَها دولةُ القونج أو دولةُ سنارَ نسبةً إلى عاصمتها. وعوملَتْ معاملةَ الدولة الإسلامية، وانتشرَ الإسلامُ بينَ الأهالي انتشارًا عظيمًا، وبُنِيَت المساجدُ والمعاهدُ ودورُ العلمِ، وزارَها علماءُ أجلاَّءُ، وظلَّتْ دولةُ القونجِ تحكمُ السودانَ حتَّى عامَ ١٨٢١م. حيثُ اكتسحتْهَا جيوشُ مصرَ بقيادة الخديو إسماعيلَ (في عهد أبيه محمد عليٍّ باشَا).

بعدَ ذلكَ قامت الثورةُ المهديةُ بالسودان سنةَ ١٨٨١، ثمَّ توفِّيَ المهديُّ فجأةً عامَ ١٨٨٥م. ثمَّ قُتلَ خليفتُهُ عبدُ الله بنُ السيد محمد في القتال عامَ ١٨٩٩م. لتنتهيَ الثورةُ. ويعقبُها دخولُ الجيوشِ المصرية والبريطانية، وقامَ الحكمُ الثنائيُّ في السودان، حيثُ أعلنَ أنَّه يُحكَمُ عَن طريقِ مصرَ وبريطانيَا. وفي الحقيقة لَم تكُنْ حكمًا ثنائيًا، وإنَّمَا كانتْ فترةً استعماريةً، خاصةً أنَّ مصرَ كانتْ تحتَ سيطرة بريطانيَا.

ومرَّتْ أحداثٌ كثيرةٌ، وظلَّت السودانُ تابعةً لمصرَ حتَّى اختارت الاستقلالَ عَنها، وإنْ ظلَّ بينَ البلدين نيلٌ واحدٌ يسقي أبناءَهُما، وأذانٌ واحدٌ يرتفعُ في سماء كلٍّ منهُما، يجمعُهما نورُ الإسلامِ الذي أشرقَتْ شمسُه في البلاد.

٦٠- أوغندا

تقـعُ أوغـندَا جـنوبَ السـودانِ، فِـى شـرقِها كينـيَا، وفِى غربِها زائيرُ، وفِى جنوبِها تنزانيا.

تأسَّسَـتْ أولُ دولـةٍ فِـى أوغـندَا فِـى القـرن ١٦ الميلادىِّ باسمِ مملكة يونيورو علَى يد مهاجـرينَ نـزلُوهَا مِـن جـنوبِ شـرق السودان. وفِى القرن ١٧ الميلادىِّ قامتْ مملكةُ أوغـندَا وكانـتْ مملكـةً قويـةً سعَى إليهَا التجارُ من أنحاءَ كثيرة، ومنهم العربُ الذينَ كانُوا يتاجرونَ فِى العاجِ، ووصلُوا إلى أوغندَا فِى النصف الأولِ من القرن ١٩.

أرادَ بعـضُ الـتجارِ العـربِ أنْ يُخـرجُوا أهلَ أوغندَا الوثنيِّينَ من الظلمات إلى النور، فأقـامُوا بهـا، وأخـذُوا يدعـونَ أهلَهـا إلى الإسلامِ، فأسلمَ منهُم عددٌ كبيرٌ، وأقيمت المسـاجدُ وبعـضُ دورِ العـلمِ، وقَـد رأَى أهـلُ أوغندَا فِى المسلمينَ نماذجَ طيبةً للتاجرِ الأمـينِ، وأعجـبَهم حُسْـنُ أخلاقهـم، فـأدَّى السـلوكُ الطيـبُ للمسـلمِينَ إلَى رغبةِ الأوغـنديِّينَ فِـى التعرُّف إلَى دينهم الذى سَما بأخلاقهم، ثمَّ أخذُوا يدخلُونَ فِى دينِ الله - عـزَّ وجـلَّ - فصـارَ مَـا يقـرُبُ مِـن خُمـسِ سكانِ أوغندَا مُسلمِينَ، يصلُّونَ فِى مساجدِها ويقيمونَ شعائرَ دينِ الله، فهِىَ دولةٌ قَد شهدتْ شمسَ الإسلامِ وهِىَ تشرقُ فِى البلادِ.

المحتوى

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ ـ شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١